جامعة قطر

حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد الرابع

١٤٠١هـ - ١٩٨١م

جامعة قطر

حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد الرابع

١٤٠١هـ - ١٩٨١م

فهـــرس الحوليـــة

رؤية فنية في دراسة النص الأدبي

الدكتور
ماهر حسن فهمي
أستاذ بقسم اللغة العربية

النقـــد عـــلم أم فـن ، إشكالية استغرقت وقتاً وجهـداً ، حتى استقرت أخيراً أو كادت مركباً له سماته التي خلصت العـلم من جفافه وخلصت الفـن من تباعد الأذواق . فهو يضم موضوعية العلم في تحليله وذاتية الفن في تذوقه ، بمعنى أن القـراءة الأولى دائماً قـراءة ذوقية يسيطر فيها الناقـد على النص ويبدي انطباعه ، ثم تتراجع ذات الناقـد وتتوارى حتى يسيطر النص على الناقـد ، وبذلك تنتهي المرحلة الأولى . المرحلة الثانية مرحلة التفسير والتحليل للعمل الفني ، وهنا ينظر الناقد نظرة شـمولية للعمـل الأدبي ، نظرة فاحصة ، تستفيد من كل العـلوم المساعدة والخبرات الجمالية ، فيما يسمى بالمنهج التكاملي .

والواقع أن النقـد العـــربي في مراحل تطوره قطع أشواطاً منذ كان ملاحظات مبتسرة تصدر عن الذوق فيقال : هذا أغزل بيت وذاك أمدح بيت ، أو امرؤ القيس أشعر الناس إذا ركب والنابغة إذا رهب وزهير إذا رغب والأعشى إذا طرب . أو حين كان ابن أبي عتيق يقول : لشعر عمر بن أبي ربيعة نوطة بالقلب وعلوق بالنفس ، كما يروي صاحب الأغاني ، إلى أن اتجه نحو الموضوعية منذ عصر جمع اللغة ووضع أصول النحو والعروض ، متدرجاً من الأحكام الجزئية إلى عصر التأليف . ومادام الأدب صناعة (انظر الصناعتين على سبيل المثال) فلابد من ضبـط أصول هذه الصناعة . وهنا شغلتهم ثنائية كاللفـظ والمعنى ، والخطأ والصواب والإيجاز والاطناب وحسن الأخذ وقبحه ، فهو نقـد قيمي معياري يبحث قياس الجودة والرداءة . وتفرعت عن هذه الثنائية دراسات عديدة . والواقع أنهم حين تناولوا قضية اللفـظ والمعنى ورأى الكثيرون ابتداء من الجاحـظ إلى قدامة بن جعفر وأبي هـلال العسكري أن المعاني مطروحة في الطريق وإنما مدار البلاغة حول اللفـظ(١) ،

(١) راجع كتاب الصناعتين ص٦٣ ـ القاهرة ١٩٧١ .

كانوا يصدرون عن نظرية ترى أن الأديب لا يبتدع الأشياء من فراغ ، ولكنه يأخذها من حيث أتت ، من الطريق ، ويحررها من المدلول السابق ويمنحها إيحاء جديداً (٢) ، وحسن الأخذ وقبحه أو السرقات شغلتهم إشكاليتها بحيث لا تكاد تجد كتاباً نقدياً ابتداء من القرن الرابع لم يتناول القضية ، فقد حددوا بدقة متى يكون الأمر سرقة ومتى يكون أسوأ من السرقة كالسلخ وهو التشويه ومتى يخرج الأمر من دائرة السرقات إلى دائرة التأثر الفني والإضافة الجديدة . وهكذا الشأن في بقية القضايا التي تناولوها وقلبوها على كافة الوجوه . وكانت مقدمات المؤلفات النقدية تشكل وجهة نظر جديرة بالاعتبار في أكثر الأحيان مثل مقدمة طبقات الشعراء لابن سلام ومقدمة الشعر والشعراء لابن قتيبة . فمقدمة الطبقات تثير قضية الشك في الشعر الجاهلي وتحاول ضبط روايته ووضع أسس للرفض والقبول . ثم حاول ابن سلام أن يضع أسساً للطبقات يقوم على إعتبار الزمان والمكان ، فشعراء الجاهلية غير شعراء الإسلام ، وشعراء البادية غير شعراء القرى ، وعلى اعتبار القيمة الفنية من حيث كثرة الشعر وتنوع فنونه وجودته . أما مقدمة الشعر والشعراء لابن قتيبة فقد عرضت لنظام القصيدة وبنيتها من حيث البداية بالاطلال ثم الانتقال إلى وصف الرحلة التي يقطعها الشاعر إلى الممدوح ومن حيث التخلص إلى المديح ثم اختتام القصيدة ، وقد حاول ابن قتيبة أن يفسر هذا الانتقال من غرض إلى غرض ، فرأى أن حياة البداوة التي عاشها الشعراء في الجاهلية فرضت عليهم النقلة من أجل المرعى ومن هنا كان حديثهم عن الأطلال التي خلفوها ، وإن كانت هناك تفسيرات معاصرة في نقدنا الحديث للبداية بالأطلال على أساس رمزي باعتباره معادلاً للصراع بين الموت والحياة ، ممثلة في الأطلال من ناحية والغزل والتشبيب من ناحية أخرى (٣) كما فسر ذلك المستشرق فالتر براونه وعز الدين إسماعيل . ولكن من الواضح أن ابن قتيبة حاول تأصيل النظام الموروث في العمل الفني وضبط منهج القصيدة ، ذلك المنهج الذي أكمله المرزوقي في شرحه لديوان الحماسة ، فيما سمي بعمود الشعر بأبوابه السبعة (٤) التي تتحدث عن سوائر الأمثال أو أبيات الحكمة ، ووضوح وجه الشبه ،

---

(٢) دراسات في نقد الشعر ـ الياس خورى ـ بيروت ١٩٧٩ .

(٣) راجع الشعر الجاهلى قضاياه الفنية والموضوعية ابراهيم عبد الرحمن ـ القاهرة ١٩٧٩ ـ ص٣٤٧ ـ ٣٥٣ .

(٤) شرح المقدمة الأدبية للمرزوقى على ديوان الحماسة لمحمد الطاهر عاشور ـ تونس ١٩٧٨ ـ ص٨٢ .

ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ومشاكله اللفظ أو مماثلته للغرض الذي يهدف إليه الشاعر ، وشدة اقتضائهما للقافية ، والتحام أجزاء النظم ، واختيار الوزن المناسب .

والواقع أن النقد العربي القديم قد انتقل في مرحلة من مراحله إلى قضايا جمالية تعرض للتذوق الفني ، كأن الأُمم في مراحل تطورها تبدأ من الحكم الانفعالي إلى الموقف العقلي ثم إلى رؤية حضارية متوازنة ، هي ما يسمى « بموضوعية الفن » . ومن هنا وجدنا عبد القاهر الجرجاني بكتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، ومن خلال علمي المعاني والبيان يخرج بنظرية النظم التي تقضي على ثنائية اللفظ والمعنى ، لأن العمل الفني لا يرجع جماله إلى اللفظ ولا إلى المعنى ، ولكن إلى الصورة الأدبية « وذلك أنهم لما جهلوا شأن الصورة ، وضعوا لأنفسهم أساساً وبنوا على قاعدة ، فقالوا إنه ليس إلا المعنى واللفظ ولا ثالث » (٥) . وتقضي على ثنائية قبح الأخذ وحسن الأخذ ، ومن هنا ندرك أن قضية السرقات كلها لم تعد لها الأهمية الكبيرة التي كانت تشغل النقاد ، فاتفاق بيتين في المعنى لابد أن يقوم بينهما خلاف في أدائه ونظمه وهيئة تعبيره ، ما دامت الجملة يتغير نظمها بمجرد تغير ترتيب ألفاظها « وكذلك كان الأمر في المصنوعات ، فكان بين خاتم من خاتم وسوار من سوار بذلك ، ثم وجدنا بين المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر بينونة في عقولنا وفرقاً ، عبرنا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بأن قلنا : للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك ، وليس العبارة عن ذلك بالصورة شيئاً نحن ابتدأناه فينكر منكر بل هو مستعمل مشهور في كلام العلماء ويكفيك قول الجاحظ : وإنما الشعر صناعة وضرب من التصوير » (٦) .

ثم يأتي حازم القرطاجني في كتابه « منهاج البلغاء » بنظريته الجمالية القائمة على « التناسب » فيرى أن إبداع الشاعر يرجع إلى الصلة بين الشاعر وبين موضوعه « اعلم أن خير الشعر ما صدر عن فكر ولع بالفن والغرض الذي القول فيه مرتاح للجهة والمعنى الذي وجه إليه كلامه لاقباله بكليته على ما يقوله ، وتوفير نشاط الخاطر وحدته بالانصباب معه في شعبة ، والميل معه حيث مال به هواه ، ولهذا كان أفضل نسيب ما صدر عن سجية نفس شجية وقريحة قريحة ، وكذلك الاخوانيات والمراثي وما جرى هذا المجرى » (٧) .

---

(٥) دلائل الاعجاز ص٣٠١ ، القاهرة ١٩٦٠ .
(٦) المرجع السابق ص٣٢٠ .
(٧) المنهاج ص٣٤١ ، تونس ١٩٦٦ .

والتناسب عند حازم محور الصياغة في العمل الفني (٨) من حيث حروف الكلمات ومن حيث كلمات الجملة الشعرية ومن حيث الجمل كلها . وهو أمر مرجعه إلى الشعور قبل كل شيء مثل تشاكل الألحان والأصباغ « وليست المحاكاة في كل موضع تبلغ الغاية القصوى من هز النفوس وتحريكها ، بل تؤثر فيها بحسب ما تكون عليه درجة الإبداع منها ، وبحسب ما تكون عليه الهيئة النطقية المقترنة بها ، وبقدر ما تجد النفوس مستعدة لقبول المحاكاة والتأثر بها »(٩) وهنا ينتقل إلى المتذوق نفسه فيلاحظ أنه لابد أن يكون مهيئاً لقبول المحاكاة كما يقول ، كأن عملية التذوق الجمالي حركة مستمرة من العمل الأدبي إلى نفس المتذوق ومن نفس المتذوق إلى العمل الأدبي حتى يقوم التناسب أو التوازن بينهما فتتم التجربة الذوقية أو الجمالية للفنون .

وقد مر النقد المعاصر بدورة تكاد تماثل الدورة السابقة فانتقل من مرحلة الصراع بين الفن والعلم ممثلاً في الوقفة التأثرية مع إهمال كل ضروب المعرفة الأُخرى كما نرى في في دراسة محمد مندور « في الميزان الجديد » أو الدراسة العلمية الخالصة كما نرى في دراسة العقاد « أبو نواس دراسة نفسية » ومن يقرأ عن المعركة النقدية التي قامت في الأربعينات بين محمد خلف الله أحمد صاحب « من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده » وبين محمد مندور ، يدرك أبعاد الموقف في تلك المرحلة .

لقد هدأت المعارك ووصلت إلى مرحلة الاتزان بعد توتر ، فيما يسمى بالاتجاه التكاملي الذي يستفيد من كل المعارف في تحليل النص الأدبي بين موضوعية العلم في في مقاييسه وذاتية الفن في تذوقه ، فخلا من جفاف العلم ، ومن تنافر الأذواق . وكأن مرحلة التذوق الفني مرحلة حضارية متقدمة لا يصل إليها النقد إلا بعد مروره في سلسلة من التجارب الذوقية والعقلية كما ذكرنا .

القراءة الأولى للنص هي بالضرورة قراءة ذوقية كما قلنا ، ولكن المهم القراءة الثانية التي يحاول فيها الناقد أن يتلمس المواضع والعناصر التي تدخل في تركيب العمل المنقود والتي كان من شأنها أن تحدث ما أحدثته من أثر في عملية التذوق . يقول زكي نجيب محمود : « موقف الناقد في الخطوة الأولى التي يستخدم فيها لفظاً جمالياً ، هو موقف مفتوح ، أي أنه

(٨) المرجع السابق ص٢٢٢ .
(٩) المرجع السابق ص١٢١ .

قابل لأن تدخل فيه أشياء كثيرة ، وأما موقفه في الخطوة الثانية التي يشير فيها إلى شيء محسوس في العمل المنقود فهو موقف مقفل لأن الأمر عندئذ يختم وينحسم بالإشارة إلى شيء واحد . . . » (١٠) .

وعلى ضوء النظرية النقدية المعاصرة فإننا ننظر إلى النص من زاوية المبدع أولاً أو ما يسمى بالمنهج الخارجي لدراسة النص . إن علم النفس الأدبي يعتبر كل عمل فني نوعاً من الإذاعة الذاتية عن الفنان يمكن أن يقرأها الناقد ، فالناس في الحقيقة رجلان : أحدهما اتجه إلى داخله واتخذ من أحلامها وميراثها اللا شعوري مادة لإبداعه وهو الفنان ، والثاني إتجه إلى الخارج وسلط عليه حسه وفكره وهو العالم (١١) . وهنا تجيء دراسات « فرويد » عن دافنشي أو هاملت ، و « س . هربرت » عن شلي مغني الحرية أو « العقاد » عن أبي نواس . والحقيقة أن تاريخ حياة الأديب يعيننا على فهم شخصيته من ناحية وظروف العمل الفني من ناحية أُخرى . ومن هنا كانت اهتمامات الكاتب الفرنسي « سانت بيف » بالسير الأدبية ، وإن كان موضع النقد الذي وجه إليه أنه يتناول حياة الأديب بعد أن يذيع صيته أو بعبارة أُخرى تفلت منه مرحلة تفجر العبقرية فلا يصل إليها . ولكن تاريخ الحياة يعيننا على إدراك كثير من أبعاد الاتجاهات الأدبية . لماذا اتجه حافظ إلى البكائيات ، ألأنه نشأ يتيماً ، وماذا كان أثر نشأة المتنبي في تضخم الأنا عنده ، هل يعود ذلك إلى نشأته المشبوهة كما يرى طه حسين أم إلى نسبه المتميز كما يرجح محمود شاكر ، إن مفتاح الظاهرة في النشأة الأولى سواء أخذنا بهذا الرأي أم بالرأي الآخر .

وهكذا تعيننا الدراسات النفسية على تحليل العاطفة في صدقها وزيفها ، واضطرابها وهدوئها ، والشخصية في ظهورها أو خفائها ، وأسباب إجادة الشاعر في فن ما . ومن الحق أن نقادنا العرب قد التفتوا قديماً إلى كثير من هذه الظواهر النفسية ،وقد عرض محمد خلف الله أحمد في كتابه « من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده » بعض هذه الظواهر مثل التفات ابن قتيبة للدواعي أو الدوافع لقول الشعر كالطرب والطمع والغضب والشوق ، والتفات القاضي الجرجاني لأهل النقص وما يدفعهم إلى حسد الأفاضل وانتقاص الأماثل وهجائهم . وكذلك إرجاعه سلاسة الشعر ودماثة الكلام إلى دماثة الطبع والخلقة ، أما الجافي

---

(١٠) فى فلسفة النقد ص٣٨ ، بيروت ١٩٧٩ .

(١١) من الوجهة النفسية ص٢٣ ، القاهرة ١٩٤٧ .

الخلف فكز الألفاظ معقد الكلام . ويمثل للسلاسة بعدى بن زيـد ، فهو على جاهليته أسلس في شعره من الفرزدق وروبة وهما إسلاميان ، ويعود لعدى فيرى أنه من أسباب هذه السلاسة ملازمته الحاضرة . ويتوقف عند عبد القاهر الجرجاني خـلال شرحه لنظرية النظم فيرى التفاتاته الذكية إلى النواحي النفسية في التأثير حين يقول : « فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا أو يستجيد نثرا فيقول : حلو رشيق وحسن أنيق وعذب سائغ وخلوب رائع ، فاعلم أنه ليس ينبيك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف وإلى ظاهر الوضع اللغوي ، بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده ، وفضل يقتدحه العقل من زناده »(١٢) .

وهذه الملاحظات قد تطورت في زماننا إلى نظريات في علم النفس الأدبي . وهكذا الشأن في علم الاجتماع الأدبي ، فالفن ظاهرة اجتماعية والفنان كائن اجتماعي والقيمة الفنية لهـا بعد اجتماعي أي بحاجة إلى شهادة الجمهور ، والحياة الاجتماعية محصلة تفاعل الزمان والمكان ، فليست هي التاريخ ولا هي الجغرافية وإن كان لهما أثرهما . ويتناول علم الاجتماع الأدبي الأجناس الأدبية مفسراً ظهور الفنون الأدبية (١٣) كالملحمة وارتباطها بالمجتمعات البدائية والمسرحية وارتباطها بالمجتمعات الحضارية والقصة ونموها في المجتمع البرجوازي . ثم يتناول علم الاجتماع الأدبي الموضوعات فيلاحظ على سبيل المثال أن فن المديح يرتبط بالبيئات الارستقراطية وأن فـن الهجاء يرتبط عـادة بالبيئات الشعبية . كما يلاحـظ من ناحية أخرى أن الأدب قد مهد لكثير من التغيرات الاجتماعية كما حدث بالنسبة للثورة الفرنسية والثورة الروسية والثورة المصرية أيضاً . ولعل القاريء لديوان « إصرار » لكمال عبد الحليم وقصص « المعذبون في الأرض » لطه حسين وثلاثية نجيب محفوظ يدرك هذا المدلول . أما الجانب الثالث فهو الشخصيات الأدبية ، ولعل نشأة حافظ الشعبية تفسر لنا تبنيه القضايا الشعبية ، بينما نشأة شوقي الارستقراطية تفسر لنا تبنيه المواقف الرسمية للسلطة في الفترة الأولى من حياته قبل المنفى . ولكن الأمر أبعد من ذلك ، إنه يتسع لنظرية كنظرية تلاقي المدنيتين (التوتر والتوازن) ومراحـل الالتقـاء الحضاري مسئولة عن مواقف الأدباء مثل مرحلة التقاء الحضارتين العربية والفارسية التي مثلها

(١٢) اسرار البلاغة ص٣ ، القاهرة ١٩٢٥ .

(١٣) راجع نظرية الانواع الادبية تاليف فنسن وترجمة حسن عون ص١٠٩ وما بعدها الاسكندرية ١٩٥٤ .

أبو نواس فكان أشبه بنقطة تقاطع ، ومن هنا كان شعاره « إذا أمكن الجهر » الذي يفسر محاولة الانعتاق . وربما كان شوقي ممثلاً لنفس الموقف في العصر الحديث ومن هنا كان تردده بين الحضارتين الشرقية والغربية الذي يفسر كثيراً من مواقفه الفنية والحياتية .

أما العنصر الرابع فهو الأساليب ، وانعكاس الحدث العام على الذات يشكل مرحلة من مراحل الإبداع الفني ، لأن الخيال لا يخترع من فراغ ، ولكنه يقوم بتركيب الصور من المواد الموجودة في الذاكرة ، ولا يمكن تفسير كثير من هذه الصور إلا في ضوء العلاقة بين الصورة والبيئة الاجتماعية . فعندما يقول الشاعر : « البدر يشرق في سواحلنا كلؤلؤة كبيرة » ندرك أنه شاعر خليجي يمتح من مخزون بيئي يركب منه صورة . وهكذا كان الأمر دائماً منذ العصر الجاهلي فلا نستطيع أن نفسر كيف يفضل الشاعر — أو الإنسان — فرسه على زوجه إلا إذا درسنا القيم والأعراف الاجتماعية في تلك البيئة (تلوم على أن أمنح الورد لقحة ، وما تستوي والورد ساعة تفزع) ، وفي ضوء هذه القيمة والأعراف ربما فسرنا كثيراً من الظواهر الفنية مثل مخاطبة المثنى (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) واعتباره الضخامة مقياساً للجمال (ببهكنة تحت الطراف المعمد) .

وهكذا الشأن في تفسير نشأة المدارس الأدبية كالرومانسية والواقعية ، فإن ظهور مثل هذه المدارس الأدبية كان مرتبطاً بتغير اجتماعي . على أن نظرية الأدب نفسها في ضوء هذا المدخل يمكن أن تقوم على عوامل اجتماعية كما يرى بعض الباحثين . فاللغة قد قد ظهرت مع العمل وارتفعت بتقدم علاقات الإنسان بعالمه الاجتماعي وبرقي أدوات عمله ، كما صاحبت المعاناة الجمالية العمل ، وبذلك كان الفن البدائي جماعياً ، إنه بمعنى من المعاني أداة سيطرة من جانب الإنسان على عالمه الطبيعي ، وأصبح الفن في المجتمع المعاصر وعياً بالصراع وأداة لكشف العلاقات في المجتمع . ومن هنا كان الموقف الاجتماعي للفنان له دور أساسي في تحديد تجاربه من حيث السطحية أو العمق ، أو هو انعكاس لواقع محدد مهما كان إبداعاً ، لأن الإبداع لا ينشأ من فراغ كما قلنا من قبل ، وقوانين الفن نفسها تعمل وفق قوانين أعم وأشمل هي ضمن قوانين الوجود الاجتماعي . وبهذا المعنى فإن الفن عمل خاص، وإذا كان المنتجون يعانون ظاهر العلاقات الاجتماعية ، فإن الفنانين يكشفون عن باطن العلاقات ومغزاها ، بمعنى أن الفن يتضمن النسبي المتعلق بالدلالة الاجتماعية كما

يتضمن الثابت المتعلق بالدلالة الإنسانية الباقية ، ولهذا فإن الاجتماعيين يرون أن الفكر الأدبي وجه من وجـوه الفلسفة العـامة السائدة في المجتمع (١٤) .

أما المنهج الداخلي لدراسة النص فهو بالضرورة التحليل الجمالي ، وتاريخ النقد الأدبي يعتبر جزءاً من تاريخ الفكر الجمالي . وهو يعرض للشكل والمضمون ـ مع ملاحظة أن الشكل لا ينفصل عن المضمون فهما معاً يكونان بناء القصيدة أو العمل الفني ـ والمضمون هو زاوية الرصد أو هو الموقف الفكري الذي يقفه الأديب من الموضوع . فقد يكون الموضوع حادثة دنشواي على سبيل المثال ، ومضمون شعر حافظ إثارة النعرة الوطنية ضد المستعمر (فليت كرومرا قد دام فينا ، يطوق بالسلاسل كل جيد ، لننزع هذه الأكفان عنا ، ونبعث في العوالم من جـديد) ، وقد يكون المضمون كما نجد في قصيدة صلاح عبد الصبور « شنق زهران » الصراع بين الخير والشر وانتصار الشر في موقعة ولـكن إلى حين .

أما الشكل فهو جوانب البنـاء الأُخرى من حيث الكلمة والجملة الشعرية في إطار الصورة والموسيقى التصويرية . وهناك نظرية موسيقية مازالت مطروحة منذ طرقها حازم القرطاجني ، فيما أسماه بتناسب المسموعات ، ومحورها العلاقة بين النغم والموقف أو بعبارة أوضح العلاقة بين بحور الشعر والتفعيلات وبين الموقف الفكري أو مضمون العمل الأدبي ، وإذا كانت الموسيقى تعبيراً وليست تطريباً أو هي موسيقى تصويرية فمعنى هذا أنها لابد أن تخفت في موقف وأن تشتد في موقف وأن نحتاج إلى الموسيقى الوترية في حين من الأحيان وإلى فرقة موسيقية في حين آخـر . وبعض البحور المركبة مثل البحر الطويل (مركب من المتقارب والهزج) والبسيط (مركب من الرجز والمتدارك) يمـكن أن تقوم مقام الفرقة الموسيقية ، كما أن بعض البحور الصافية مثل المتدارك بإيقاعه السريع يصلح لمواقف لا يصلح لهـا بحر آخر مثل الرمل بإيقاعه البطيء ، وهو موضوع جدير بمزيد من البحث للوصول إلى حقائق يقينية أو نهائية إن أمكن على أساس كمية النغـم (١٥) .

ومن المؤكد أن هذا الاختيار عملية لا شعورية تتم خـلال التجربة الفنيـة التي يشبهها النقـاد في مراحلها المختلفة بمراحل تكوين الأجنـة ثم استكمال الشكل حتى الميـلاد .

(١٤) راجع نظرية الادب لعبد المنعم تليمة ص١٩٨ وما بعدها ، القاهرة ١٩٧٦ .
(١٥) راجع موسيقى الشعر العربى لشكرى عياد ، القاهرة ١٩٧٨ ص١٤٩ وما بعدها .

لذلك فإن القضية تعود بنا إلى اختزان الشاعر للتجارب الجزئية ورصد انفعالاته إزاء الأحداث الخارجية ثم تفاعل هذه الأحداث مع الذات واختمار كل هذا حتى يأتي مثير ينبه الخيال الخلاق عند الفنان كما يقول رائد النقد الحديث « كوليردج »(١٦) . وهذا الخيال قادر على أن يذيب أو يصهر الجزئيات ويبدع من جديد كلاً منسجماً ، ولكنه بحاجة إلى قوة أخرى تجعل من هذه الرؤية الجديدة عملاً خاضعاً للنظام ، وهذا دور الجانب الواعي لدى الفنان في التجربة الأدبية .

إن العمل الفني حين يمس جوهر الإنسان يشرك أكبر عدد من الناس في الاستجابة للأثر الفني ، فعلى الرغم من الاختلاف بين البشر ، إلا أن فيهم إنساناً واحداً لامتنا هي النزعات ، فهو قوي ضعيف ، يفرح ويحزن ، يثور ويهدأ ، يعرف الأمل واليأس ، والفقر والغنى ، والانتصار والهزيمة . هذا الجوهر يذوب في العمل الفني ويستحيل إلى مجموعة من المركبات الصغيرة تصهرها صورة كلية ، وكل جزء من هذه الأجزاء يؤدي دوره داخل البناء الفني ، فيما يسمى بالبناء الوظيفي . وإذا كان الشعر فناً زمانياً كالموسيقى ، إلا أن له بعدا مكانياً يتمثل في الصورة الكلية ، ولعل عنصري الصراع والحركة في العمل الفني من أهم عناصر الموقف الانفعالي الذي يوحد العمل فيما يرى النقاد . وهما في الأصل من أصول العمل المسرحي ولكن الشاعر الغنائي يستغلهما ليمنح صوره ما يسمى بالدرامية بخلاف العرضين السردي وهو ينتمي إلى التشكيل الروائي ، والتقريري وهو عقلي في الغالب يمنح اليقين المنطقي إلى جانب اليقين الوجداني بمعنى أن العمل الفني يقوم على توازن الجانبين . إن الوحدة العضوية حتى في القصيدة الغنائية خلاصة الفلسفة النقدية من القديم إلى الحديث ، من الرابطة النفسية في القصيدة الجاهلية ، التي تنسجم مع الرابطة القبلية ، إلى الوحدة الموضوعية إلى الوحدة العضوية التي تذوب فيها جماليات النص الأدبي ، ويمكن أن يكون التحليل هادياً لنا في إدراك هذه المفاهيم .

« مصاير الأيام » لأحمد شوقي

تجربة الشاعر هنا تجربة ذاتية تتلخص في رؤية الأطفال يخرجون من إحدى المدارس بحلوان ، فيتذكر طفولته ، ولكنه استطاع تحويلها إلى تجربة عامة ، عندما خرج من

(١٦) فلسفة الجمال فى الفكر المعاصر محمد زكى العشماوى ، بيروت ١٩٨٠ ص ٨٤ وما بعدها.

إطار الطفولة إلى دورة الحياة و « مصاير الأيام » فغابت وحدة الفرد في لقاء مع الإنسانية .

ومن الواضح أن العنوان يوحي بمضمون القصيدة ، فهي تتناول صراع الإنسان مع الزمن. ولقد تناول توفيق الحكيم هذا الصراع في مسرحيته « أهل الكهف » وانتهت المسرحية بانتصار الزمن . وهنا أيضاً يتناول شوقي موقفاً مشابهاً ، ولكن الرؤية مختلفة ، وإن كانت النهاية واحدة ، والموقف يوضح العلاقة بين الشكل والمضمون . ان اختيار بحر المتقارب وهو نغم يسرع سرعة الأيام ، اختيار موفق لأن الموقف يتناول دورة الحياة ، وهو يثير قضية في نفس الوقت . إن الشاعر في مرحلة الانفعال بحاجة إلى ضابط يعيد إليه توازنه ، والوزن المناسب للانفعال هو وحده الذي يقوم بهذا الدور . وربما استثنينا البحور المركبة التي تشبه فرقة موسيقية يمكنها عزف كل المقطوعات .

ألا حبذا صحبة المكتب وأحبب بأيامه أحبب

هكذا بدأ شوقي قصيدته ، وألا أداة استفتاح أتت للتنبيه ، كأنما تلفتنا إلى أهمية الصياغة التالية في البيت . إن دوران حرفي الحاء والباء مرة ومرة ومرات في حبذا وصحبة وأحبب يعني قوة هذا الحب ، واستمراره لتلك الأيام ، والحنين الطاغي الذي شخص المكتب وأحاله أليفاً وصاحباً ، ثم قال : « وأحبب بأيامه » لأن السنين الهنيئة تمر مسرعة عجلة كالأيام ، ومن هنا أحاطها بمشاعر الحب فاختتم قائلاً : « أحبب » . فإذا كان البيت ابتدأ بالحب ، فقد انتهى به ووقف عنده ، ليعود مبتدئاً به من جديد في البيت التالي :

ويا حبذا صبية يمرحون عنان الحياة عليهم صبي

فكأنما جو الحب قد فاض عن البيت الأول وملأ قسما من البيت التالي . وهو أمام صبية « يمرحون » لم يقل « تمرح » فالصياغة هنا مدلولها اتصال المرح واستمراره كأن حياتهم لهو لا ينتهي ، لأن عنان الحياة مازال صبياً لاهياً معهم ، وعنان الحياة هو موقف الاندفاعات ، هو العقل والأعباء والتقاليد في وقت واحد .

وإذا كان التشبيه ـ وهو عنصر أصيل في البناء الفني ـ تعبيراً حياً عن تجربة شعورية ، أدركنا قيمته كأداة من أدوات التوصيل ، حين يأتي كالومضة التي تضيء أمام المتوغل في

أعماق النص أو عالمه الداخلي المليء بالحياة والحركة . ومن هنا ندرك أن جهامة الحياة في الشيخوخة هي التي شكلت تشبيه صبية يمرحون ببسمات الحياة . فوجه الشبه المرح والحركة الدافقة ، وينقلنا نقلة أخرى ، فالحركة وحدها لا تكفي « وأنفاس ريحانها الطيب » هنا يأتي معنى الربيع والبراعم والأمل وكل إيحاءات الزهور والعطور ، كأن الرؤية قد أحدثت دوائر ودوائر من الذكريات العبقة ، كالحجر يلقى في الماء ، فيحدث هذه الدوائر النشطة .

يـــراح ويغـــدى بهم كالقطيع | على مشـــرق الشـــمس والمغـــرب

حتى الحـرية غير المسئولة لا تطلقها الأيام دون قيد ، وكأن المجهول يسوقهم كالقطيع إلى مرتع غريب وراع لم يألفوه ، إلى الدهشة والرهبة ، وهما العنصران اللذان يشكلان أكثر من موقف في القصيدة ، وهما العنصران اللذان يصاحبان مرحلة الملاحظة . إن التشبيه التالي غير منتزع من أنفاس الريحان ، أو أنواع الزهور ، لأنها بطيئة الحـركة :

فـــراخ بأيـــك فمـــن ناهضـــ | يروضـــ الجنـــاح ومن أزغـب

كان يستطيع أن يتوقف عند الكلمة الأولى « فراخ » ولـكن ظاهرة الإمعـان وراء الصورة الجـزئية سمة من سماته الفنية ، ولذلك يعود فيرسم أيكا يضم هذه الفراخ ، ثم يمنحها القدرة على الحـركة في المحاولة المستمرة لرياضة الجناح ، وكأنما طافت بذهنه الرابطة بينهم وبين وطنهم الباحث عن ذاته ، ولذلك يجيء البيت التالي :

مقـــاعدهم من جنـــاح الزمـــان | وما علمـــوا خطـــر المـــركب

بدأ الزمن يضعهم على جناحه ، سوف يطير بهم ويصيبهم بالدوار وهم في غفلة من أمرهم ، إن الأيام تخبيء لهم الكثير . وهو قريب من قوله في قصيدة أخرى :

قـــل للبنـــين مقال صدق واقتصد | ذرع الشـــباب يضيـــق بالنصـــاح
أنتم بنـــو اليوم العصيب نشأتم | في قصف أنـــواء وعصـــف ريـــاح
أطمتـــكم الأيـــام ثم سقتكم | رنقـــا من الإحســـان غير قـــراح
تركتكم مثـــل المهيض جنـــاحه | لا في الحبـــال ولا طليق ســـراح

وينتقل التشبيه نقلة أخرى ، من صغار الطيور إلى صغار الحيوان ، فأصحاب الأيك أضحوا « مهارا عرابيد في الملعب » ويلعب البديع دوراً واضحاً في البناء الفني ، كالطباق والجناس ورد الأعجاز على الصدور والتورية . فبعد أن قال : يراح ويغدي ومشرق ومغرب يذكر الشباب والشيب والناهلات والظماء ويقيم ويمضي ، والمستريح والمتعب . إن قيمة الطباق هنا تعادل التجسيم ، فصورة إنسان يشرب صورة عادية ، ولكنا إذا وضعنا إلى جوار الذي يعب المـاء صورة إنسان لوحته الشمس وهو يتلهف على قطرة ة من المـاء فلا ينالها ، برز المدلول الجمالي ، كما سنرى بعد حين . والجناس سواء أكان تاماً أم ناقصاً له دلالته الموسيقية حين يتخلل الأبيات ليكون أشبه شيء بالموسيقى التصويرية في كثير من الأحيان .

جنـون الحـداثة من حولهم تضيق بهـا سـعة المـذهب
عـدا فاسـتبد بعقـل الصـبي وأعـدى المـؤدب حتى صـبي

إن رسالة المعلم للجاحـظ توضح فـكرة العدوى المحتملة ، في هذا المرح الجنوني الذي تجاوز الحـد حتى أصاب معلم الصبية . ويجسم هذه الانطلاقة اللا واعيـة ، كأنما يضيق بها الجسم فتستبد بالعقل ، فيذكرنا بالمتنبي في وصف الحمى حـين يردد :

يضيـق الجسم عن نفسي وعنهـا فتوسـعه بأنـواع السـقام

وتستمر الصيغ البلاغيـة :

لهم جـرس مطـرب في السراح وليس إذا جـد بالمطـرب

إن التشـديد والتركيز في كلمة « جـدّ » يوحي بشيء من التجهم ، بينما انطلاقة المد في « السراح » توحي بالحرية والراحـة والسرور ، ولذلك يقال « أطلق سراحه » . ولكن رد العجز على الصدر هنا له دلالة نفسية أكبر من أيـّة دلالة جمالية ، فالتكرار يعني طول الالتفا ت كأنما لا يلتفتون إلا للطرب وحده . وهكذا الشأن عندما نتذكر بعض استعمالات هذا المصطلح البلاغي ، فعندما يقـول جـرير :

متى كان الخيـام بـذى طـلوح سقيت الغيث أيتها الخيـام

نـــدرك أن الخيـــام ومن بها هي شغله الشاغـل .

ولـــكن ظـــاهرة الحشد للصور الجزئية تتوالى ، فكل دقة من دقات الناقوس تذكرنا بأن الحيـــاة في ذهاب وأن قـدراً من حياتنا قد وضع خلفنا بعيداً عنا :

تـــوارت بـــه ســـاعة للزمـــان ... على النـــاس دائـــرة العقـــرب
تشـــول بابـرتهـــا للشـــباب ... وتقـــذف بالسم في الشـــيب
يـــدق بمطرقتيها القضـــاء ... وتجـــري المقـــادير في اللولـب

كأن الزمن قد توارى به ، وتأتي التورية في كلمة العقرب رمزاً للموت ، بمعنى أن الحيـــاة صراع بين الوجود والعـــدم وكل لحظة تمر بنا فيها انتصار للمـــوت – بالنسبة لنا – لأنه أنقص من حياتنا ، ومن هذا المعنى تأتي المـــدات في « ساعة الزمان » بعد ما توارت ، كأنها صرخة تحذير من العقرب المتربصة التي يفلت منها الشباب فتلحق بالشيوخ وتجرعهم سمها الزعاف ، ولا يتوقف طويلاً أمام هذا المنظر ، لأن الناقوس يعيده إلى الموقف الأول ، فكلما توالت دقاته دقت معها أحداث الحياة ويشخص القضاء والمقادير ، هذا يرمز للحكم الآني وذاك لمستقبل الأيام ، وتلعب التورية دورها مرة أخرى – فتمنحنا أكثر من مدلول في وقت واحد ، كأننا أمام هيئة قضاتها الزمن يدقون فيتهيأ الجميع لسماع الحكم ، وقد يرجيء القول الفصل إلى يوم جديد ، ولذلك لا ندري ماذا يخبيء لنا الغد ، وهو قريب من قـــوله :

دقـــات قلب المـــرء قـــائلة لـــه ... إن الحيـــاة دقـــائق وثـــوان

وهما معاً يدلان على عمق إحساس الشاعر بالزمن ، فمن منا يلتفت إلى ما تهمس به هـذه الدقـــات :

وتـــلك الأواعـــي بأيمـــانهم ... حقـــائب فيهـــا الغـــد المختـــبي

يقـــول أحد علماء النفس(١٧) : « يعتبر التعليم في رياض الأطفال وفي الصفوف الأولى من المدرسة الابتدائية أهم خبرات في حياة الطفل . وتتضمن نظريته القـول بأن الطفل الذي

---

(١٧) و(١٨) علم النفس التربوى د. جابر عبد الحميد ص٣٩ ، ٤٦ ، القاهرة ١٩٧٧ .

يتعرض لبيئة خصبة حسن إعدادها في الثماني السنوات الأولى من حياته ، فإنه يحقق خلالها ثمانين بالمائة من إمكاناته العقلية القصوى ، ويستطيع أن يصل إلى بر الأمان بعد ذلك ، وإن اختلفت درجاتهم في ذلك قليلاً »(١٨) .

وفي رأي آخر : أن المرحلة من السادسة إلى الثانية عشرة تكتسب فيها المهارات اللازمة لكثير من الأمور وتعلم مصادقة الأتراب والدور الاجتماعي الملائم ، وتنمية القيم والمعايير ، واكتساب الاستقلال الشخصي (١) . ولذلك فاختباء الغد يوحي بالأبيات التالية :

ففيها اللواء وفيها المنار وفيها التبيع وفيها النبي
وفيها المؤخر خلف الزحام وفيها المقدم في الموكب

فيها العلم المفرد والهادي والقائد وصاحب الرسالة ، ولعله كان ينظر إلى رجال عصره الذين تحدث عنهم أو رثاهم ، عبقري الطب على إبراهيم ومحمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين ، أو لعله يقصد باللواء – على حذف المضاف – صاحبه مصطفى كامل وبالمنار محمد رشيد رضا ، وكلهم تحتاجهم الأمم خاصة في مراحل البناء . ثم ينتهي الموقف بالمؤخر والمقدم ، ولو توقف عندهما ما تم البناء الشعري عنده ولكنه المؤخر خلف الزحام والمقدم في الموكب . فزحام الحياة رهيب ، وكلمة الزحام توحي بالكتل البشرية والتدافع ، وهو ليس وسط الزحام ، ولكنه خلفه يحاول أن يشق طريقه دون أمل ، ويأتي الطباق ليجسم الفارق الرهيب ، موكب المنتصر يسير الاتباع على جانبيه ووراءه يحمونه ويجلونه . ولكن هذا التوالي السريع للجار والضمير (فيها) يوحي بأنه يقلب صفحات كتاب عن الخالدين ، حتى إذا انتهى الكتاب وبدأ يتأمل الناس وجدهم منتصرين ومنهزمين ولذلك تأتي الصورة خلف الزحام والمقابل المزهو بموكبه ، وهي ليست وليدة تقليب الصفحات ولكنها وليدة التأمل . إن الانفعال هنا يصل إلى ذروته ، أو بعبارة أخرى الذروة قمة انفعالية ، وربما كان التكرار دليلاً ، فتكرار « وفيها » ثماني مرات لا يأتي عبثاً ، ونحن نكرر في انفعالنا أدوات النفي وحروف الجر وقد نكرر كلمات بعينها . حتى إذا هدأ تجلى بيت الحكمة أو التشبيه أو التأمل ، وكلها تنبئ عن الهدوء وربما عن العقل :

---

(1) Bloom, Benjamin : Stability and changes in human charactristics.

جميـل عليهـم قشيب الثيـاب وما لم يجمـل ولم يقشـب
كسـاهم بنـان الصبـا حـلة أعـز من المخمـل المـذهب
وأبهـى من الـورد تحت النـدى إذا رف في فرعـه الأهـدب

لقد عاد إلى واقعه مرة أخرى ، لفته الجمال ، جمال الطفولة (جميل عليهم قشيب الثياب) فبدأ بالخبر ثم يعاود النظر (وما لم يجمل ولم يقشب) إن الجمال ليس كسوة خارجية إنه جمال الطبيعة ، أين منه جمال الثياب ، كأنما ينظر إلى نفسه ، أليس القائل :

حنانيك قلبي هل أعيد لك الصبا وهـل للفـتّى بالمسـتحيل يـدان

إنه يلبس المخمل المذهب ولكن الحسرة تلذعه فيردد (أعز من المخمل المذهب) لم يقل أجمـل فهنا الإحساس بالعز والذل ، ولذلك تأتي ظاهرة الإمعان وراء الصورة الجزئية مفصلة إحساسه بهذا الجمال (وأبهى من الورد) ، ولكنه لا يتوقف ، فينقط الورد بقطرات الندى ، ثم يعود إلى الصورة فيزيل الأشواك ويرسم أهداباً لينة . وهذا هو الفارق بين شوقي وطه حسين ، الأول يصور الطفولة الهانئة والثاني يصور الطفولة الشقية ، الأول يذكر نعيم أيام الصبا والثاني يذكر عذاب الأيام ، الأول ربيب القصور المتحضرة في العاصمة والثاني ربيب الأزقة في القرية المتخلفة حضارياً ، وهما وجهان لعملة واحدة صدرت في مصر أواخر القرن المـاضي وأوائل هذا القـرن .

إن هـذا القسم في القصيدة يربطنا وجدانياً بالطفولة وأيامها وذكرياتها ، وقد نطيل في هـذه الذكريات كما نطيل الوقوف أمـام صورنا القديمة ، وهذه المحاولات كلهـا من إجترار الذكريات أو إطالة الوقوف أمام الصور توحي بتوهم تعليق جري الزمان ، وهي على أية حال تربطنا بالأطفال في كل مكان ، ولذلك تأتي النقلة التالية وبها شيء من القسوة :

قطيـع يزجيـه راع من الدهـ ـر ليس بلـين ولا صلّـب
أهـابت هـراوته بالرفـا ق ونـادت على الحيّـد الهـرب

كان المجهول يغـدو بهم ويروح أول النهار وآخره ، وكانوا يذهبون فرادى ، ولذلك قال كالقطيع . هنـا بـرز الراعي وساقهم جميعاً أمامه ولذلك أسقط كاف التشبيه ،

فوضحت صورة القطيع ، والراعي – رمز الزمن – يعرف كيف يعامل قطيعه ، باللين تارة وبالشدة تارة أُخرى ، أو هو يلين لهذا ويقسو على ذاك ، فهو ليس ليناً دائماً ، ولكنه يبرز دائماً وهراوته تعبث برفاق رحـلة الحياة ، كأنه يشير إلى تفرقهم بعد حين – وهل هناك مفر من عصا الراعي ، لقد حاول المتنبي من قبل حين قـال :

أعطـى الزمـان فما قبلت عطـاءه وأراد لي فـأردت أن أتخـيرا

فهل استطاع أن يأخذ ما لم يعطه الدهر ، ولكن صوت الراعي يتناغم مع عصاه (الدهر ، هراوته ، الهرب) إن الهاء والراء يتكرران ثلاث مرات ، أليسا النداء الأبـدي للراعي (هـر) :

أراد لمن شـاء رعـي الجـديـ ـب وأنـزل من شـاء بالمخصب

والمفـارقة هنا في رعي الجديب ، فلو قال : أراد لمن شاء رعي المخصب وأنزل من شاء بالأرض المجدبة ، لكان الأمر واضحاً ، ولكن سخرية القدر هنا أن يطلب منا رعي الجديب ، كمن يطفئ الأنوار ويسير في الظلام يتخبط . إن الطبيعة تسخر سخرية لاذعة أحياناً ، فالزهور رمز الربيع والحب والحياة النضرة ، تنبت فوق القبور ، والنحل يموت يوم عرسه .

وروّى عـلى ريهـا الناهـلا ت وردّ الظمـاء فـلم تشرب

مازال الطبـاق معلماً من معالم الصناعة الفنية عند الشاعر ، يقوم بالتجسيم ، فصورة الظمـآن الذي لوحته الشمس وهو يتلهف على قطرة من المـاء فيمنع عنها تبرز أقوى ما تكون حين نضع إلى جوارها صورة أُخرى للذي يعب المـاء مرة ومرات ، إنها تذكرنا بأبيـات الشاعر القـديم :

فمـا وجد ملواح من الهـيم حلئت عن المـاء حتى جوفهـا يتصلصل
تحـوم وتغشـاها العصى وحولهـا أقاطيـع أنعـام تعـل وتنهـل
بأكثر مـني غـلة وتعطشـا إلى الـورد إلا أنـني أتجمـل

وأمـام هذه المفارقات ينسدل الستار على المنظر الأول من الفصل الثـاني أو على مشهد من مشاهد الحياة ، ليرتفع على مشهد جديد ، فإطار الدرامية يلف القصيدة كأنها صورة من دراما الحيـاة (٢٠) نفسها .

فيـا ويحهـم هـل أحسـوا الحياة لقـد لعبـوا وهي لم تلعـب

« ويح » من ألفاظ الأضداد تأتي بمعنى العذاب وتأتي بمعنى الرحمـة ، ولكن العذاب يختلط هنا بالرحمـة ، عـذاب التجربة التي يشير إليها في البيت التالي ، وطلب الرحمة بالصغار ، وتأتي ياء النـداء هنا كأنما تناديهم من غفلتهم لينتبهوا (فيا ويحهم هل أحسو الحيـاة) ، وقبل أن نتأمل إحساسهم بالحياة يفاجئنا بالإجابة (لقـد لعبوا وهي لم تلعب) .

تجـرب فيهـم ومـا يعلمـون كتجـربة الطـب في الأرنـب

هـل هنـاك أكثر براءة منهم ، تتلقفهم الحيـاة لتجرب فيهم وهم لاهون ، ومن هنا نفهم أنهم أشبه بمن يقع تحت تأثير مخـدر فيفقد عمق إحساسه بالحيـاة ، بينما التجربة مستمرة ، تجربة الحيـاة فيهم ، تجربة القـوي في الضعيف ، تجربة الخبرة بالسذاجة ، تجربة الأيـام .

سـقتهم بسم جـرى في الأُصول وروّى الفـروع ولم ينضـب

إن سم الزمن ، الشيخوخة ، سم مميت ، قتل الأجـداد منذ الأزل ، وسرى في أجسام الآبـاء فهرموا ، وها هو ذا يصيب الأبناء فيكبرون ، إنه سم الحياة وسر الحياة أيضاً ، ولذلك لا ينضب .

ودار الزمـان فـدال الصبـا وشـب الصغـار عن المـكتب

والواو لمطلق العطف ، ولكنها هنا تقوم بدور أكبر ، إنها أشبه بأداة تدير شريطاً من الأحداث ، أي وبعد تلك الأيام دار الزمان ، ودورة الزمان أو دورة الفلك تعني مسير الكواكب حول الشمس ، ويتبع الحركة التغير ، ولكن التغير غير الدوران ، الدوران فيه شيء من السرعة إلى جانب الانتظام ، ولذلك تأتي كلمة « دال » موحية بسرعة المسير

(٢٠) هناك اختلاف بين هذا العرض وبين البناء الدرامى القائم على الصراع « راجع مطولة العمياء للسياب » .

(دال الصبا) كأنما شخّصه فأسرع في مشيته حتى توارى بعيداً عنا . وشب « الصغار عن المكتب » لم يقل الرفاق ، لأن الرفاق موضعها الحديث عن السير والرحلة المشتركة ، أما الحديث عن التغير ، فالصغار توحي بالكبار ، كأنما كبروا فلم يعد يتسع لهم المكتب . إن المد في الصغار يتلوه التحريك بالكسر في « عن المكتب » يحتاج إلى الإشباع في نطق الكلمة كأنما يستخدم الشاعر التصوير البطيء .

وجـد الطـلاب وكـد الشـباب وأوغـل في الصعـب فالأصعـب

مرة ثانية شريط الأحداث مع الموسيقى التصويرية التي بدأت تسرع في القسم الأول مع التقسيم النغمي (الذي يتجمع لينطلق) في جد الطلاب ، كد الشباب ، ثم تهدأ في القسم الثاني معبرة عن هذه الأكمة التي كلما أوغلنا فيها أحسسنا بصعوبة المسير وتشابك الفروع ، ثم تبطئ مع المدات المتلاحقة في أربع كلمات متواليـة :

وعـادت نواعـم أيامـه سـنين من الـدأب المنصـب

كأنما يطيب له أن يطيل الوقوف عندها . ولكن الالتفات هنا إلى نعومة الأيام ، لأن زمن الهناءة يمر مسرعاً كأنه الأيام ، وزمن العناء يمر متثاقلاً كالسنوات الطويلة . ولذلك قال : نواعم أيامه ، وقال : سنين من الدأب المنصب . ومن الواضح أننا انتقلنا من مرحلة الملاحظـة إلى مرحلة التجربة ، تجربة الحيـاة نفسها ومعاناتها .

تؤلفهـم في ظـلال الرخـاء وفي كنـف النسـب الأقـرب
بيـوت منزهـة كالعتيـق وإن لـم تسـتّر ولـم تحجـب
يـداني ثراهـا ثـرى مـكة ويقـرب في الطهـر من يـثرب
إذا مـا رأيتهـم عنـدها يموجـون كالنحـل عنـد الربي
رأيـت الحضـارة في حصنهـا هنـاك وفي جنـدها الأغـلب
لقـد زيـن الأرضـن بالعبقـري محـلى السـماوات بالكوكـب
أبو قـراط مثل ابن سـينا الرئيـ ـس وهومـير مثـل أبي الطيـب

وبهذا ينتهي الفصل الثاني . إن تقديس شوقي للعلم وضح في مواقف كثيرة (قم للمعلم وفه التبجيلا ، كاد المعلم أن يكون رسولا) (بالعلم والمال يبني الناس ملكهم ، لم يبن ملك على جهل واقلال) وهو أكثر وضوحاً الآ ن ، فلا أعرف أحداً تحدث عنه كشوقي ، إن عنصر التشويق قوي ، فهذا التجمع بل هذا الائتلاف ، والائتلاف فيه معنى المودة ووحدة المشارب ، هذا المجتمع الصغير المؤتلف الباحث عن حياة أفضل ينتمي إلى نسب أقوى من نسب الأبوة وقرابة الدم .

بيوت منزهة كالعتيق   وإن لم تستر ولم تحجب
يداني ثراها ثرى مكة   ويقرب في الطهر من يثرب

إنها الجامعة في حرمتها وطهرها ، تقرب من مقدساتنا . ولعل ذكر البيت العتيق هو الذي أوحى له بهذه الحركة الدائبة بين جموع الباحثين والعلماء (يموجون) كأنهم النحل يبحث عن الرحيق ، إنهم جوهر الحضارة في شموخها (حصنها) وفي قوتها القاهرة (جندها الأغلب) .

لقد زين الأرض بالعبقري   محلى السماوات بالكواكب

إن الصلة بين العبقري وبين الكوكب قوية : الضوء المنير أبدا ، بعد المنال ، الإحساس بالدهشة أمامهما معا ، الدهشة أمام الكوكب تجيء من هذا الوميض كأنه الإشارات الغامضة ، وتجيء من وميض العبقرية وسبقها لعصرها . وينتقل من الدهشة إلى الرهبة بعد حين كأنما يفيقنا بالصدمات الكهربية .

لقد استغرق طلب العلم ستة وخمسين بيتاً ولم يبق من القصيدة سوى اثنى عشر بيتا ، كأنه أراد أن يقول إن الحياة كلها طلب للعلم أو أن طلب العلم أخطر ما في الحياة ، أو هي تجربة مستمرة . هنا يسدل الستار على الفصل الثاني ليرتفع على الفصل الأخير ، ومعه تبدأ الرهبة .

وخدش ظفر الزمان الوجوه   وغيض من بشرها المعجب

إن الرهبة هنا تجيء من تصوير الزمن بصورة الوحش الكاسر ، وتصوير التجاعيد بأنها من عبث أظافر هذا الوحش ، وهو وحش غريب يزيد على الوحوش الكاسرة بأنه مصاص للدماء ، ومن هنا بدأ ينضب ماء الحيـاة ، (وغيض من بشرها المعجب) كأنه يلفتنا إلى الماضي (بشرها المعجب) ليقيم موازنة مع الحاضر . إن تتابع الزمن يتضح في قوله : (سرى الشيب متئداً في الرؤوس ، سرى النار في الموضع المعشب) كأنما يسير هذا المشيب في الليل الحالك يشعل النار ، ملتذاً بذلك ، خطوة خطوة في الرؤوس ، ولو كانت النار تسري في البدن لخفيت علينا لأننا نستر أبداننا بالملابس ، ولكنها في أبرز مكان وأوضحه وأعلاه . ثم تأتي بداية البيت التالي أشبه بالتحذير فبدأ بالخبر (وحذف المبتدأ) (حريق ، أحاط بخيط الحياة) ها هي النار تتجمع وتمتد ألسنتها فتتحول إلى حريق هائل يحيط بالخيط الواهي الباقي الذي يربط الشيخوخة العاجزة بالحياة بعد أن ودع شبابه القادر ، ولكن الصيحة ذهبت أدراج الرياح ، ولذلك يأتي التعجب (تعجبت كيف عليهم غبى) وسيبقى التعجب ويبقى التساؤل ما بقي الإنسان على وجه الأرض ، تشغله الحياة ويغفل عن الزمن حتى يحترق .

قد انصرفوا بعد علم الكتا ... ب لباب من العلم لم يكتب
حياة يغامر فيها امروء ... تسلح بالناب والمخلب

إنه علم الحياة وتجارب الأيام ، وهكذا نكتشف الحياة ، إن البقاء للقوي وحده وشوقي الذي يربي طفله على عشق القوة ، بل يربي كل الأطفال على عشقها حين يقول في ديوان الأطفال :

ومن يعدم الظفر بين الذئاب ... فإن الذئاب به تظفر
فخذ هاك بندقة نارها ... سلام عليك إذا تسعر
ففيها الحياة لمن حازها ... وفيها السعادة والمفخر

يقول للشباب :

ودعوى القوي كدعوى السباع ... من الناب والظفر باهانها

ويردد في مصاير الأيام نفس المعنى (تسلح بالناب والمخلب) أكلتك الذئاب إن لم

تكن ذئباً . فالحيـاة مغامرة متصلة وتجربة مستمرة ، وفي التجربة يتسلح العلماء بأصول البحث ، وفي المغامرة نتسلح بالقوة ، قوة العلم وقوة المال وكل القوى الممكنة .

وصار إلى الفاقة ابن الغني ولاقى الغني ولد المترب
وقد ذهب المتلى صحة وصح السقيم فلم يذهب
وكم منجب في تلقي الدرو س تلقى الحياة فلم ينجب

إن التناقض سر مسير الحركة ، ومن الموجب والسالب يتولد التيار ، والحياة صراع أبدي بين التناقضات في الأعماق ، وإن بدا توازنه ظاهرياً ، ولذلك جاءت كلمات الجديد والقديم واللين والصلب والمؤخر والمقدم والرضى والنقمة ، ثم جاءت كلمتا الجدب والخصب لتلخص هذا الصراع تحت ذلك العنوان الكبير ، لأنه صراع بين العدم والوجود ، بين الموت والحياة ، وهو صراع صورته البشرية منذ تاريخها الأول ، في أساطيرها إيزيس واوزوريس وست أو ملحمة جلجامش أو غيرها .

الكشف النهائي إذن يتلخص في أمرين : الأول أن الحياة صراع بين الناس ، والبقاء للأقوى وحده (الحق والقوة توأمان) ، والأمر الثاني أن الحياة صراع بين الوجود والعدم ، والموت هو الأقوى ، هو المنتصر ، ومن هنا ، فإن الخلود للذكر ، وقلة من الحكماء أدركت هذا فاخترقت حاجز الزمان (أبو قراط ، ابن سينا ، هومير ، أبو الطيب) وهو نفس المعنى الذي قاله من قبل : (فالذكر للانسان عمر ثان) .

وغاب الرفاق كأن لم يكن بهم لك عهد ولم تصحب
إلى أن فنوا ثلة ثلة فناء السراب على السبسب

وهكذا بدأ رفقاء رحلة الحياة ـ لأن الصداقة مشتقة من الصدق في المودة فليس لها موضع هنا ـ يتفرقون في وقت هم فيه أحوج إلى أن يتساند كل منهم على ذراع رفيقه ، إنه تتمة المشهد الأخير ، تتبدد الصحبة ويسدل الستار على دراما الحياة أو روايتها. وبطلها إنسان أحب الحياة ، ولكنها تركته وحده في صحرائها المجدبة وهو أحوج إلى الرفاق ، وجرعته السم حتى الموت ، ولذلك كان يشبه الدنيا بالغانية التي تسلب عقول

عاشقيها وأموالهم ثم تتركهم للنهاية المحتومة (لهـا ضحك القيـان إلى غبي) ، ويقول في موضع آخــر :

أخـا الدنيـا أرى دنيـاك أفعـى | تبـدل كل آونـة اهـابا
ومن عجب تشـيب عاشقيهـا | وتفنيهـم وما بـرحت كعابا

ولـكن من أين أتت صورة السراب والصحراء ، أمن محفوظه القـديم ، أم من تأمله الحيـاة والصحراء ، الرأي الثاني يرجح الرأي الأول ، ففي قصيدته عن « الرحالة » يوازن بينها ويخـرج بوجوه شبه كثيرة إلى درجة مدهشة :

كم في الحيـاة من الصحراء من شبه | كلتاهما في مفاجاة الفتى شـرع . . .
وما الحيـاة وإن اظمت وإن خـدعت | إلا سراب على صحـراء يلتمـع

فإذا عدنا بعد أن أُسدل الستار وانتهى المشهد ، فليس لنـا إلا أن نهتف ببداية القصيـدة :

ألا حبـذا صحبـة المـكتب | وأحبـب بأيامـه أحبـب

إن الرؤية الشعرية هنا تنزع إلى العرض الروائي وإن لم تخل من روح درامية باعتبار الحيـاة مسرحاً يقـوم كل منا بدور على خشبته . وهذا العرض هو الذي يمسك القصيدة ويحول بينها وبين التفكك . هذه الرؤية ليست غريبة على شوقي الشاعر المسرحي ، فصوّر الحياة في بدايتها المفرحة ونهايتها المفجعة ، وبين هاتين النقطتين حركة وشخوص ، ولكنها غير واضحة الملامح ، لأنه ينظر من بعيد إلى الكتل المتزاحمة . ولكل ذلك اختفت جزالة شوقي واقتربت قصيدته من الهمس لأنها تجربة ذاتية وجدانية في جوهرها يحاول نقلها إلينا . وقد اتضح التوازن بين الأصالة والمعاصرة ، فصور القطيع والراعي والهراوة والسبسب موجودة في الموروث بينما الساعة واللولب وتجربة الطب في الأرنب والجامعة صور معاصرة ولكنها جميعاً امتزجت في نسيج واحد بحيث يصعب أن تكون وحدها مدلولاً ما ، تماماً كما نفكك السيارة إلى جزئيات ونتركها مبعثرة فلا تشكل في بعثرتها مدلولاً واضحاً ، ولذلك تتحدد قيمة العمل الأدبي بدرجة التلاحم البنيوي كما يقول « جولدمان » .

وتنقسم القصيدة إلى ثلاثة أقسام كبيرة . الأول مشهد الطفولة ببراءتها وانطلاقها وجمالها. وهذا القسم يعيد إلينا ذكرياتنا فننجذب إلى جو القصيدة ويصدمنا القسم الثاني بصورة الراعي والهراوة كأنه يمهد لمرحلة معاناة تطول من أجل المعرفة ، حتى إذا اكتشفنا الحقيقة أو اقتربنا منها صدمنا القسم الثالث بصورة الوحش الكاسر المنقض على فريسته حتى يقضي عليها . وهكذا يقوم كل قسم بوظيفته في بناء القصيدة . إننا نستفسد – كما هو واضح – من خبرات العلوم الإنسانية الأُخرى ، وبذلك يصبح الاتجاه التكاملي أقوى الاتجاهات في النقد الأدبي . إن كل المحاولات التي قامت لتقنين النقد وقولبته ظلت محاولات ، وكل المحاولات التي قامت لعزل النص عن العلوم الإنسانية أو لحصره في إطار الانطباعية ظلت أيضاً محاولات ، وبقي المنهج التكاملي قادراً على أن يجدد نفسه .

الرعاية الإجتماعية العمالية ومشكلاتها في الوطن العربي

الدكتور
فاروق محمد العادلي
أستاذ مساعد بقسم الإجتماع
والخدمة الإجتماعية

أولاً : في أهميـــة موضوع البحث :

أصبح العمـال الآن في المجتمـع يكونون شـطره الأكبر ، فهم وذويهـم في كل بلد راق أغلبيتـه ، ولهـم من القـوة السياسية ما يؤثر جدياً في توجيه الشئون العـــامة . وقد غدت المسائل العمـالية ذات أهميـة قصوى لاتصالها بعمليات التنميـة الصناعية التي تؤدي إلى تغيير شـكل المجتمع بنائياً ووظيفياً (١) ، ولاتصـالها كذلك بصميم الحيـاة اليوميـة للمـلايين من البشر ، مما أدى إلى أن تنعقد لها المؤتمـرات الدوليـة المتعاقبة ، وتقـوم لها هيئـة دولية دائمـة ، وتصدر في شأنهما تشريعات دولية أو خاصة (٢) . ومن ثم فمـن الواجب أن تظفـر المسائل العمالية في وطننا العربي بصـفة خاصة بدراسات متعمقة ، لاسيما وأن معظـم أقطـار الوطن العربي على أبواب تغيرات إجتماعية واقتصادية ضخمـة تحت تأثير عمليات التنمية المختلفة وتحت تأثير ازدياد الوعـي الاجتماعي والثقـــافي والسياسي لأفراد الوطن العربي الكبير . كما يجب أن تتيح هذه الدراسات الفرصة أمام الإنسان العربي كي يتعلم ويتصل بالشعوب والمجتمعات التي قطعت شوطاً أبعـد منه في التقـــدم والرقي .

وقد أدت الخدمات الاجتماعية أو برامج الرعاية العمالية خدمات جليلة للاقتصاد في المجتمعات الغربية المتقـدمة فعملت على زيادة الإنتاج وعالجت حالات العمال بسن التشريعات اللازمـة لوقايتهم وشـغل أوقـات فراغهم وزيادة أجورهم .

والواقـع أن رقي الأمم يقـاس بمستوى الخدمات التي تيسرها الأفردها سـواء في ذلك الخدمات التي يقدمها المجتمع ، أو التي تقـوم بها مؤسسات مختلفة في هذا المجتمع . فالأصل

في الخدمات أنها تنشأ عن شعور بالحاجة إليها ، وهذا في أغلب الأحيان . وكلما ارتقى المستوى الاجتماعي والثقافي وقوى الوعي الاجتماعي عند أفراد المجتمع ، دعاهم هذا إلى ضرورة قيام خدمات لسد هذه المطالب وهذه الحاجات الجديدة .

ولا يخفى أن مستوى الخدمات يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمستوى الإنتاج ، فزيادة الرخاء الاقتصادي لأُمة من الأُمم ييسر لها أن تقدم لأفرادها مختلف الخدمات في مختلف ميادين الحياة ، وهكذا يتسع مجال الخدمات ويشمل كل فرد في حاجة إلى خدمة ما ، في ناحية ما من نواحي حياته (٣) .

ولعل سعي الجماعة الإنسانية إلى البحث عن خلق البيئة المناسبة للإقامة فيها ، يعتبر المقدمة الطبيعية التي تبعث ما يسميه علماء الاجتماع بغريزة حب الاجتماع والبناء والتي دفعت الجماعة بفضل هذه الغريزة إلى التفكير في لون من ألوان الرعاية الاجتماعية خاصة وقت الأزمات والكوارث التي كانت تهدد حياتها باستمرار بفعل قسوة عوامل الطبيعة عليها أو بفعل أي هجوم خارجي من جماعة أُخرى . لذلك فقد ذهب (دوركيم) Durkheim إلى القول بأن المجتمعات البسيطة قامت أساساً على سمة التضامن الآلي أو الميكانيكي (٤) حيث كان الفرد فيها ملتزماً بحكم عضويته داخل جماعته الصغيرة برعاية غيره من الأفراد بحكم مسئوليته الاجتماعية والدينية في أغلب الأحوال .

وعلى هذا النحو ، فإن الرعاية الاجتماعية تعتبر ظاهرة اجتماعية عرفتها المجتمعات من نشأتها الأولى مما يدل على أنها ترجع إلى أساس جوهري كامن في النفس البشرية . ويلاحظ أنها قد أخذت في القرن العشرين نسقاً أو نظاماً محدد الأبعاد .

ومن بين الشواهد التي تؤكد صدق الاهتمام بها في هذا القرن ما ورد في المادة الخامسة والعشرين من وثيقة حقوق الإنسان العالمية من أن « لكل فرد الحق في معيشة لائقة به وبأسرته يتوفر فيها الغذاء والكساء والسكن والرعاية الصحية والاجتماعية اللازمة ، وله حق الضمان في حالات البطالة والمرض والعجز والترمل والشيخوخة ، أو لأي ظروف أخرى يكون فيها عاجزاً عن كسب عيشة لأسباب خارجة عن إرادته » (٥) .

وإذا كانت الرعـــاية الاجتماعية Social Welfare قد لقيت من الاهتمــام الدولي ما جعلها علماً تتسابق على حمـــله الأُمـم والشعوب ، وتتسابق على السير تحت رايته سائر المنظمات والهيئات المعنية بطرق ووسائل النهوض بالمجتمع وتوفير أسباب التقدم بداخله ، فإنها تعـد في هذا العصر ضرورة حتمية ولـّد الاهتمام بها ما يشاهده العصر الحالي من ألوان الثورات والحركات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المختلفة والتي هدفت في مجملها إلى إعادة تنظيم المجتمع وإعادة صفة التوازن والعـــدل الاجتماعي . وقـد عبرت اليزابث ويكندين Elizabeth Wickenden عن ذلك بقولها إن الرعاية الاجتماعية تنـــير طريق الأفراد والجماعات لأفضل تكيف اجتماعي(٦) .

وقد غدت الرعاية العمالية من بين الأنماط البارزة في مجال الرعـــاية الاجتماعية ، كما استثارت مجال الاهتمام السياسي والشعبي للمجتمعات لاسيما تلك التي يرتكز تنظيمها الاجتماعي على الفلسفة الإنسانية والاجتماعية النابعة من الأسلوب الاشتراكي . ولا غرو فإن الحركات الاجتماعية التي تشهدها اليوم المجتمعات التي تعتريها حركات التغير الاجتماعي وتعايش نسقاً اشتراكياً يقوم على الأخـذ بأسباب النهوض والتنمية الاجتماعية ، تهدف إلى تحقيق سعي الفـرد من أجـل تحقيق الرفاهية الاجتماعية التي يحصل فيها الفـرد على سائر ألـوان الرعاية التي تمكنه من القيـام بدوره الوظيفي الذي يتطلع إليه منه مجتمعه ،بل والذي تفرضه عليه المسئولية الأخلاقية لحصوله على هذه الرعاية . ولقـد ذهب ريتشارد تيتموس Richard Titmuss إلى أن الرعاية الاجتماعية تعـــتبر حليفاً للتقدم الصناعي والتكنولوجي وسائر عمليات النهوض بالمجتمع . ومن ثم فإن إعـادة صياغة فلسفة السياسة الاجتماعية وإنقاذها من قيودها التي تنبع من (أيديولوجية)(٧) دولة الرفاهية لهـو أحد المهام الرئيسية للنصف الثـــاني من القـرن العشرين (٨) .

ومن العرض السابق يتضح أهميـة الدور الذي يمـكن أن تؤديه الرعاية العمـالية عن طريق تقـديم مختلف الخدمات الاجتماعية للعمـال . إذ مما لا جدال فيه أن الاهتمام بالخدمات الاجتماعية للعمـال يؤدي إلى ارتفاع معنويتهم وتحقيق أمنهم وطمأنينتهم واستقرارهم . كما يؤدي إلى زيادة كفايتهم الإنتاجية وتقـوية شعورهم بالانتماء إلى المنشآت التي يعملون بها وانتظـام العلاقة بينهم وبين الإدارة مما يساهم بالتالي في تحقيق السلام الصناعي (٩) .

ثانياً : مـاهية الرعـاية والخدمات الاجتماعية للعمـال :

إن صياغة التعاريف في بعض الأحيان تكون من الأُمور العسيرة ، خاصة عندما يحمل المصطلح الذي نتصدى لتعريفه مدلولاً واسعاً كما هو الحـال في مصطلح الرعاية الاجتماعية .

وتعرف الرعـاية الاجتماعية بأنها « نسـق منظـم للخدمات الاجتماعية والمؤسسات ، ترمي لمساعدة الأفـراد والجماعات لتحقيق مستويات مـلائمـة للمعيشة والصحة . وهي تستهدف العـلاقات الشخصية والاجتماعية التي تسمح للأفراد بتنمية أقصى قدراتهم ، وتحقيق تقدمهم وتحسين حياتهم بحيث تنسجم وتتوافق مع حاجات المجتمع » (١٠) .

ويلاحـظ على التعـريف السابق أنه يؤكد على ما يـلي :

١ ــ أن الرعـاية الاجتماعية نسـق منظـم Systematic System للخدمات أي يتوافر فيها التخطيـط والتنظيم والتنسيق لا العشـوائية والارتجـال .

٢ ــ أن هذا النسق المنظـم يهتم بالبعـد الفـردي وهو الأفـراد وكذا الجماعات لتحقيق مستويات معيشية وصحية ملائمـة للأفراد والجماعات .

٣ ــ الاهتمام بالعلاقات الشخصية والاجتماعية المتبادلة بين الأفـراد وإتاحـة الفرصة للأفراد لتنميـة استعداداتهم وقدراتهم ، وتحقيق التقـدم والرفاهية لحياتهم ، حتى يحدث التـوافق والتكيف مع حاجات المجتمع .

ويشـير راو Rao أن الرعاية الاجتماعية تتضمن الخدمات التي توجـه مباشرة إلى العامل في مواجهة موقف أو مطلب معين مفـاجيء أو متوقع أو مرتبـط بحياته اليوميـة المحسوسة ، وتكون هذه الرعاية في شكل تثقيف عمالي ، تغـذية ، رعاية طبيـة ، إسـكان ، ترفيـه ، نشـاط رياضي ، مساعدات وقروض ، رحلات ومعسكرات وتدريب (١١) .

ويؤكد هذا التعريف على أساليب الرعاية التي توجه إلى الأفراد مباشرة والتي تتمثل في أوجـه الرعاية المتعلقة بالنواحي الثقافية والاجتماعية والصحية والترفيهية للعمـال .

وقد جاء في تعريف مصطلح الرعاية الاجتماعية بدائرة المعـارف البريطانية وكما عرفها

مجموعة خبراء الأُمم المتحدة بأنها : « العمل المنظم الذي يهدف إلى التكيف المتبادل بين الأفراد وبين بيئتهم الاجتماعية ، وهي تشمل محاولات الحكومة والمنظمات لمساعدة العائلات والأفراد بالمحافظة على الدخول عند مستوى مقبول ، وبإيجاد الرعاية الطبية وخدمات الصحة العامة ، وبالتقدم وبتطوير المجتمع وإيجاد الخدمات لتسهيل التكيف الاجتماعي وكذلك بإيجاد وسائل الترفيه . وتشمل كذلك التشريع والتسهيلات التي يقصد منها حماية من هم عرضة للاستغلال » (١٢) .

ويؤكد هذا التعريف على أهمية العمل المخطط والمنظم الذي يهدف إلى احداث التوافق النفسي والاجتماعي بين الأفراد وبين البيئة الاجتماعية وكذا أهمية الجهود الحكومية والخاصة ، ومحاولة إصدار التشريعات التي تهدف إلى حماية الأفراد ومنع استغلالهم .

ويوضح كراوس Kraus في تعريفه لخدمات الرعاية « بأنها ذات تأثير مباشر في رفاهية وصحة الأفراد والأُسر » وكذلك تعريف كاسيدي Cassidy للخدمات الاجتماعية من أنها « تلك الأنشطة المنظمة التي تهتم أساساً ومباشرة بصيانة وحماية تحسين الموارد الإنسانية » (١٣) .

ويقول دونالد هوارد Donald Howard أن مصطلح الرعاية الاجتماعية ــ الذي انتشر خلال وبعد الربع الثاني من القرن العشرين ــ يرتبط على وجه الخصوص بتحسين ظروف الحياة المادية والعقلية والعاطفية والاقتصادية والاجتماعية للأفراد (١٤) .

وتؤكد دائرة معارف العلوم الاجتماعية الدولية (I.E.S.S.) إن الهدف الأساسي للرعاية الاجتماعية هو مساعدة الأفراد والجماعات والعائلات والمجتمعات التي تعاني من بعض المشكلات الاجتماعية (١٥) .

ويشير البعض إلى أن الرعاية الاجتماعية تتجه إتجاهاً مزدوجاً في نشاطها المهني ، بمعنى أنها لا تقتصر في هذا النشاط على مساعدة الأفراد والجماعات والمجتمعات على علاج مشاكلهم وتحقيق التوافق مع البيئة المحيطة بهم ، ولكنها تعمل في نفس الوقت على تغيير الأوضاع السائدة في المجتمع والنظم القائمة فيه بالشكل الذي يساهم في حل هذه المشكلات ،

ومن ثم تعمل على رفع المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي وتحسين حالة الإسكان وتهيئة فرص العمل أو الدعوة لإ صدار تشريعات اجتماعية معينة (١٦) .

وعلى ذلك يمكننا أن ننتهي من هذه التعريفات إلى القول بأن الرعاية الاجتماعية هي عبارة عن مجموعة الجهود التي تبذلها الحكومة والهيئات والمؤسسات الخاصة لكي يتمكن الفرد من التكيف الإيجابي مع البيئة التي يعيش فيها تكيفاً يهيء له قسطاً من الراحة النفسية والقوة الجسمية والاستمتاع بالسكن الصالح والصحة الجيدة والغذاء الكامل والثقافة والترفيه.

ويتضح مما سبق أن الغرض من برامج الرعاية الاجتماعية هي توفير الحاجات المادية لكل فرد ، وضمان مستوى ملائم من الصحة ، وتهيئة ظروف معيشية وحياتية مناسبة . ولا جدال في أن الهدف الأسمى للرعاية الاجتماعية هو الإنسان ، وطالما أن الإنسان الفرد يعتمد بطبيعته على الآخرين لبقائه ولرفاهيته ، فإن هدف الرعاية في باطنه هو هدف اجتماعي يتخذ نظاماً إجتماعياً يخدم فيه رفاهية كل فرد وذلك عن طريق مجموعة من الأنظمة والترتيبات سياسية كانت أم اقتصادية أم اجتماعية ، والتي تترابط وتتكامل بعضها مع بعض .

وعلى هذا النحو يمكن القول بأن الرعاية الاجتماعية عبارة عن ميادين ومجالات نشاط متعدِّدة يقوم بالعمل فيها جميع الفئات من علماء ومهنيين وحرفيين وعمال وغيرهم ، بينما الخدمات الاجتماعية عبارة عن مهنة يمارسها الإخصائيون الاجتماعيون في ميادين ومجالات الرعاية الاجتماعية شأنهم في ذلك شأن غيرهم من الفئات الأُخرى .

ثالثاً : مفهـــوم الخدمات الاجتماعية العمالية ومجالاتها في الوطن العربي :

تعدُّ الخدمات الاجتماعية Social Services من أبرز الوسائل المؤدية لوضع فلسفة الرعاية الاجتماعية موضع التطبيق العملي . ومما يلفت نظر الباحث في مجال الخدمات الاجتماعية ذلك الخلاف الدائر حول مفهومها ومجالاتها في الوطن العربي .

وقد اقتضت ظروف العمل في الصناعة ـ بصفة خاصة ـ الاهتمام بالخدمات الاجتماعية التي يقوم بها الاخصائيون الاجتماعيون في مجالات الرعاية العمالية ، بحيث أصبحت ضرورة

من ضرورات نظام الصناعة الحديثة ، لما تؤدي إليه من تحسين أحوال العمال وزيادة كفايتهم الإنتاجية (١٧) .

وقد ارتأى مكتب العمل العربي دراسة الخدمات الاجتماعية العمالية في الوطن العربي ، وقام بإعداد استبيان عن هذه الخدمات للاستعلام عن المفهوم السائد بشأنها وتنظيمها والإشراف عليها من أجل وضع المقترحات الكفيلة بتحسين مستوى الخدمات الاجتماعية العمالية . وقد أرسل هذا الاستبيان في فبراير ١٩٧٦ إلى الدول العربية الأعضاء في منظمة العمل العربية (١٨) .

وأوضح الاستبيان أن أهم مواضع الخلاف في مفهوم الخدمات الاجتماعية العمالية هو المجالات التي تتناولها فهل تقتصر على مجال العلاج والتغذية والتثقيف وتنظيم أوقات الفراغ أم تشمل تحسين ظروف العمل مثل التهوية والإضاءة وغيرها .

وأجمعت الدول العربية على الرأي القائل بأن الخدمات الاجتماعية العمالية تتضمن نواحي النشاط التي من شأنها رفع المستوى الاجتماعي والصحي والثقافي للعمال بغرض ايجاد التكيف اللازم بين العامل والبيئة التي يعمل بها للوصول إلى أقصى درجات الكفاية والرضا لكل من العامل وصاحب العمل والمجتمع (١٩) .

غير أن بعض الدول العربية رأت أن تتضمن الخدمات الاجتماعية في مجال الرعاية العمالية تحسين ظروف العمل أيضاً من تهوية وإضاءة وغيرها وتوفير الاحتياطات اللازمة لتحقيق السلامة الصناعية (العراق ، مصر ، السعودية ، سوريا ، اليمن الديمقراطية الشعبية) غير أن المتتبع للتشريع المقارن ودراسات الهيئات الدولية يجد أن تحسين ظروف العمل لا يدخل ضمن الخدمات الاجتماعية العمالية بغض النظر عن أثرها المباشر على صحة العمال وذلك باعتبار أن المستويات الخاصة بتحسين هذه الظروف من تهوية وإضاءة وما شابهها تدخل ضمن ميدان (الهندسة الصناعية) . وتتضمن جميع تشريعات العمل الحد الأدني لمثل هذه المستويات والجانب الوحيد في ظروف العمل الذي يدخل ضمن الخدمات الاجتماعية العمالية هو نوعية العاملين بشأن الوقاية من إصابات العمل وتوفير بعض المرافق الصحية كغرف خلع الملابس وأماكن تناول الطعام . . . الخ .

وموضع الخلاف الثاني هو هل تقتصر الخدمات الاجتماعية على العمال وحدهم أم تمتد لتشمل العامل والأُسرة .

ويرجع ذلك إلى أن غالبية العمال يستاؤون من كل تدخل من جانب أصحاب الأعمال في تنظيم وإدارة الأُمور التي تتعلق بحياتهم الخاصة ، حتّى ولو كان العامل يتمتع بمزايا مادية وعينية في هذه الحالة ، إلا أن الخدمات الاجتماعية الخاصة بالأُسرة تكون الاستفادة منها في الغالب اختيارية .

وتبنت جميع الدول العربية – فيما عدا دولة قطر – قضية أن الخدمات العمالية تشمل أسرة العامل أيضاً وخاصة في المجالات الصحية والترفيهية ولو أن بعضها ربط تقديم الخدمات إلى أُسرة العامل بحجم المنشآت (السعودية) أو يقصر القيام بهذا النوع من الخدمات على نقابات العمال والجمعيات التعاونية (سوريا) (٢٠) .

وتقوم وزارتي العمل والشئون الاجتماعية وهيئاتهما المتخصصة بتنظيم الخدمات الاجتماعية العمالية والإشراف عليها في جمهورية مصر العربية ، وفي الأردن تقوم وزارة العمل بالإشراف على الخدمات الاجتماعية العمالية التي تقدم طبقاً لعقود العمل المشتركة وقانون العمل . وفي الكويت تقوم مراقبة للرعاية العمالية ضمن إدارة حماية القوى العاملة تتولى مهمة الإشراف على الخدمات الاجتماعية العمالية . وفي المغرب تخضع أنشطة الخدمات لرقابة كل من وزارة المالية ووزارة الشغل والشئون الاجتماعية . وفي السعودية تختص بالإشراف على الخدمات الاجتماعية العمالية إدارة الرعاية والخدمات الاجتماعية العمالية وتتبع وزارة العمل والشئون الاجتماعية . وفي دولة قطر تختص وزارة العمل والشئون الاجتماعية بالإشراف على الخدمات الاجتماعية العمالية من خلال الأقسام المختصة . وفي سوريا يشرف على الخدمات الاجتماعية العمالية عدة أجهزة فوزارة الشئون الاجتماعية والعمل تهتم بحماية العمال أثناء العمل ومؤسسة التأمينات الاجتماعية تشرف على مشاريع السكن العمالي ووزارة التموين والتجارة الداخلية تشرف على الجمعيات التعاونية الاستهلاكية التي ينشئها العمال . وهكذا نجد أن وزارتي الشئون الاجتماعية والعمل هما المختصتان بشئون الخدمات الاجتماعية للعمال في معظم أقطار الوطن العربي .

أما بالنسبة للخدمات الاجتماعية العمالية التي تقوم بها الخدمات المعنية في الدول العربية فيمكن تصنيفها إلى أربعة أنواع (٢١) وهي :

(١) الخدمات الاجتماعية العمالية التي تقدمها الجهات الحكومية :

وتقدم هذه الخدمات في الغالب وزارات الصحة والعمل والشئون الاجتماعية وتتضمن خدمات خاصة بالمستشفيات والمستوصفات والمساكن الشعبية والمراكز الاجتماعية ومراكز التدريب والتأهيل ، وتموّل عن طريق الاعتمادات التي تخصصها الدولة لها .

(٢) الخدمات الاجتماعية التي تقدمها الهيئات العامة :

وتختلف الخدمات التي تقدمها الهيئات من بلد إلى آخر . ففي مجال التأمينات الاجتماعية مثلاً توجد مؤسسات لها في كل من مصر ، سوريا ، ليبيا ، السعودية ، العراق . وتقوم هذه المؤسسات بالتأمين على العمال ضد الشيخوخة والعجز والوفاة والمرض والبطالة وفي مجال الثقافة العمالية توجد مؤسسات خاصة بها في كل من مصر والعراق وسوريا والأردن ، والسودان ، والكويت ، وليبيا . وتقوم بتنمية الوعي الثقافي النقابي والعمالي وتوفير مجالات التعليم للعمال الأُميين .

(٣) الخدمات الاجتماعية التي تقدمها الجمعيات الخاصة والنقابات العمالية :

تقوم النقابات في معظم البلاد العربية بتقديم بعض الخدمات الاجتماعية للعمال كإنشاء صناديق الادخار والأندية الرياضية والجمعيات التعاونية . كما توجد في بعض البلاد العربية جمعيات تقدم خدمات مختلفة لأفراد الشعب ويَستفيد منها العمال .

ففي مصر مثلاً أُنشئت جمعية الوفاء والأمل بهدف رعاية المعوقين ، كما أُنشئت جمعية النور والأمل بهدف رعاية المكفوفين .

وفي السعودية تقوم الجمعيات التعاونية ببعض الخدمات مثل توفير الموارد الاستهلاكية بأسعار مناسبة وتأمين وسائل النقل اللازمة والعمل على توفير الرعاية الصحية للأعضاء وعائلاتهم .

وفي سوريا تقوم النقابات العمالية بإنشاء الجمعيات التعاونية الاستهلاكية لتقديم الخدمات التموينية لجميع المواطنين وعلى الأخص للعمال المنتمين إليها .

(٤) الخدمات الاجتماعية التي تقدمها المنشآت الصناعية :

اهتمت تشريعات العمل في عدد من الدول العربية بإلزام المشروعات التي تستخدم عمالاً في مناطق بعيدة عن العمران بالقيام ببعض الخدمات ففي مصر ، وسوريا ، والكويت والسعودية وقطر تلزم هذه المشروعات بتوفير التغذية والإسكان ووسائل الانتقال .

كما ينص التشريع المصري على تخصيص ٥ ٪ من أرباح الشركات للخدمات الاجتماعية والإسكان لعمال الشركة و ١٠ ٪ لخدمات اجتماعية مركزية .

وفي مصر وسوريا ينص القانون على تمثيل العمال في مجالس إدارة الشركات المساهمة . ولما كانت مجالس الإدارة هي الجهة المختصة بشئون الخدمات الاجتماعية فإن اشتراك العمال في إدارة هذه الخدمات يتم عن طريق هذا التمثيل .

وفي دولة البحرين يلزم القانون المنشآت الصناعية بتوفير الرعاية الصحية للعمال في المنشآت التي يزيد عدد عمالها عن ٥٠ عاملاً .

وفي دولة قطر توفر الشركات المطاعم والمستوصفات والسكن ووسائل الانتقال والخدمات التموينية والأندية والمكتبات وذلك طبقاً لقانون العمل ويتم تمويل هذه الخدمات من قبل الشركات .

ولا شك أن تخصيص نسبة مئوية من الأُجور للخدمات الاجتماعية من شأنه أن يجعل المشروعات المختلفة تساهم جدياً في رفع مستوى معيشة العمال .

وبجانب الخدمات العمالية التي ينص عليها التشريع ، فإن كثيراً من المنشآت الصناعية تقدم بعض الخدمات العمالية بصفة اختيارية والتي تراها مناسبة لعمالها وحسب ظروفها وإمكانياتها .

يتضح من كل ما سبق مدى أهمية الدور الذي يمكن أن تؤديه الخدمات الاجتماعية للعمال ، مما يدعونا الآن إلى البحث عن المشاكل التي تعترض الخدمات الاجتماعية العمالية وخاصة في الوطن العربي ، ومحاولة وضع الحلول الكفيلة بدرء تلك المشكلات ، وهو ما سنعالجه في الصفحات التالية .

رابعاً : المشكلات التي تعترض الخدمات الاجتماعية العمالية :

لا شك في أن دراسة الرعاية العمالية والخدمات الاجتماعية العمالية والمشاكل التي تجابه تلك الخدمات توضح لنا درجة تقدم أو تخلف التنظيم الاجتماعي القائم . وتعد دراسات التقدم والتخلف أو التأخر من الدراسات التي أولى لها الباحثون عناية خاصة حتى اليوم ، وهي الدراسات التي مهدت إلى قيام مدارس التخطيط ومدارس السياسات الاجتماعية المختلفة .

وقد أكد تقرير المدير العام لمكتب العمل الدولي أن التقدم الاجتماعي والاقتصادي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمشاكل تكيف العمال وتوفير هيكل اجتماعي يرتكز على صورة تسهيلات وتيسيرات في مجال الإسكان والصحة والثقافة والترفيه .

وتعد دراسة المشكلة الاجتماعية التي يعاني منها التنظيم الاجتماعي من بين الدراسات الأساسية في علم الاجتماع المعاصر . ولا غرو أن المشكلة الاجتماعية في كثير من مجتمعاتنا العربية إنما تتمثل في اختلال درجة تحقيق العدالة الاجتماعية بين أفراد الجماعة وهو مايستلزم قيام نظم الرعاية الاجتماعية والعمالية لمجابهة ثغرة هذا الاختلال .

إن التناول العلمي لموضوع الرعاية العمالية ومشكلاتها يتيح للباحث التحقق من قضية سوسيولوجية تتلخص في توضيح درجة التناسق أو التساند أو التكامل بين شكل البناء الاجتماعي من حيث تركيبه الهرمي وبين وظيفته والدور الذي يتطلع إلى تحقيقه من ناحية وبين حجم الطرق أو المسالك المؤدية لتحقيق هذا التناسق والتساند من ناحية أخرى .

ويمـــكن تحـــديد ومناقشة تلك المشكلات تباعاً وعرضها في النقـاط الآتية :

(١) عـدم وجـود استراتيجية محـددة وواضحة المعـالم للعمـل الاجتماعي العربي .

والاستراتيجية هي باختصار المسار المختار (من بين بدائل متعددة وممكنـة) للتحرك في إطاره بالخطط والبرامج نحو تحقيق الغايات .

وقد كانت جهـود التنميـة الاجتماعية تفتقد وضوح الاستراتيجية وأدى ذلك إلى ضعف فاعلية التخطيط الذي هو عبارة عن عملية الاستخدام الأمثل للموارد – في إطار الاستراتيجية – نحو تحقيق الأهداف(٢٢). ويستلزم تحقيق الاستراتيجية بطبيعة الحال أكثر من خطة متعاقبة .

ورغم أن الاستراتيجية والتخطيط يتشابهان في أن كليهما يعمل في مجال توجيه الإمكانيات لتحقيق الأهداف وأن كليهما يستمد أهدافه من السياسة ، ويستمد القيم التي يعمل في إطارها من الإطار العقائدي أو الأيديولوجي(٢٣) ، إلا أنهما يختلفـان في مستوى التحليل للبيانات والمعلومات اللازمة لهمـا ، وكذلك في درجة تحديد الهدف الذي يعمـلان على تحقيقه . فبينما يعتمد تحديد الاستراتيجية على البيانات والمعلومات الكلية الموضوعي منها والمعنوي ، والمقاس منها وغير المقاس ، فإن التخطيط يتعامل فقـط مع البيانات والمعلومات الموضوعية التي يمكن قياسها سواء منها الكلية أو الجزئية . وبالتالي فالاستراتيجية تختار وتحدد المسار العام للتحرك ، أما التخطيط فيتناول تفصيلات التحرك داخل هذا المسار بدرجة عالية من الدقـــة .

ويجب أن يراعى في بلورة الاستراتيجية الموحدة للعمل الاجتمـاعي العربي المبادىء والأُسس العـــامة الآتيـــة :

(أ) أن تتم صيـاغة الاستراتيجية بأسلوب علمـي توجيهي ، واضح المعـالم مستكمل الشرح والمبررات حتى تصبح وثيقتها مرجعاً للتوعيـــة والترشـــيد .

(ب) التركيز في الاستراتيجية على مكامن القـوة في المجتمع العربي ومحاولة تعظيمها والتجاوز عن عناصر الفـرقة والاختلاف .

(ج) أن ترتبط الاستراتيجية بواقع المجتمع العربي في ماضيه وحاضره ومستقبله حيث تكون كل مرحلة من هذه المراحل جزءاً أصيلاً من تاريخ وحياة هذا المجتمع يتأثر به ويتميز بالانتساب إليه .

(د) أن تعبر الاستراتيجية عن أصالة ما في هذا المجتمع من ثقافة وتراث حضاري وقيم روحية بحيث تصبح الاستراتيجية امتداداً طبيعياً لهذه الأصالة ، وليس مجرد إضافة مفتعلة لآراء غريبة عنه أو نماذج شاذة عن كيانه .

(هـ) إظهار أهمية البحوث الاجتماعية في المجال الاجتماعي وما ترتبط بهذا المجال من أهمية التعاون العربي في تمويل هذه البحوث تمويلاً يساعد على توفير متطلبات الآمال الطموحة في البحث العلمي الاجتماعي .

(و) الاستفادة من الخبرات العالمية ، وخاصة الدراسات التي قامت بها الأمم المتحدة لتقييم برنامج الأمم المتحدة للتنمية والعمل الاجتماعي في حقبته الأولى خلال الستينات وتوفير معلومات هذه الدراسة للدول الأعضاء كخلفية يستفاد من نتائجها في العمل التنموي العربي .

(ز) إظهار مكانة الإنسان العربي وأهميته هدفاً للتنمية ووسيلة إليها ، والاهتمام بالنشاط الأهلي الشعبي في مجال التنمية والعمل الاجتماعي ، والعمل على تكوين وتنمية الرأي العام التنموي الذي يدعم الجهود التنموية ويناصرها ويتابع منجزاتها .

(ح) توجيه الاستراتيجية إلى تحريك القوى الاجتماعية في داخل كل بلد عربي ، كما تتجه إلى تحريك قوى العمل الاجتماعي المشترك مستندة إلى التعاون العربي وقيم المجتمع الروحية في التكافل الاجتماعي والدور الذي تؤديه الأمانة العامة لجامعة الدول العربية .

(ط) أن يصاحب إعلان الوثيقة خطة عمل لتحريك الخطوات اللازمة لوضع الاستراتيجية بعد إعلانها موضع التنفيذ في الدول العربية .

(٢) عدم تضمين التخطيط للتنمية الجوانب الاجتماعية والاقتصادية معاً :

سبق أن أوضحنا فيما سبق مفهوم التخطيط . أما التنمية فإنها تستخدم باعتبارها وظيفة تقوم بها الدولة أو الحكومة بحيث يتطلب الأمر وجود قسم أو مكتب أو إدارة تختص بشئونها (٢٤) .

وقد تستخدم التنمية من ناحية أخرى لتشير إلى الأساليب المستخدمة في بعض صور التنظيم الاجتماعي الفعالة . فيقال مثلاً تنمية المجتمع من أجل الرفاهية أو الصحة العامة . ويذهب الأستاذ الدكتور محمد عاطف غيث إلى رأي جدير بالاعتبار حقاً فهو يرى أنه طالما أن هذه المصطلحات الأخيرة تمس صوراً خاصة من الحياة الاجتماعية ، فإن استخدامها على هذا النحو جدير بأن يلحقها بالتنظيم الاجتماعي بدلاً من إلحاقها بالتنمية (٢٥).

والتنمية عملية متكاملة شاملة ناجمة عن تدخل إرادي مستمر لإحداث تفاعل بين :

(أ) الطاقة المجتمعية لأي مجتمع أي جملة القدرات والمهارات الإنسانية وحجم ونوعية العناصر الطبيعية (أي محصلة الموارد البشرية والمادية المتاحة للمجتمع) باعتبارها المصدر الأساسي الذي يستمد منه المجتمع قدرته على التنمية .

(ب) والطاقة التنموية للمجتمع أي إرادة المجتمع وقدرته على الاستفادة من طاقته المجتمعية ولتحسين نوعية الحياة لأبنائه .

وكما تختلف الطاقة المجتمعية من مجتمع إلى آخر تختلف أيضاً قدرة المجتمعات على الاستفادة منها ، بل وقد أثبتت بعض المجتمعات تمكنها من الاستفادة من طاقاتها المجتمعية الصغيرة نسبياً بمستويات عالية للغاية تفوق كثيراً مستويات استفادة مجتمعات أخرى بطاقاتها المجتمعية الضخمة نسبياً . وبذلك تصبح الطاقة التنموية بتعبير آخر هي محصلة مجموعة المتغيرات السلوكية والتكنولوجية اللازمة لإحداث التغيير والاستمرار فيه .

وبذلك يصبح هدف التنمية هو تعظيم ناتج التفاعل بين « الطاقة المجتمعية » و « الطاقة التنموية » للمجتمع وعدالة توزيع هذا الناتج بين أبنائه .

وقد استخدم تعبير الطاقة هنا لما لهذا التعبير من مزايا . فهو تعبير يعكس مرونة وديناميـة واحتمالات متعددة لاستخدام الكامن فيه . وهو كذلك يمثل حصيلة تجمُّع عوامل تاريخية عديدة . والطاقة الحالية هي امتداد لقوى كامنة تراكمت في المجتمع عبر الزمن . وعليه فإن الصورة الحالية لاستخدام الطاقة المجتمعية أو الطاقة التنموية ليست بالضرورة هي الصورة الوحيدة أو المثلى للاستفادة منها . بل قد يكون هناك صوراً أفضل لاستخدام الكامن فيها والاستفادة منها في تشكيل عمليات التنمية وتعظيم ناتجها ، كما يمكن الإشارة إلى قدرات المجتمع على إحداث التفاعل بين الطاقتين وتحريك هذا التفاعل واستمراره وتعديل مساره بما يمكن أن يسمى « بالطاقة التوجيهية للمجتمع » .

ولقد أصبح من الأُمور المتعارف عليها أن يتضمن التخطيط للتنمية الجوانب الاجتماعية والاقتصادية بحيث تناظر الإجراءات الاقتصادية إجراءات اجتماعية تواكبها وتسير معها . وكما نقول بأن الإنسان صانع التنمية وهدفها ، نقول بأن التنمية الاقتصادية هي قطب الرحى في التنمية الشاملة . وتؤدي التنمية الاقتصادية إلى جانب وظيفتها الاقتصادية وظيفة أُخرى اجتماعية حيث أنها في المدى البعيد تستهدف تحقيق أقصى استثمار ممكن للطاقات والإمكانيات البشرية الموجودة في المجتمع (٢٦) .

غير أن من بين إجراءات التنمية ما قد يصطبغ بصبغة اقتصادية دون أن يترتب عليها بالضرورة تحقيق أهداف اجتماعية ما لم يصاحبها إجراء اجتماعي واضح ومحدد . فزيادة الإنتاج مثلاً هدف اقتصادي قد لا يتحقق بمقتضاه زيادة الرفاهية الاجتماعية حتى ولو كانت معدلات تزايد الإنتاج أعلى من معدلات تزايد السكان ، إذ يجب لكي يتم هذا أن يصاحب الإجراء الاقتصادي البحت اجراء اجتماعي مناظر يحرص فيه المشرع على عدالة توزيع الدخل بين المواطنين بعد زيادته بطريقة تضمن لكل إنسان مستوى إنسانياً ملائماً من المعيشة .

والتنمية الاقتصادية التي لا تصاحبها تنمية اجتماعية قد يترتب عليها مشكلات كبيرة يصعب التغلب عليها وإزالتها . فعلى سبيل المثال نجد أن التنمية الاقتصادية التي تمخضت عن الثورة الصناعية في أوروبا خلال القرنين الثامن والتاسع عشر والتي لم تواكبها تنمية اجتماعية

منذ البداية ترتب عليها من الناحية الاقتصادية ارتفاع دخل الفرد بارتفاع الدخل القومي ، غير أنه ترتب عليها من ناحية أخرى تفكك الروابط الأُسرية وضعف السلطة الأبوية وظهور العلاقات الاجتماعية الضعيفة التي تتسم بالسطحية والعمومية والنفعية والجزئية . كما ترتب عليها ظهور قلة تمتلك وسائل الإنتاج وكثرة لا تمتلك سوى الجهد الذي تقدمه لصاحب العمل . وترتب عليها كذلك حدوث تفكك اجتماعي تمثلت أعراضه في زيادة نسبة الانحلال سواء ما كان منها على مستوى الفرد أو الأُسرة أو المجتمع .

ويقودنا كل هذا إلى القول بأن محور عملية التنمية هي إحداث التغيرات السلوكية التي تزيد من قدرة المجتمع على الاستفادة من طاقاته البشرية وموارده غير البشرية في تحقيق أعلى مستوى من الرفاهية للسواد الأعظم من أبنائه عن طريق تعظيم الناتج القومي وعدالة توزيعه . وعلى ذلك لابد أن تتصدى التنمية لتغير القيم والعادات والتقاليد التي تشكل أنماط السلوك ، والتي تمثل محصلة التراكمات والتفاعلات الثقافية عبر تاريخ المجتمع . وإذا كان التقدم المذهل في « تكنولوجيا التغير المادي » مازالت تسير ببطء شديد ، ومرجع ذلك هو تصور المشتغلين بالتنمية في الستينات أن النمو الاقتصادي كفيل بإيجاد الظروف التي تؤدي إلى التغير السلوكي الذي تتطلبه التنمية الاجتماعية ، ولكنهم جابهوا الفشل تلو الآخر وبدأ مفهوم التنمية الاجتماعية يأخذ مكانه إلى جانب مفهوم التنمية الاقتصادية بل وأصبح الفكر السائد الآن لا يرى الحل العملي لمشاكل التنمية إلا من خلال إحداث « التغيرات السلوكية » اللازمة لتحقيق التوازن بين التنمية الاقتصادية (اعتماداً على إنتاج السلع) وبين التنمية الاجتماعية (اعتماداً على تقديم الخدمات) ، وبغير ذلك لا يمكن معالجة قضية التنمية الاجتماعية من منطلق « تكاملها » مع التنمية الاقتصادية تؤثر فيها وتتأثر بها ، وليس من منظور تبعيتها لها وتلقائية حدوثها كنتيجة اقتصادية (٢٧) .

ولقد أدى الوصول إلى هذا التغيير الجذري في المفاهيم التنموية إلى وضع التنمية الاجتماعية في إطارها السليم ، وطرح قضية التنمية على أساس أنها قضية حضارية وليست قضية نقص الطاقات والموارد سواء كانت بشرية أو مادية تكنولوجية أو مالية .

وتأسيساً على ذلك تم نبذ فكرة قياس التنمية القومية بمعدلات النمو في الناتج القومي واتجه خبراء التخطيط والتنمية إلى البحث عن مؤشرات أخرى ذات طبيعة اجتماعية حتى

تعكس أوضاع وظروف الحياة الفعلية . ومن بين هذه المؤشرات المستويات الصحية والتعليمية والغذائية والسكنية والأمنية والثقافية وغيرها من المؤشرات الاجتماعية باعتبارها معايير حقيقية لقياس التنمية والتقدم الذي حدث في المجتمع .

ويقودنا كل هذا في النهاية إلى ضرورة إعطاء الأولوية للمشروعات الاجتماعية التي تدعم التنمية الاقتصادية بدرجة أكبر من غيرها . فالعائد المادي الذي يعود على المصنع مثلاً نتيجة لتقديم خدمات اجتماعية لعماله على سبيل المثال يختلف حسب نوع وقدر تلك الخدمات . وعلى المخطط الاجتماعي أن يحدد – عن طريق الدراسة – أي هذه الخدمات أكثر إسهاماً في التنمية الاقتصادية ؟ هل هو فتح نادي للعمال ، أو توفير وجبة لهم أثناء العمل ، أو تسهيل المواصلات أو تعيين اخصائي اجتماعي لمساعدة العمال على حل مشكلاتهم اليومية ، أو حل مشكلة الإسكان . . . الخ ؟ فإذا ما حدّد المخطط الاجتماعي أي تلك المشروعات أو الخدمات أكثر إسهاماً في تدعيم التنمية الاقتصادية ، فإن عليه أن يتعرف – عن طريق الدراسة أو الممارسة – الحد الذي يتوقف عنده في تدعيم مشروع معين . هل يتوقف عند تحقيق المنفعة الحدية ؟ . أم أن قانون تناقص العائد يفرض عليه البدء في مشروعات أخرى يصبح عائدها أكبر بعد مرحلة معينة من تنفيذ المشروع الأول ؟ . هل الأفضل اقتصادياً أن يقدم لألف عامل كوب كبير من اللبن ، أم من الأفضل أن يقدم لألفين عامل كوب صغير من اللبن ؟ . هل الأفضل أن يشجع المصنع اشتراك العمال والموظفين في نفس النادي أم أن الأفضل إدارياً – واقتصادياً بالتالي – فصل العمال عن الموظفين في داخل النادي ؟ . كل هذه تساؤلات اجتماعية – وغيرها كثير – يجب على المخطط الاجتماعي المساهمة في الإجابة عليها لتسهيل مهمة إدارة المصنع في زيادة الإنتاج السلعي .

ولعله من المفيد إعطاء الأولوية للمشروعات الاجتماعية التي تخدم أعداداً كبيرة من المواطنين ، فمشروع الصحة النفسية الوقائية للعمال عن طريق إنشاء نادي إجتماعي على سبيل المثال ، يخدم عدداً أكبر من العمال مقارنة بمشروع للخدمة النفسية العلاجية الفردية لهم وهكذا .

كما نرجح أن تعطي الأولوية للمشروعات الاجتماعية التكاملية على المشروعات القطاعية ،

فمشروع مركز إجتماعي للعمال وأُسرهم في المناطق السكنية للعمال أفضل من مشروع مركز مشابه للعمال وحدهم دون الأُسر وهكذا .

(٣) افتقار برامج الخدمات الاجتماعية والرعاية العمالية إلى التخطيط العلمي والتوجيه المحكم المدروس .

الرعاية العمالية وبرامج الخدمات الاجتماعية على اختلاف أنواعها لابد وأن تقوم على تخطيط علمي وتوجيه محكم مدروس ، وهو ما تفتقر إليه في كثير من دول الوطن العربي .

وإذا كان للتخطيط أهمية كبرى في جميع المجالات ، باعتباره نظرة للمستقبل وتحديداً لمعالمه من أجل تحقيق حياة أفضل للمواطنين ، فإن له أهمية خاصة في مجالات العمل المختلفة ومنها مجال الرعاية العمالية أو الخدمات الاجتماعية العمالية ، وذلك نظراً لما يطرأ دائماً على ميادين ومجالات هذه الرعاية من تغير وتطور سريع خاصة في مجتمعنا العربي الجديد الذي يجتاز مراحل حاسمة في حياته ، وبعد أن وضح حق الفرد العامل على مجتمعه في توفير كافة ألوان الرعاية المادية والنفسية والاجتماعية والإنسانية .

وإذا كان التخطيط Planning يقوم على أساس من التنبؤ (٢٨) Prediction على ضوء الأرقام والإحصائيات والظروف والبحوث والسوابق ، وهو بهذا يعتبر الأسلوب العلمي المضمون لتحقيق أهداف الرعاية العمالية ، وأنه كذلك يساعد على تحديد المسئوليات ومتابعة التنفيذ ، فإنه لذلك يعتبر ضرورة حتمية وإنسانية أخلاقية لكافة مشروعات الرعاية العمالية وما تهدف إليه من تحقيق أهداف معينة .

ويمكن تحديد أهمية التخطيط للرعاية العمالية في الاعتبارات الآتية :

أولاً : يعتبر التخطيط الوسيلة التنظيمية لأداء برامج الرعاية العمالية وتنفيذها على جميع المستويات .

ثانياً : يعتبر التخطيط من العوامل الإيجابية الفعالة لإيجاد التنسيق المطلوب بين ألوان

وأنواع الرعاية المختلفة سواء المادية منها أم الاقتصادية أم الاجتماعية أم النفسية .

ثالثاً : التخطيط هو الطريق السليم لضمان تعبئة جميع المصادر والقوى الممكنة التي يمكن الاعتماد عليها في تنمية برامج الرعاية العمالية .

رابعاً : وأخيراً فإنه وسيلة سريعة لتحقيق التقدم والنمو المطلوب في مجال الرعاية العمالية ، لأن ارتباط مشروعات وبرامج الرعاية العمالية بخطط زمنية معينة من شأنها حفز كل الإمكانيات والقوى للعمل على تحقيق الأهداف المرجوة .

عناصر نجاح الرعاية العمالية :

قد يكون من الأهمية بمكان في مجال الحديث عن التخطيط لبرامج الرعاية العمالية أن نوضح أهم العناصر المهيئة لنجاح برامج هذه الرعاية . ورغم اختلاف امكانيات واحتياجات البيئات الصناعية المتعددة في دول الوطن العربي ، إلا أنه يجب مراعاة العناصر الآتية للتخطيط لبرامج الرعاية العمالية بصفة عامة :

أولاً : الجهاز الإداري التنفيذي : ويعتبر هذا الجهاز المسئول الأول عن عملية التنفيذ ، والذي من المفيد أن يعمل في إطار الفلسفة العامة للدولة والفلسفة الخاصة بالرعاية العمالية .

ويستحسن أن يتوفر بالمصانع والشركات اخصائيون اجتماعيون ومهنيون ، يمكن الاعتماد عليهم في تنفيذ برامج الرعاية العمالية . ولقد اقتنع المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة بأن وجود عدد كاف من الأفراد المؤهلين لهذا العمل ضروري لتنفيذ سياسات النهوض الاجتماعي (٢٩) .

ويراعى كذلك أن يعاون هؤلاء لجان مشتركة من العمال أنفسهم وممثلين عن إدارة المصنع ، بعد شروط خاصة تضمن الخبرة وايجابية وتعاونية الجهاز التنفيذي للرعاية العمالية ، فقد يرجع العجز في إنجاز الخطط أساساً إلى الإهمال في توفير الوسائل الكافية للتنفيذ .

وفي هـذا يقـول الرئيس الراحل جـواهر لآل نهرو : « إن خبرتنا بالتخطيـط ازدادت اتساعاً وعمقـاً ، لـكن المشكلة الحقيقية لا تتمثل في التخطيـط بل في تنفيذ الخطـة ، وأهميـة هذا هو أن مشاكل تنفيذ الخطـط تفـوق في صعوبتها مشـاكل صياغتها » (٣٠) .

ثانيـاً : البرامج والمشروعات .

لعـلّ من المفيـد أن يراعى في مشروعات برامج الرعاية العمالية بالمصانع والشركات مبدأ الشـمول لـكافة ألـوان الرعاية التي يـكون العمـال في حاجة إليها ، وبحيث تلبي احتياجاتهم المـادية والنفسية والاجتماعية مع الأخـذ في الاعتبار الإمكانيات المتاحة للمصنع سـواء المتعلقة بالناحيـة المـــادية أو البشرية .

كذلك نرجح أن تساهم النقابات في اعـــداد برامج ومشروعات الرعاية العمالية وذلك كجـزء أساسي من عمـلها .

هذا ويتوقف نجاح برامج ومشروعات الرعاية العمالية على مدى فاعليتها ودرجة مرونتها وقابليتها للتحسن والتطور نتيجة ارتباط هذه البرامج بحاجات العمال ومتطلباتهم وهي حاجات اجتماعيـــة نفسية قابلة للتغير والنمـــاء .

ثالثـاً : التمـويـــــل :

يعتبر التمـويل عصب تنفيذ برامج الرعاية العمالية بكافة ألوانها وأنواعها . وإذا كانت الدولة تقـوم بالجزء الأكبر من هذا التمويل ، فإنه قـد يكون من المفيد في بعض الحالات أن يساهم العمـال أنفسهم في تغطية بعض النفقات كمساهمتهم في تكاليف خدمات الإسكان أو الانتقال أو التغـذية أو في تحسين بعض ألـوان الرعـــاية .

وهذا من شأنه أن يساعد على ضمان مـوارد ثابتة وكافية لتغطية تكاليف المشروعات المختلفة واستمرار التوسع فيها وازدياد التحسين في نوعية الخدمة المقـدمة مع مراعاة صالح العمـال دائماً بحيث لا يكون ذلك وسـيلة لاستغلالهـم .

ويتوقف تمويل الخدمات الاجتماعية العمالية على عوامل رئيسية أهمها الأربـاح التي

تحققها المنشأة والحالة الاقتصادية العامة ، بمعنى أنه عند تخصيص المبالغ اللازمة للصرف على الخدمات الاجتماعية يجب أن يراعى ألا تكون هذه المبالغ سبباً رئيسيّاً في زيادة سعر التكلفة السلعية التي تنتجها المنشأة أو الخدمة التي تقوم بتقديمها بما يؤدي إلى تفوق المنشآت الأُخرى التي تقوم بإنتاج نفس السلعة أو بتقديم الخدمة ذاتها في ميدان المنافسة الحرة.

كذلك يتوقف تمويل هذه الخدمات على مدى مساهمة العمال فيها . والقاعدة المتبعة والمتفق عليها تقريباً في هذا الصدد هو أن يتحمل صاحب العمل مصاريف إنشاء الخدمات ويتحمل العمال مصاريف إدارتها ، أو جانباً من هذه المصاريف على الأقل . والغرض من ذلك كله حث العمال على الاهتمام بالخدمات والاستفادة منها قدر المستطاع ثم عدم ارهاقهم بمصاريف الإنشاء التي يفضل أن يتحملها أصحاب المنشآت قياماً بمسئوليتهم الاجتماعية قبل أفراد الطبقة العاملة .

وينص القانون في جمهورية مصر العربية على تخصيص ١٥ ٪ من الأرباح للخدمات الاجتماعية منها ٥ ٪ لإنشاء خدمات اجتماعية خاصة بعمال المنشآة و ١٠ ٪ لإنشاء خدمات اجتماعية مركزية .

رابعاً : المتابعة والتقييم :

تتوقف عمليات التخطيط لبرامج الرعاية العمالية على وجود نظام دقيق للمتابعة والتقييم القائم على الأُسس العلمية السليمة والتي تستهدف قياس مدى استفادة العمال بها وذلك يساعد على تطوير البرامج والخطط المستقبلية والارتقاء بها .

وتبرز أهمية المتابعة وفوائدها في هذا المجال في الأُمور الآتية :

١ – بيان عوامل الضعف والقصور في أداء برامج الرعاية إما لنقص الكفاءة أو لهبوط مستوى تفهم الخطة .

٢ – بيان مناطق الضعف وأماكن القصور في تنفيذ الخطة .

٣ – تحديد آثار التغيير بالنسبة لخطط وبرامج المستقبل (٣١) .

هذا ومن المهم الإشارة كذلك إلى أهمية وضرورة متابعة مخططي برامج ومشروعات الرعـــاية العمالية للاتفاقيات والتوصيات الدولية للهيئات المتخصصة مثل هيئة العمل الدولية ومكتب العمل الدولي ولجـــانه المتخصصة ، مع ضرورة مراعاة الإمكانيات والاحتياجات المحلية والقوميـــة في هـذا المجـــال .

(٤) ســـوء التوزيـع الجغــرافي للخدمات :

تعـــاني البلدان العربية جميعاً بلا استثناء من تركيز الخدمات في العواصم وبعض المدن الكبرى ، وشحها ـ كما وكيفا ـ في باقي المجتمعات المحلية وخاصة في الريف والبادية . ويؤدي هـذا بالطبع إلى زيادة معـدلات الهجـــرة إلى المدن الكبرى مما يسبب مشكلتين : (١) مشكلة الازدحام والضغطبل والصراع على الحياة في المدن الكبرى ،(٢) ومشكلة حرمان الريف والبادية من أحسن عناصرها أي الفئات المتعلمة والمتفتحة التي تهاجر وراء العيش والحيـــاة الكريمـــة .

ومن ناحية أُخرى ، يؤدي النمو المتزايد في المدن الكبرى في البلدان العربية إلى إلى ظهور نوع من الأُسرة لم تألفه البلدان العربية يتسم بقدر أكبر من التفكك وتضعف فيه سلطة الكبار وسلطة الأُسرة وسلطة التقاليد والأعراف ، ويفتقر إلى النظام والتوجيه ، وتزيد فيه حرية الأفراد زيادة بالغة تؤدي إلى الفوضى والانحراف واللامبالاة . وبالطبع لا يريد أحداً أن تبقى مجتمعاتنا جامدة وأن يبقى شبابنا مقفلاً ، وإنما القصد هو الوصول إلى قدر من التوازن يبقى للمجتمع قدراً مناسباً من تماسكه الضروري ويوفر لأعضائه الحـــرية الواجبة والملتزمة .

ومن جانب آخر ـ وهو ما يهمنا هنا ـ ظهرت في البلدان العربية مدناً صناعية متناثرة يسكنها عمال المصانع وهي فئة جديدة على المجتمع العربي تتقن فنوناً لم تألفها البلدان العربية . هذه الفئة هي أمل المستقبل في وطننا العربي فالصناعة هي ولا شك ركن أساسي في نهضتنا الحديثة ، والعمال المهرة هم أساس هذه الصناعة . وفي العادة يسكن هؤلاء العمال إما في تلك المدن الصناعية أو في الأحياء المتخلفة في المدن الكبيرة المجاورة التي لا يمتد إليها قدر كاف من الخدمات الاجتماعية .

ومن هنا وجب أن تراعي الحكومات العربية في خططها القومية الاعتبارات الآتية عند توزيع الخدمات الاجتماعية :

(أ) إعطاء الأولوية للأقاليم خارج العاصمة وعدم تركيز الخدمات في العاصمة .

(ب) تفضيل الأقاليم النائية على الأقاليم المتاخمة للعاصمة والمدن الكبرى .

(جـ) تفضيل القرى والبادية على المدن .

(د) تفضيل المدن الصناعية على المدن التجارية والحرفية .

(هـ) تفضيل الأحياء المتخلفة في المدن على الأحياء المتوسطة وفوق المتوسطة .

(٥) مشكلة الوضع القانوني الاقتصادي لقوة العمل :

لا يمكن استمرار العمل والإنتاج إلا بحصول القوى العاملة على الضمانات القانونية والاقتصادية سواء من حيث تنظيمها للدفاع عن حقوقها المشروعة أو استقرارها الاقتصادي والاجتماعي . وقوانين العمل والاستخدام والتوظيف للقوة العاملة الأخيرة لم تنظم في المجتمعات العربية إلا مؤخراً ، وحتى هذا التنظيم لا زال في أطواره الأولى في بعض المجتمعات العربية كمجتمعات الخليج العربي(٣٢) .

كذلك فإن حقوق المرأة العاملة لم تستتب بعد في كل الدول العربية وقد وجدت لها بعض الأحكام الخاصة إضافة إلى الحقوق العمالية الأُخرى في أقطار الخليج العربي والتي نظمت استخدامها من حيث طبيعة وأوقات العمل وأجازات الوضع . ومع تواجد هذه القوانين فإن بعضاً منها إما معطل أو لا يجري العمل بها كما في البحرين مثلاً حيث ينظم قانون العمل قيام النقابات العمالية بينما لا يوجد أية نقابة عمالية حتى الآن (٣٣) . ومن المعروف أن النقابات العمالية تلعب دوراً هاماً في المحافظة على حقوق العمال وفي ضمان وصول الخدمات الاجتماعية لهم . بل إن النقابات والأندية العمالية في بعض البلاد العربية تقوم بدور هام في برامج الرعاية الاجتماعية والثقافية المختلفة للعمال .

وليس ثمة شك في أن تشريع العمل هو الذي انتقل بالمجتمعات الصناعية من مجتمعات متأخرة إلى مجتمعات ناهضة قائمة على التعاون والعدالة الاجتماعية ، هادفة لتحقيق حياة أفضل لصالح المجموع .

ولقد اهتم المشرع العربي مؤخراً بمشكلات العمل والعمال نتيجة لاتجاه الدول العربية نحو الصناعة . ولم تكن الدول العربية في مجملها تعني بمثل هذه التشريعات العمالية الحديثة لو أنها أبقت اقتصادها القومي وقفاً على الزراعة والتجارة والمهن الحرفية البسيطة ، كما أن بعضها لم يكن ليهتم بها من قريب أو بعيد لو لم تكتشف لديها آبار البترول .

وكانت جمهورية مصر العربية أولى الدول العربية التي أقدمت على سن تشريعات العمل لأنها كانت أسبقها إلى الأخذ بأساليب الصناعة الآلية الحديثة وذلك بعد الحرب العالمية الأولى ، فأصدرت أول تشريع عمالي عام ١٩٣٣ . وحالياً نجد معظم الدول العربية قد أصدرت تشريعات مماثلة في الخمسينات والستينات والسبعينات من القرن الحالي .

(٦) تدعيم دور النقابات في مجال الرعاية العمالية :

النقابات العمالية في بلاد العالم وليدة الصناعة الحديثة ، نشأت حينما توفرت الظروف لنشوء الصناعة وظهور المصانع المتوسطة أو الكبيرة التي تضم عدداً كبيراً من العمال وتستخدم عادة آلات الإنتاج الحديثة . ولا شك أن الغرض الأساسي من إنشاء النقابات العمالية هو الدفاع عن مصالح الأعضاء ورعايتهم من الناحية الاقتصادية التي ترتبط بأعمالهم اليومية (٣٤) . ولكن ليس هذا هو الغرض الوحيد من إنشاء النقابات العمالية ، فالواقع أن كثيراً من هذه النقابات تعمل الكثير من الأشياء التي قد تقع خارج هذا النطاق أو تتصل به بطريق غير مباشر . فقد تتدخل النقابات في وجوه النشاط التعليمي على نطاق واسع ، أو تعمل كما تعمل الجمعيات الخيرية من أجل توفير الإعانات إبان المرض أو الشيخوخة أو في حالات البطالة أو منازعات العمل . . . الخ .

وتعتبر النقابات أبرز صور التنظيمات العمالية لاسيما في المجتمعات الاشتراكية وقد ارتبطت النقابات خلال فترات التاريخ الصناعي باتجاهات عدة جعلت منها في بعض الأحيان

مسرحاً للدفاع عن حقوق العمال بحيث بدت في موقف المتحدي للتنظيم الصناعي وأصحاب الأعمال باعتبارها « الجمعيات التي يكونها العمال لأجل تحسين حالتهم الاجتماعية والدفاع عن مصالحهم المشتركة الناتجة عن مزاولتهم للمهنة وارتباطهم بعقود العمل » (٣٥) . كما ارتبطت أيضاً بدور القيادات المهنية والثقافية والسياسية واعتبرت بذلك مدرسة تقوم على التلقين والتعبير والتوجيه .

وفي وقتنا الحاضر يتمثل دور النقابات الرئيسي في عملية ضخمة هي عملية (التطوير) التي تشمل ميادين الحياة المتعددة من أخلاق وقيم وسلوك شخصي واجتماعي إلى طرائق ونظم الصناعة الحديثة والإنتاج الضخم .

وإذا كان هناك نواحي متعددة لعملية التطوير هذه ، فمن المؤكد أن يكون من أبرز وأهم هذه النواحي الثقافة الفكرية العمالية التي هي بمثابة الغذاء الفكري والعقلي .

لذلك فإن من الواجبات الأولى والأساسية للنقابات أن تعمل « بكل طاقاتها وإمكانياتها لتزويد أعضائها بالثقافة ابتداء من محو الأمية حتى مساعدة الذين يرغبون الانتساب للجامعات وتكملة تعليمهم . ويدخل في ذلك إعداد الفصول والدورات الدراسية وأعمال التدريب والمحاضرات ونشر الكتب وإعارتها وتنسيق العمل بينها وبين الهيئات والأجهزة الحكومية الأخرى للنهوض بهذه المهمة على أكمل وجه » (٣٦) .

ويمكن لنا أن نتبين بوضوح ما تؤديه رفع الكفاية الفكرية للعمال وذلك بصورة عملية ، فرفع الكفاية الفكرية للعامل ينعكس دون شك على إنتاجه فنجده قد تميز بنوع من الإتقان والدقة بعكس العامل الذي لم يتم رفع ثقافته الفكرية فهو يظل بدائياً سواء في إنتاجه أو تصرفاته .

كذلك غالباً ما تؤثر رفع الكفاية الفكرية على مظهر العامل نفسه فسوف يزداد وعيه ويعرف حقوقه وواجباته كاملة ، « وبهذا ستظهر صورة الطبقة العاملة الجديدة المسلحة بالعلم والمزودة بالمهارات ، الواثقة من نفسها » . لكل هذا يجب تدعيم دور النقابات لتؤدي دورها كما يجب في مجال رعاية العمال .

(٧) مشكلة إعداد العاملين في مجالات العمل الاجتماعي :

يجب أن يقوم على الخدمة الاجتماعية العمالية متخصصون فيها ، لهم من القدرة والكفاية ما يمكنهم من القيام بدورهم من أجل تحقيق الأهداف المطلوبة (٣٧) . ولذلك يتطلب اختيار الاخصائيين لإعدادهم للعمل في الميدان الاجتماعي كثيراً من العناية ، وذلك لأن نجاح العمل الاجتماعي يتوقف أساساً على شخصية الاخصائي(٣٨) ، ولذلك كان لابد أن يختار الاخصائي الاجتماعي من طراز خاص من ذوي الشخصية الصالحة ، وأن يكون على معرفة تامة تمكنه من تفهم ودراسة السلوك الإنساني عامة وسلوك العمال خاصة والدوافع التي تؤثر في هذا السلوك بما يعينه على توجيه الخدمات الاجتماعية نحو تحقيق احتياجات العمال . كما يجب أن تكون لديه القدرة على تطبيق المعارف والخدمات ونواحي النشاط بصورة عملية . كمايجب العناية بإعداد وتدريب الاخصائي الاجتماعي العمالي في المعاهد العلمية المتخصصة ، علاوة على تنمية معلوماته أثناء قيامه بأعباء وظيفته . ومن هنا يجب تشجيع الهيئات العاملة في مجالات العمل الاجتماعي على تنظيم الدورات التدريبية والندوات والمؤتمرات . . . الخ . وإرسال البعثات واقتناء المكتبات لرفع مستوى العاملين في الميدان الاجتماعي وضمان استمراره في النمو .

ولعله من المفيد في مجال إعداد العاملين الاجتماعيين في الدول العربية التركيز بصفة خاصة على النقاط الآتية :

(أ) تكثيف الجهود نحو رفع كفاءة المسئولين القائمين على إعداد العاملين الاجتماعيين .

(ب) إظهار مسئوليات التكامل من مختلف التخصصات المهنية في إحداث التغيير الاجتماعي وتهيئة فرص التدريب الفريقي في التنمية الاجتماعية وإبراز مزاياها .

(جـ) تشجيع ظهور المراجع والكتب العربية في مجالات التنمية الاجتماعية والعمل الاجتماعي

(د) دعم هيئات التدريب والتدريس والإعداد في معاهد أو كليات أو مراكز إعداد العاملين الاجتماعيين .

كذلك يجب العمل على تبادل المعلومات بين الدول العربية في مجال العمل الاجتماعي العربي وتنظيم النشرات الإعلامية والدورات والزيارات لتبادل الخبرات العربية والدولية .

ثبت المـــراجع

(١) George Peter Murdock, Social Structure, Collier Macmillan Limited, London, 1966.

(٢) United Nations, International, Social Services: Planning for Social Development, 1963.

(٣) احمد كمال ، كرم حبيب : تنظيم المجتمع طريقة وهدف ، دار الجيل للطباعة القــاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٢٢

(٤) Emile Durkheim, De La Division du Travail Social, 2nd, ed., Paris, 1946.

(٥) United Nations, These Rights and Freedoms, N.Y., 1950.

(٦) Elizabeth Wickenden, Social Welfare in a Changing World, U.S. Department of Health, Education and Welfare, Washington, 1965.

(٧) للوقوف على تعريفات مفهوم الايديولوجية وتجسيداتها الاجتماعية أنظر ـ فاروق العادلى ، « الايديولوجية وتجسيداتها الاجتماعية » فى دراســات فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، الفصل العاشر ص ص ٢١٥ ـ ٢٢٦ ٠

(٨) Richard T. Titmuss, Essays on the Welfare State, Ruskin House, George Allen, London, 1958, p. 118.

(٩) فاروق محمد العادلى ، الاجتماع الصناعى : أسسه النظرية وتطبيقاته العلمية ، الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦ ٠

وانظر كذلك ـ تقرير عن الخدمات الاجتماعية العمالية فى البلدان العربية ، اعداد قســم الخدمات الاجتماعية والتعاونية ، مكتب العمل العربى ، ديسمبر ، ١٩٧٧ ٠

(١٠) محمــود حسن ، مقدمة الرعاية الاجتماعية ، الطبعة الاولى ، مكتبة القــاهرة الحديثة القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ١٣ ٠

وقد حدد سيد أبو بكر حسانين مجالات مسئولية الدولة عن الرعاية الاجتماعية من واقع الحقوق الاساسية التى تشكل مقومات الحرية الاجتماعية للمواطن ٠

أنظر ـ سيد أبو بكر حسانين ، مدخل الى الخدمة الاجتماعية ، مكتبة التجارة والتعاون ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ص ٣٢٧ ـ ٣٣٤ ٠

(١١) A. V. Ramon Rao, Industrial Social Services in a Developing Economy, Allied Publishers Private, Bombay, 1965, p. 226.

(١٢) Encyclopedia Britannica, Inc. William Penton, 1966, p. 907.

(١٣) محمود حسن ، مرجع سابق ، ص ٣١ .

(١٤) The Encyclopaedia Americana, Volume XXV, New York, 1959, pp. 191—192.

(١٥) International Encyclopaedia of Social Sciences, Volume 14, L. Mac. millan, New York, 1964, p. 495.

(١٦) الفاروق زكى يونس ، الخدمة الاجتماعيـة والتغيير الاجتماعى ، عالم الكتب ، القـاهرة ١٩٧٠ ، ص ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣ .

(١٧) عبد المغنى سعيد ، توفير الخدمات الاجتماعية وأثره فى زيادة الانتاج ، حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية ، الدورة الرابعة ، ١٩٥٤ .

(١٨) منظمة العمل العربية ، بحث بعنوان الخدمات الاجتماعية العمالية فى البلدان العـربية ، اعـداد قسم الخـدمات الاجتماعية والتعـاونية ، ديسمبر ١٩٧٧ ، أنظـر محلق البحث (الاسـتبيان) .

(١٩) المرجع السـابق ، ص ١٨ .

(٢٠) المرجع السـابق ، ص ١٩ .

(٢١) المرجع السـابق ، ص ص ٢٤ ـ ٢٨ .

(٢٢) فاروق العادلى ، المنهج العلمى والتخطيط من أجل مجتمع عربى أفضل ، حقيبة الدراسات الاجتماعية ، الادارة العامة للشئون الاجتماعية والثقافية ، الامانة العـامة لجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ص ٤١ ـ ٤٢ .

(٢٣) فاروق العـادلى ، الايديولوجيـة وتجسـيداتها الاجتماعية ، مرجـع سـابق ، ص ص ٢١٥ ـ ٢٢٦ .

(٢٤) محمد عاطف غيث ، علم الاجتماع (دراسات تطبيقية) ، دار النهضة العـربية للطبـاعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ٢١٣ .

(٢٥) المرجع السـابق ، ص ١٦٤ .

(٢٦) عبد الباسط محمد حسن ، التنمية الاجتمـاعية ، معهد البحوث والدراسـات العـربية ، القاهرة ، ١٩٧٠ . وكذلك عبد المنعم شوقى ، تنمـية المجتمع وتنظيمه الطبعة الثـالثة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

(٢٧) R. Ward, The Challenge of Development and Practice, Alden Publishing Company, Chicago, 1967.

(٢٨) R. Keat & John Urry, Social Theory as Science, R.K.P., London, 1975.

(٢٩) جامعة الدول العربية ، التدريب على الرعاية الاجتماعية ، أثناء الخدمة ، تقرير ادارة الشئون الاجتماعية بالامم المتحدة ، غير مبين سنة النشر ، ص ٣ ٠

(٣٠) البرت ووترستون ، ماذا تعرف عن التخطيط ، ترجمة سعيد عبد العزيز ، معهد التخطيط القومى ، القاهرة ، (غير مبين سنة النشر) ، ص ص ١٠ ـ ١١ ٠

(٣١) أحمد رشيد ، نظرية الادارة العامة ، الطبعة الاولى ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٣٥٠ ٠

(٣٢) محمد غانم الرميحى ، معوقات التنمية الاجتماعية والاقتصادية فى مجتمعات الخليج العربى المعاصر ، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ، الكويت ، ١٩٧٧ ، ص ١٣٠ وما بعدها ٠

(٣٣) المرجع السابق ، ص ١٠٧ ٠

(٣٤) G. D. H. Cole, An Introduction to trade Unionism, Alleen & Unwin, London, 1953, Part I.

(٣٥) على العريف ، شرح قانون العمل ، الجزء الثانى ، مطبعة عطايا ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١ ٠

(٣٦) جمال البنا ، دور النقابات فى المجتمع الاشتراكى ، المطبعة العالمية ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٤٧ ٠

(٣٧) للوقوف على تفصيلات مفيدة عن دور الاخصائى الاجتماعى فى تنظيم المجتمع والادوار المختلفة التى يمكنه القيام بها ، انظر ـ سيد أبو بكر حسانين ، طريقة الخدمة الاجتماعية فى تنظيم المجتمع ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ص ٥٣١ ـ ٥٤٧ ٠

(٣٨) لمعرفة الصفات التى يجب توافرها فى الاخصائى الاجتماعى والسلوك المهنى النابع من أخلاقيات مهنته ، انظر ـ سيد أبو بكر حسانين ، مدخل الى الخدمة الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ص ٢٤١ ـ ٢٤٨ ٠

★ ★ ★

دور البصرة في أحداث نجد وشرقي شبه الجزيرة العربية

في عهد محمد علي ۱۸۱۹ - ۱۸٤۰ من خلال الوثائق المصرية

الدكتور
عبد الرحيم عبد الرحمن
أستاذ مساعد بقسم التاريخ

تمهيـــد :

كان لموقع البصرة الفريد ، على رأس الخليج ، على شط العرب ، على بعد ثلاثمائة ميل إلى الجنوب الشرقي من بغداد ، أهميـة استراتيجية ، فائقة ، منذ بدايـة العصر الحديث ، بالإضافة إلى ما أضفاه عليها هذا الموقع من أهميـة اقتصادية وتجارية جعلها محط أنظار القوى الأوربية المختلفة ، كالبرتغاليين ، والهولنديين ، والانجليز وغيرهم (۱) . أضف إلى ذلك ما أضفاه هذا الموقع على البصرة من أهميـة ثقافية ، حيث أصبحت نقطة التقاء ثقافي هامة ، ومركزاً من مراكز الثقافة المزدهرة في العالمين العربي والإسلامي ، ومن هنا كان دور البصرة في تاريخ المنطقـة في العصر الحديث في مختلف مجالاته الحربية والسياسية والاقتصادية والثقافية ، ومن شأن هذا البحث إلقاء الضوء على دورها في تاريخ نجد ومنطقـة شرقي شبه الجزيرة العربية في فترة محددة هي عصر محمـد علي في شبه الجزيرة العربية . أي التركيز على دورها في تاريخ المنطقـة في تلك الفترة ، إن سلباً أو إيجاباً .

البصرة والدولـة السعودية الأولى :

منذ أن أعلن عن قيام الدولة السعودية الأولى ١١٥٨ هـ ــ ١٧٤٥م ، وإتجاه الأمـير محمـد بن سعود إلى نشر مبادىء الدعوة السلفية ، بدأت البصرة تلعب دورها في أحداث

(۱) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « البصرة » جـ٣ ، ص٦٦٩ ــ ٦٧٢ .

المنطقة ، وأصبحت الملجأ والملاذ ، لكثير من القبائل النجدية التي هربت من وجه النفوذ السعودي ، وعملت على الاستعانة بالعشائر العربية في جنوب العراق ، وكانت البصرة المركز الرئيسي الذي إتجه صوبه هؤلاء الهاربون ، كذلك كانت البصرة الملجأ لقبائل بني خالد ، وأتباعهم من القبائل العربية في شرق شبه الجزيرة العربية (الاحساء – القطيف) ، وازداد الالتحام بين البصرة والمنطقة في تلك الفترة بصورة واضحة ، حتى أن النكبة التي حلت بها في الفترة ١١٩٠ – ١١٩٣هـ/١٧٧٦ – ١٧٧٩م ، من احتلال الفرس لها ، زادت من هذا الالتحام وقوته ، حيث هاجر جماعة من أهلها إلى الكويت وغيرها مما أدى إلى ازدهار هذه المناطق اقتصادياً ، نتيجة لنشاط أهل البصرة التجاري .

أدرك آل سعود خطورة منطقة جنوب العراق ، والبصرة بالذات على كيان دولتهم الناشئة ، ولذا فإننا نجد أن الأمير سعود بن عبد العزيز ، يقود في ١٢١٠هـ – ١٧٩٥م ، حملة ، ويقوم بعمليات تهديدية ضد العشائر العراقية الحامية للقبائل النجدية الهاربة من وجه النفوذ السعودي ، ويصل بعملياته إلى ضواحي البصرة ذاتها (٢) ولكن التهديدات السعودية لم تثن البصرة عن المشاركة في الأحداث التي كانت دائرة في المنطقة ، بل استمرت تلعب دورها . وعندما بدأ السلطان العثماني تكليف والى بغداد بمحاربة آل سعود ، والقضاء على دولتهم ، كان الاتصال بين أهل الاحساء وسليمان باشا والي بغداد على أشده حول اطلاق سراح ثويني بن عبد الله أمير المنتفق الذي حاول الاستقلال بالبصرة ١٢٠٣هـ – ١٧٨٩م ، ولكنه فشل في محاولته فوجد سليمان باشا في مطلب أهل الاحساء هذا فرصة طيبة له ، فأطلق سراح ثويني ، وأسند إليه إمارة المنتفق ، وكلفه بحرب آل سعود ١٢١١ هـ – ١٧٩٦ م ، وبذا غدت البصرة ، وكأنها مركز النشاط لأعداد حملة ثويني الذي جمع جيشاً كبيراً من المنتفق وأهل الزبير والبصرة ، والعناصر الساخطة من بني خالد ، وكذلك الجنود الأتراك الذى كانوا في البصرة . ولكن هذه الحملة رغم ضخامة الأعداد لها ، باءت بالفشل ، ولم تستطع تحقيق هدفها ، وقتل ثويني عند وصوله إلى الأحساء ، قبل أن يقوم بدور حاسم ضد آل سعود .

---

(٢) عبد الرحيم ، الدولة السعودية الأولى ، ط٣ ، ص١٩٥ – ١٩٧ .

Philiby, (H.st.), Saudi Arabia, London, 1955, pp. 87—88.

كذلك كانت البصرة . المركز الرئيسي لتحرك حملة علي باشا كيخيا ، التي أعدها سليمان باشا والي بغداد لمحاربة الدولة السعودية الأولى ، وقد انضم أهل البصرة والزبير ، وعشائر المنتفق وغيرهم من عشائر جنوب العراق إلى هذه الحملة التي لم تكن بأسعد حظاً من سابقتها فباءت بالفشل ، ولم يقدر للصلح الذي انتهت به هذه الحملة ، بين علي باشا كيخيا قائد الحملة ، والأمير سعود بن عبد العزيز أن يكون طويل الأمد . حيث ساءت العلاقات من جديد بين الدرعية وبغداد نتيجة لاعتداء الخزاعل على بعض أتباع آل سعود ، وأوضحت سلطات الدرعية لعبد العزيز الشاوي رسول والي بغداد إليها ، أنها مصرة على أن يكون لها غربي الفرات من عانة إلى البصرة لاقتناعها بأهمية البصرة لأمنها . وتنفيذاً لهذا المطلب السعودي ، فإن الهجمات السعودية بعد مذبحة كربلاء ١٢١٦ هـ ــ ١٨٠١ م ، استمرت متواصلة على مدن وقرى العراق ، وكانت أقساها تلك الهجمة التي قامت بها الدولة السعودية على الزبير ، والبصرة ، واستمرت المناطق المجاورة للبصرة تعاني الكثير من التهديدات السعودية (٣) ، ونحن نرى أن تركيز الهجمات السعودية على الزبير والبصرة ، كان نابعاً من عدة عوامل أهمها :

أولا : أن البصرة كانت مركزاً ، من مراكز مقاومة فكر الدعوة السلفية ، منذ البداية حيث أنها لم تتقبل هذا الفكر قبولاً حسناً ، ولقى الشيخ محمد بن عبد الوهاب فيها حيث أقام أربع سنوات ــ عنتاً شديداً (٤) .

ثانياً : أن البصرة كانت هي والزبير ملجأ وملاذاً ، لكل القبائل النجدية الهاربة ، من وجه النفوذ السعودي ، حتى أن فروعاً كثيرة من هذه القبائل استقرت فيهما ، أو في المناطق المجاورة لهما ، وكان لهذه الفروع من القبائل النجدية دورها في أحداث نجد في الفترات التالية ، كما سنرى .

ثالثاً : كانت البصرة المركز الرئيسي ، لكل التحركات المضادة لاتساع نفوذ آل سعود

---

(٣) لمزيد من التفصيل ، انظر : عبد الرحيم عبد الرحمن ، المصدر السابق ، ص٢٠١ ــ ٢١٥ عباس العزاوى ، تاريخ العراق ، جـ٦ ، ص١٦٠ ، مصطفى عبد القادر النجار ، التاريخ السياسى ، لعلاقات العراق الدولية بالخليج العربي ، البصرة ١٩٧٥ ، ص٤٣ .

(٤) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المصدر السابق ، ص٣٣ ، حسين بن غنام ، تاريخ نجد ، ص٢٨ .

في منطقة شرقي شبه الجزيرة العربية ، ولذا فإن سلطات الدرعية عملت على تركيز هجماتها عليهــا .

رابعاً : الاحتلال الفارسي للبصرة في بعض الفترات ، جعل آل سعود يخشون عودة هذا الاحتلال ، وإتخاذها مركزاً لتهديد سلطتهم ، هذا إلى جانب وجود عشائر المنتفق القوية في منطقة البصرة ، وتهديدها المستمر للنفوذ السعودي .

كل هذه العوامل إلى جانب أهمية البصرة الاقتصادية ، جعلت آل سعود يركزون في تلك الفترة هجماتهم عليها لحماية أمن دولتهم الناشئة .

* * *

البصرة ونجد عقب سقوط الدرعية :

سادت منطقة نجد وشرقي شبه الجزيرة العربية ، عقب سقوط الدرعية في يد إبراهيم باشا ١٢٣٣هـ ــ ١٨١٨م ، فترة من الاضطراب والفوضى ، حيث تمكن الإمام تركي بن عبد الله من السيطرة على الموقف . ودخل في نزاعات محلية عديدة مع القرى والمدن النجدية ، ومع مناطق شرقي شبه الجزيرة العربية ، نجد البصرة ، تعود مرة أخرى لتلعب دورها في هذه الأحداث ، فتفتح أبوابها لاستقبال الهاربين من وجه تركي بن عبد الله ، ومن وجه ابنه فيصل من بعده .

وقد استطاع هؤلاء النجديون الذين استقر بهم المقام في البصرة والزبير أن يكونوا ثروات ضخمة . وأن يصلوا إلى مراكز رياسية في بني قومهم هناك ، ومع ذلك فقد ظلوا على اتصال بأصولهم ومناطقهم النجدية ، وكان لهم دورهم الاقتصادي والحربي في تاريخ المنطقة ، فتذكر المصادر المعاصرة . أنهم كانوا يمارسون نشاطهم ، ما بين البصرة ومناطقهم حاملين معهم أموالاً وتجارات عظيمة (٥) .

وقد اشتهر من بين هؤلاء المهاجرين آل راشد وآل زهير من أهل حرمة ، وأهل حريملا ، حتى استطاع أحد أفراد هذين البيتين أن يتولى إمارة الزبير ، مثل علي بن يوسف

(٥) عثمان بن عبد الله بن بشر ، عنوان المجد فى تاريخ نجد ، جـ٢ ، ص٢٢ ــ ٢٣ .

آل زهير ، الذي أصبح له من النفوذ والقوة ما جعله يعزل والي البصرة عزيز أغا ، ويعين مكانه « صاحب المصرف درويش أغا في منصب متسلم البصرة »(٦) ، هكذا أصبح أبناء نجد يلعبون دوراً في تصريف أمور البصرة ، على اعتبار أنها موطنهم الثاني الذي استقروا به .

وحدث في ١٢٥٢ هـ ـ ١٨٣٦ م ، أن ضاق أحمد أغا متسلم البصرة ، بما وصل إليه أبناء نجد من نفوذ في المنطقة ، وخاصة في الزبير ، حتى أن المصادر تذكر أن محمد بن إبراهيم بن ثاقب بن وطبان رئيس بلد الزبير من أهل حرمة « استقل بالولاية ، وكانت البصرة تحت يده ، وقوله فيها نافذ » ، لذا فإن المتسلم دبر حيلة لقتله ، ونجح في مسعاه ، ونكل بأتباعه ونهب أتباع المتسلم ، بيوت آل إبراهيم ، وهرب باقيهم إلى الكويت(٧) . ومع ذلك فإن البصرة ظلت المركز الرئيسي لنشاط أبناء نجد والملاذ لهم ، ولذا فإن محمد علي تطلع منذ البداية وبعد نجاحه في الاستيلاء على المناطق التي كانت تابعة للدولة السعودية الأولى إلى الاستيلاء على البصرة ، وبدأ تفكيره في هذا الأمر يتخذ مراحله الأولى ، ولكنه تأجل عدة مرات لظروف أحاطت بمشروعاته التوسعية كما يتضح من الوثائق التي توضح في ذات الوقت استمرار البصرة في دورها الفعال في أحداث المنطقة .

* * *

مشروع محمد علي لغزو البصرة :

كان العراق حلقة في سلسلة البلاد العربية التي كان محمد علي يتطلع إلى ضمها إلى حوزته ، منذ أن استتب له الأمر في الحجاز . ولذا فإنه ظل دائماً متتبعاً لأخبار ولاية بغداد وتطور الأمور فيها . وإدراكه لسوء الأوضاع فيها . حتى أننا نجده رغم عدم اهتمامه في العشرينات من القرن التاسع بأمور نجد وشرقي شبه الجزيرة العربية وهي المناطق القريبة من العراق ، إلا أننا نجده مهتماً بتتبع أخبار العراق ، فهو يكتب في نهاية ١٢٣٧هـ ـ ١٨٢١ م ، إلى محافظ المدينة « أن يكون دائماً على بينة من أحوال بغداد فيرسل إليها الجواسيس من المدينة ، أو عنيزة ، أو جبل شمر من ذوي العلاقات هناك » وأن يوافيه

(٦) عثمان بن عبد الله بن بشر ، عنوان المجد فى تاريخ نجد ، جـ٢ ، ص٢١ ـ ٣٢ .

(٧) المرجع نفسه ، جـ٢ ، ص٩٤ ـ ٩٥ .

بالأنباء الخاصة بالعراق التي تصله عن طريق هؤلاء الجواسيس (٨) وربما كان اهتمام محمد علي بأمور ولاية بغداد والبصرة في تلك الفترة نابع من الخوف من حدوث غزو فارسي للعراق ، حيث كانت العلاقات بين الدولة العثمانية وإيران سيئة وقد لاحت لمحمد علي الفرصة لغزو العراق سنة ١٨٢٢م ، حينما كلفه السلطان بتاريخ ١٢ شعبان ١٢٣٨ هـ - ٢٧ أبريل ١٨٢٣ م ، أن يرسل ابنه إبراهيم باشا على رأس حملة ليقـوم بمهمة الدفاع عنها ، بعد أن أقر والي بغـداد بعجزه عن رد اعتداء العجم ، ولكن محمد علي رأى أن هذا التكليف لا يحقق له مآربه في العراق ، فاعتذر عن تلبية مطلب السلطان بحجة عدم انتهاء حملة السودان ، وانشغاله بمراقبة المطامع الانجليزية في موانئ البحر الأحمر الجنوبية وكان الانجليز قد ضربوا ميناء « مخا » اليمني بالقنابل تمهيداً لاحتلالها (٩) لذا فإننا نجد أن محمد علي أجل مشروع غزو العراق إلى أن تتهيأ له الظروف ، وباستقراء الأحداث التاريخية نجد أن البصرة ظلت تؤدي دورها في أحداث المنطقة ، وأصبحت تمثل مركزاً مناهضاً لنفوذ محمد علي في شبه الجزيرة العربية ، والملجأ لكل الهاربين من وجه هذا النفوذ ، حتى أن تركجة بيلمز ، قائد ثورة الجند غير النظاميين في الحجاز ، والذي قيل بأنه تلقى وعداً عن طريق والي بغداد من قبل الدولة العثمانية بأن يكون والياً على الحجاز ، انتهى به المطاف بعد فشل ثورته إلى البصرة ، حيث شغل منصب سر عسكر ، أو قبودان باشا « حاكماً على البر والبحر على السفن الموجودة بالبصرة » واستمر يمارس سلطاته إلى حين وصول قوات خورشيد باشا هناك (١٠) ، وكان محمد علي يدرك خطورة البصرة على وجوده في شبه الجزيرة العربية ، ولذا فإنه عاود اهتمامه بالعراق عامة والبصرة بخاصة ، منذ بداية توتر علاقاته بالدولة العثمانية ، ووضع ضمن برامج مخططه محاولة غزو البصرة ، حتى أن بعض المصادر تذكر إلى أن الهدف الأساسي من وراء معاودة محمد علي نشاطه في شبه الجزيرة العربية في أواخر الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، كان الوصول إلى البصرة

(٨) دكتور عبد الحميد البطريق ، محمد على ومشروع غزو العراق ، بحث منشور بمجلة كلية الآداب ، الجامعة الأردنية ، المجلد الأول ، العدد الأول ، كانون الثانى ١٩٦٩ ، ص٥٠ .

(٩) نفسه ، ص٥٠ - ٥١ .

(١٠) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة (٢٦٧) عابدين ، وثيقة رقم (٧) حمراء ، خطاب من خورشيد باشا ، سر عسكر نجد الى المعية ، بتاريخ ٣ ربيع الآخر ١٢٥٥هـ / ١٦ يونية ١٨٣٩م .

وبغداد ، وضرب النفوذ العثماني هناك (١١) وقد أكد ماكنزي هذا الاتجاه من جانب محمد علي ، في تقريره الذي قدمه لوزارة الخارجية البريطانية في ٦ يناير سنة ١٨٣٧ م ، حيث أشار بأنه اتضح له من محادثاته مع كبار الضباط في جيش محمد علي ، أن الخطة قائمة على أساس أنه فور الانتهاء من ثورة عسير ، فسوف تتجه الجيوش للاستيلاء على عدن ، وبعدها حضرموت ، ثم عمان ومسقط ، وبعد ذلك يصبح أمر غزو البصرة وبقية العراق أمراً سهلاً (١٢) .

ولكن بريطانيا خشيت هذا الاتجاه من جانب محمد علي ، وعملت على مقاومته ، خاصة وأن تقارير قناصلها أكدت لها أن أهالي العراق « يفضلون حكم باشا مصر ، وليس في العراق من يستطيع أن يقاوم أية محاولة يقوم بها محمد علي لغزو العراق » (١٣) ولذا فإن بلمرستون Palmerston . أرسل إلى محمد علي عن طريق قنصل انجلترا في مصر ، يحذره من محاولة ضم العراق حيث « أن الإقدام على ضم العراق ، أمر يضر بمصلحته ، ويعكر العلاقات الحسنة السائدة بينه وبين الحكومة البريطانية (١٤) ، وكذلك فإننا نجد أن هنل Hennell المقيم البريطاني في الخليج ، قام بتحذير خورشيد باشا من عاقبة الاستمرار في عملياته في منطقة الخليج ، وكان لهذا الموقف المتشدد تأثيره على تفكير محمد علي ، فتظاهر بأنه لا يفكر في الوقت الحاضر في غزو بغداد ، خاصة وأن جيوشه مشغولة في عمليات توطيد الأمن في سوريا ، وتوكيداً لهذا التظاهر ، فإنه رفض أن يجيب مطلب خورشيد باشا الخاص بإرسال قوة بحرية عن طريق الخليج لتكون عوناً لقواته التي ذهبت للاستيلاء على القطيف قائلا «إن إرسال السفن من جدة إلى ميناء القطيف لا يوافق بسبب بعض المحذورات» (١٥)

(١١) Dodwell, (Henry H.), the founder of Modern Egrypt, pp. 143—145.

(١٢) دكتور فاروق عثمان اباظه ، عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ١٨٣٩ ـ ١٩١٨ ، ص١١٩ ـ ١٢٠ .

(١٣) F. O. 78—245, Taylor to chief secretary to government at Bombay.
نقلا عن الدكتور عبد الحميد البطريق ، المصدر السابق ، ص٥٢ .

(١٤) دكتور عبد الحميد البطريق ، المصدر نفسه ، ص٥٢ . وحول اهتمام بريطانيا المبكر بالعراق انظر :
Edith and E. F. Penrose, Iraq : International Relations and National Development ,London 1978, P. 12.

(١٥) دار الوثائق القومية ، محفظة (٢٦٧) عابدين ، وثيقة (٢) اصلية ، ٣٧ حمراء ، من خورشيد باشا الى حكم عام الحجاز ، بتاريخ ١٩ محرم ١٢٥٥هـ/١٤ ابرايل ١٨٣٩م .

ولا شك أن رد القاهرة ، يعني هنا بالمحذورات الوجود البريطاني في الخليج ، مما أقلق خورشيد باشا ، وجعله يفكر في هذه المحذورات ، ولكنه سرعان ما أدركها فما كادت قواته تستولي على القطيف ، وبدأت مفاوضات وكيله محمد أفندي مع عبد الله بن أحمد أمير البحرين ، حتّى انزعجت حكومة الهند البريطانية ، وبعث المقيم البريطاني في الخليج Hennell إلى خورشيد باشا يحتج على تصرفاته هذه مذكراً إياه بوعود محمد علي بأن قواته لن تتعدى على المناطق المتصلة بالبحر الملقب بخليج فارس (١٦) . وهنا أدرك خورشيد ما يعنيه رد القاهرة بالمحذورات . وكان بات واضحاً أن اهتمام بريطانيا لم يعد قصراً على البحرين والأحساء والساحل العماني ، وإنما أصبح يشمل الكويت والبصرة ، لأنهما أصبحتا في تلك الفترة تلعبان دوراً بارزاً في أحداث المنطقة حربياً واقتصادياً .

★ ★ ★

أهميـــة البصرة للوجـــود المصري في منطقة نجد وشرقي شبه الجزيرة العربية :

لم تعد البصرة مجرد مركزاً استراتيجي يريد محمد علي الاستيلاء عليه ، ولذا فإن خورشيد باشا بمجرد استيلائه على منطقة نجد وتوغل قواته نحو الخليج ، تحمس تحمساً شديداً لغزو البصرة خاصة وأن مراسلات وتقارير وكيله محمد رفعت في منطقة الحسا ، قد أكدت له أهمية البصرة لازدهار ورواج الحالة في منطقة الخليج للعوامل التـــالية :

أولاً : أن البصرة أحد المراكز الهـــامة لتزويد القوات المتواجدة في منطقة نجـــد وشرقي شبه الجزيرة العربية بصنف الغـــلال .

ثانياً : أكد محمد رفعت أنه نظراً للحركة التجارية القائمة بين البحرين والبصرة ، فإن الاستيلاء عليها وعلى البحرين ، وقيام اتصال تجاري بينهما وبين مينائي الأحساء والقطيف ، سوف يؤدي إلى رواج الحـــالة .

ثالثاً : أهمية منطقة البصرة والزبير بالنسبة لإمداد قوات خورشيد بالجمال اللازمة

---

(١٦) دار الوثائق القومية ، محفظة (٢٦٧) عابدين ، وثيقة (١٣٧) حمراء ، صورة المرفق العربى للوثيقة ، الكتاب المرسل من المقيم البريطانى فى الخليج الى خورشيد باشا ، بتاريخ ١٣ ربيع أول ١٢٥٥ هـ / ٢٧ مايو ١٨٣٩ م ٠

لحمل أمتعتها وعتادها من جهات البصرة والكويت (١٧) .

رابعاً : أهمية البصرة في إمداد القوات والأهالي في المناطق التي أصبحت تابعة لنفوذ محمد علي بكثير من السلع الغذائية والصناعية ، وبخاصة عن طريق التجار النجديين الذين كانوا يقيمون في جهات البصرة والزبير . وقد أكد عثمان بن بشر هذه الحقيقة ، فلا تكاد تخلو سنة من سنوات أحداثه التي دونها دون أن يكون فيها ذكر للقوافل الرائحة الغادية ما بين المناطق النجدية والبصرة والزبير(١٨) ، تحمل الزاد والغلال والأموال ، مما يدل على أن البصرة كانت مركز تموين هام لمنطقة نجد وشرقي شبه الجزيرة العربية ، لتواجد كثير من التجار والعربان النجديين فيها ، ولأنها أصبحت مركزاً رئيسياً لنشاط السفن التجارية القادمة من الهند ، ولذا فإن خورشيد باشا تحمس في عام ١٨٣٩م، تحمساً شديداً لغزوها، وبخاصة بعد نجاحه عن طريق وكيله محمد أفندي رفعت في عقد الاتفاق مع شيخ البحرين عبد الله بن أحمد آل خليفة (١٩) .

★ ★ ★

سلطات البصرة وموقفها المضاد لنشاط قوات محمد علي في المنطقة :

منذ أن عاود محمد علي اهتمامه بشبه الجزيرة العربية بعامة ، ونجد وشرقي شبه الجزيرة بخاصة ، تحولت البصرة إلى مركز من مراكز المقاومة لهذا النشاط ، بحكم تبعيتها للدولة العثمانية ، التي أصبح محمد علي عدوها الأول ، ولذا فإنها استقبلت الثائرين ضد نظام محمد علي ، من الجند ، ومن القبائل العربية على السواء ، كما حدث مع تركجة بيلمز ، كما سبقت الإشارة ، كذلك تحولت إلى مركز اتصال بآل سعود ، حيث بدأت الدولة العثمانية تستخدم والي بغداد للتجسس على حركات محمد علي ، والعمل على مقاومتها فتذكر الوثائق أنه عندما وصل إسماعيل بك إلى نجد ، واستطاع التغلب على فيصل ، وأعلن

---

(١٧) دار الوثائق القومية ، محفظة (٢٦٧) عابدين ، المرفق العربى للوثيقة (١٣٧) صورة الجرنال المحضر من طرف محمد أفندى ، جرنال متضمن بيان الأحوال الصادرة من جهات مادة البحرين وغيرها .

(١٨) عثمان بن عبد الله بن بشر ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٢٢ ـ ٩٥ .

(١٩) دكتور عبد الحميد البطريق ، ص٥٣ .

أن خالد بن سعود ، هو أمير نجد من قبل محمد علي ، وتمكن فيصل من الهرب إلى الأحساء . كتب والي بغداد وبصرة علي باشا ، إلى الأمير فيصل ، يذكر له حيث أنه من المنتمين إلى الدولة العلية التي تود استقراره في بلاده واتصال خدمته للدولة ، لذا فإنه يجب عليه أن يحرر كتاباً عن حاله ، وعما صار بطرفه ، وهل في إمكان قواته أن ترد العدو وتمنعه ، وتدفعه أم لا ؟ وما هو الأسلوب الذي يناسب حاله ، وفيه تقويته ، ونجاح أموره ومصلحته . حتى يمكن تقديم المساعدة له التي تحقق مقاصده ، ومآربه بالكلية (٢٠) .

وكان هدف والي بغداد والبصرة من الوقوف على الوضع الفعلي لقوة فيصل ، أن يعمل كما هو واضح من كتابه . على التعاون مع فيصل على وضع خطة مضادة ضد قوات محمد ، وبالطبع فإن البصرة ستكون هي المركز الرئيسي لهذه الحركة المضادة .

علم خورشيد باشا باتصال علي باشا والي بغداد وبصرة بفيصل ، فأرسل إلى فيصل فيصل يخبره أن لديه معلومات عن الاتصالات التي تجرى بينه وبين علي باشا من جهة ، وبين عائض بن مرعي أمير عسير من جهة أخرى ، بهدف تنسيق الجهود ضد حكم محمد علي في شبه الجزيرة العربية .

جاء رد فيصل على خورشيد باشا ، نافياً لأي اتصال بينه وبين عائض بن مرعي ، ومؤكداً أن سبب الاتصال القائم بينه وبين علي باشا والي بغداد والبصرة ، يعود للخدمات السابقة التي أداها له علي باشا ، حينما صد عربان الشمال مثل بادية بني خالد وعربان الضفير ، وعربان المنتفق الذين كانوا يريدون الإغارة على أطراف بلاده الشرقية ، فكفهم عن هذا العمل ولم يمكنهم منه . وأرسل فيصل رفق رده على خورشيد الرسالة التي أرسلها له علي باشا ، حينما كان في ناحية الزبير والبصرة متجهاً إلى جهة السماوة لتأديب عربان ابن شلال والخزاعل (٢١) .

---

(٢٠) دار الوثائق القومية ، محفظة (٢٦٤) عابدين المرفق العربى (هـ) ، للوثيقة التركية رقم (٢٦١) حمراء ، من على باشا محافظ بغداد وبصرة الى الأمير فيصل بن تركى ، بتاريخ ٢٢ شعبان ١٢٥٣هـ/٢٠ نوفمبر سنة ١٨٣٧م ٠ انظر ملحق رقم (١) من ملاحق البحث ٠

(٢١) دار الوثائق القومية ، محفظة (٢٦٤) عابدين ، المرفقالعربى (ج) للوثيقة التركية (٢٦١) حمراء ، من فيصل بن تركى الى خورشيد باشا ، بتاريخ ١٩ محرم ١٢٥٤هـ/١٤ ابريل ١٨٣٨م ٠

وواضح من رد فيصل بن تركي على خورشيد باشا :

أولاً – إما أنه يتجاهل نوايا علي باشا وأهدافه ، من وراء مراسلته له . وهي نوايا وأهداف واضحة تمـــام الوضوح ، من عبارات خطاب علي باشا ، حيث أنه يريده أن يكون تابعاً للدولة العثمانية ، وأنها سوف تمده بما يحفظ له ملكه . في سبيل التعاون الثنائي للقضاء على نفوذ محمد علي وحكمه وإبعاده عن شبه الجزيرة العربية .

ثانياً – وإما أنه غير مدرك لحقائق الموقف المحيط به ، وهذا ما نستبعده ، وربما حاول فيصل أن يظهر بهذه الصورة . لأنه أدرك أن إمدادات علي باشا سوف لا تنجده ولا تستطيع الوقوف في وجه قوات خورشيد باشا ، لعلمه بسوء أحوال ولاية بغـــداد ، وتحرج موقف علي باشا داخلياً . ولذا فإننا نجده يهادن خورشيد باشا ، ويحاول إقناعه بأن هذا الاتصال تم بناءً على صداقة سابقة ، وليؤكد له أن ليس هناك من هدف عدائي ضده من وراء هذا الاتصال ، أرسل له خطاب علي باشا ليطلعه عليه .

وظل خورشيد باشا يجمع عن طريق أعوانه المعلومات عن البصرة وبغداد للاستفادة بها ساعة أن تصدر له الأوامر بغزو العراق ، ويجري الاتصالات مع الساخطين على سوء الحـــكم هناك وعلم علي باشا بهذه الاتصالات ، فاشتد اضطهاده لأهل العراق (٢٢) .

* * *

الموقف في البصرة بعـــد الاستيلاء على الأحســـاء :

حينما تمكنت قوات خورشيد باشا من التغلب على فيصل بن تركي ، وإلقاء القبض عليه ، ووصلت في زحفها إلى الأحساء ، كان لذلك تأثيره البالغ في البصرة حيث « شاع بين الناس أن خورشيد باشا يزحف على البصرة ، وأن عسكره وصل إلى الأحساء والكويت ، فطلب تركجة بيلمز من علي باشا الذي هو في الموصل ، أن يبعث له بوجه السرعة عسكراً وأسلحة وجبه خانه ، بقدر ما يكفي للمحافظة على البصرة » (٢٣) ، فعمل علي باشا على ترتيب

(٢٢) دكتور عبد الحميد البطريق ، المصدر السابق ، ص٥٥ .
(٢٣) دار الوثائق القومية ، محفظة (٢٦٧) عابدين ، وثيقة رقم (٧) من خورشيد باشا الى حاكم عام الحجاز ، مرفق تقرير محمود اغا المورة دى الذي جاء من البصرة . بتاريخ ٣ ربيع آخر سنة ١٢٥٥هـ / ١٦ يونية ١٨٣٩م . انظر ملحق رقم (٢) .

القوة اللازمة وإرسالها إلى تركجة بيلمز للمحافظة على البصرة والوقوف في وجه الغزو المرتقب .

ولكن يبدو أن سوء الوضع في ولاية بغداد والبصرة . جعل سكان العراق متشوقين إلى التغيير والانضواء تحت لواء حكم محمد علي ، فقد أفاد أعوان خورشيد باشا الذين كانوا يجمعون له المعلومات « وينشرون الدعاية لمحمد علي في العراق بين السكان الناقمين على الحكم العثماني » أفاد هؤلاء وعلى رأسهم الشيخ « حمود بن جسار » العالم النجدي الذي كان يعمل قاضياً في الزبير ، أن أهل البصرة بل والعراق جميعه « إذا تحقق لديهم أن خورشيد باشا قاصداً إلى البصرة ثم العراق ، فالجميع راغبون ومشتاقون إلى خدمة سعادة أفندينا محمد علي ، ونكون تحت أمر الله ثم أمره ، وله علينا القيام بخدمته فيما يعمدنا عليه»(٢٤)

ليس هذا فقط بل إن نقيب الأشراف بالبصرة ، عبد الرحمن أفندي ، واثنين من رجال الافتاء وبعض الأعيان ، أبدوا استعدادهم لتمهيد السبيل لخورشيد باشا ، وأنه إذا تحقق لهم أنه متوجه نحوهم لسلموا له البصرة بغير نزاع ، وكذلك فعل شيوخ ــ المنتفق حيث راسلوا خورشيد باشا وعرضوا عليه استعدادهم لمعاونته بفرسانهم (٢٥) ، كما أن كثيراً من شيوخ القبائل النازلة حول بغداد ، هربوا إلى نجد « وقابلوا خورشيد باشا وطلبوا إليه أن يسمح لهم بالإقامة في كنفه إلى أن يحين الوقت لمصاحبة قواته إلى العراق »(٢٦) ولم يكن هذا الموقف قصراً على الأهالي والعلماء والأعيان ، بل إن قوات البصرة ذاتها حدث فيها تمرد كذلك ، حيث قام بعض ضباطها وجنودها بالهرب من البصرة إلى الكويت فالأحساء فنجد حيث انضم هؤلاء إلى قوات خورشيد باشا . وقد ذكر محمود أغا المورة ، الذي كان رئيساً على أربعمائة عسكري سكباني أنه اتفق مع خمسمائة جندي من الألف جندي الموجودين بالبصرة على أن يعمل على هروبهم ، والتحاقهم بجيوش خورشيد باشا ، ومحاربتهم في صفوفها .

---

(٢٤) دار الوثائق القومية ، محفظة (٢٦٧) عابدين ، وثيقة (٤) حمراء ، ومرفقها العربى ، من خورشيد الى الباشمعاون جناب داورى ، بتاريخ غرة جمادى الثانية ١٢٥٥هـ/١٢ اغسطس ١٨٣٩م ، المرفق بتاريخ ٢٧ جمادى الاولى ١٢٥٥هـ/٨ اغسطس ١٨٣٩م ، انظر ملحق رقم (٣) .

(٢٥) مرفق الوثيقة السابقة بنود رقم ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ . انظر ملحق رقم (٣) .

(٢٦) دكتور عبد الحميد البطريق ، المصدر السابق ، ص٥٥ .

عملت سلطات البصرة على إعادة الهاربين وأجرت اتصالاً مع ابن صباح أمير الكويت ، تطلب منه إلقاء القبض عليهم ، وإعادتهم إلى البصرة ، ولكنه رفض هذا الطلب ، وأجاب بأنه غير قادر على إلقاء القبض عليهم وإجبارهم على العودة إلى البصرة ، بل إنه قدم العون للهاربين حيث أركبهم سفينة وصلوا بها إلى الأحساء ، ويذكر محمود أغا المورة أن بقية الجنود الذين اتفق معهم على الهروب ، أرسلوا إليه يطلبون منه أن يعين لهم مكاناً يخرجون إليه ، فأجل ذلك إلى حين أن يوافق خورشيد باشا على إلحاقهم بخدمة جيوشه ، ويعين لهم المرتبات ، وبعد أن عرض الأمر على خورشيد باشا ، عمل فوراً على قيد أسماء الجند الذين وصلوا فعلاً في الدفاتر من تاريخ وصولهم (١ ربيع الآخر ١٢٥٥ هـ - ١٤ يونيه ١٨٣٩ م)، وأعطاهم تعييناتهم ، وكتب إلى القاهرة يخبرها بأمر هؤلاء الجند ، والكيفية التي يجب أن يعاملوا بها ، وهل يعطي أمراً لمحمود أغا المورة أن يستدعي بقية الجنود المتمردين ، فصدرت الإرادة بأن القاهرة توافق على « ترتيباته » وعلى استدعاء العسكر الذين اتفق معهم (٢٧) » وإزاء هذا الموقف المتدهور في البصرة ، فإن علي باشا أصدر أوامره بإجراء تعديلات إدارية فيها، وعزل كل من تركجة بيلمز ومحمد أغا متسلم البصرة، وعين بدلهما ، مما كان له تأثير عكسي ، حيث أننا نجد أن تركجة الذي انتقل إلى بغداد ، بدأ يتصل بخورشيد باشا ويطلب منه العفو عما سلف منه ، وذكر الشيخ محمود بن جسار أنه « أقر على نفسه إذا عفا سعادة أفندينا عما مضى ،فإني خادم مملوك إلى الأبد نظير الذنب الذي تقدم فعله » (٢٨) . هكذا كان الموقف في البصرة خاصة، والعراق عامة، في أعقاب وصول قوات خورشيد باشا إلى منطقة الخليج ، كان مهيأ تماماً لتقبل قوات خورشيد باشا ، وضم البصرة بل والعراق جميعه إلى حكم محمد علي ، فماذا كان موقف محمد علي في تلك الفترة إزاء العراق ؟

* * *

خورشيد باشا يطلب الإذن له بغزو العراق :

بدأ محمد علي ، عقب سقوط الدرعية يتابع باهتمام أنباء العراق ، ويعمل عن طريق

(٢٧) دار الوثائق القومية ، محفظة (٢٦٧) عابدين ، وثيقة (٧) حمراء ، من خورشيد باشا الى صاحب الدولة ، بتاريخ ٣ ربيع الآخر ١٢٥٥هـ/١٦ يونية ١٨٣٩م · وكذلك تقرير محمود أغا المورة المرفق ، انظر ملحق رقم (٢) ·

(٢٨) صورة المرفق للوثيقة (٤) حمراء السابقة ، بند (٣) ، انظر ملحق رقم (٣) ·

جواسيسه على تجميع المعلومات الخاصة بولاية بغداد تمهيداً . لتحقيق مخططه في غزو العراق ، وحينما عاود اهتمامه في ثلاثينيات القرن التاسع بشبه الجزيرة العربية ، وتقدمت قواته نحو الخليج ، بدأت المخاوف تساور الحكومة البريطانية ، خشية أن تقوم قوات محمد علي بغزو العراق ، خاصة وأن ظروف ولاية بغداد في تلك الأونة كانت سيئة ، ولا تقوى على مقاومة قوات محمد علي ، وكانت الحكومة البريطانية تدرك أن استيلاءه على العراق يؤثر تأثيراً مباشراً على المصالح البريطانية في الهند . ويبدو أن محمد علي ، بدأ يتخوف من الإقدام على تنفيذ مشروع غزو العراق نتيجة للتحذيرات البريطانية ، التي كانت تتوالى عليه عن طريق المقيم البريطاني في الخليج ، والقنصل البريطاني في القاهرة . محذرة إياه بأن « حكومة جلالة الملكة لا تستطيع أن تتجاوز عن أية خطوة يتخذها لمد سلطانه نحو الخليج الفارسي (العربي) » ، أو بغداد،لأنها لاتستطيع أن تقف مكتوفة الأيدي ، إذا أقدم على هذه الخطوة »(٢٩) ،فجعلته هذه التحذيرات يتقاعس عن الاستجابة لإغراءات خورشيد باشا ، ونداءاته المتكررة بمنحه الإذن لغزو البصرة وبغداد ، بعد تحمسه الشديد لهذا الغزو في الفترة السابقة .

وكان خورشيد باشا ، بعد أن وصلت قواته إلى الأحساء والقطيف ، وتمت له السيطرة على هذه المناطق ، وعقد ــ عن طريق وكيله محمد أفندي رفعت ــ اتفاقاً مع أمير البحرين ، يعمل جاهداً على الإعداد لغزو العراق « وينتظر الأمر لتنفيذ المشروع » (٣٠) مصوراً لمحمد علي ، أن عيونه وأنصاره بالعراق ، سوف يجعلون حملته ناجحة ، مغرياً إياه بأن « العراق ملك عظيم يضاهي ملك مصر ، وهو كالحسام الجوهر الذي سقط في حفيرة ، فالتقاطه الآن واجب ، والشيء إذا صار وقته لا ينبغي تركه » (٣١) ، وذكر له أنه ليس في حاجة لتنفيذ المشروع إلا لبعض الفرسان يأتونه من طرف أحمد باشا يكن حاكم عام الحجاز ، « حتى تستكمل الحملة عدتها ، وعندئذ يغادر الحساء والقطيف متوجهاً بحملته نحو العراق » مؤكداً له أن الحملة سوف تكون بعيدة عن الأخطار ، أو الاعتراض من جانب الانجليز الذين كانوا يحذرونه من الاعتداء على سواحل الخليج ، ولذا فإنه ذكر أن

(٢٩) دكتور عبد الحميد البطريق ، المصدر السابق ، ص٥٨ .
(٣٠) نفسه ، ص٥٩ .
(٣١) دار الوثائق القومية ، محفظة (٢٦٧) عابدين ، وثيقة (٢٤) حمراء ، السابقة ، انظر ملحق رقم (٣) .

الحملة ستكون برية لا بحرية حيث أن « البر في يدنا ، والسير في البر أقرب وأسهل ولذلك فلن يكون هناك اعتداء على السواحل التي يهتمون بها » (٣٢) .

ولكن اغراءات ونداءات خورشيد باشا هذه ، جاءت في وقت كان الموقف الدولي فيه ، في غير صالح محمد علي ، فقد تأزم الموقف بالنسبة له ، وبدأت السياسة الدولية تتخذ موقفاً مضاداً لسياسته التوسعية ، وكانت بريطانيا ، رغم تعهداته المتكررة لها بعدم الاعتداء على مناطق نفوذها ، باتت تخشى سياسته التوسعية هذه ، فعملت على تحطيم ملكه ووضع حد لسياسته خاصة وأن كل تقارير ممثليها في الشرق أكدت لها طموح الباشا الذي لا يقف عند حد ، ولذا فإن إنذارات بلمرستون Palmerston توالت عليه وبلهجة شديدة محذرة إياه من عاقبة الاستمرار في سياسته التوسعية ، ثم حانت الفرصة لبريطانيا للقضاء على هذه المشروعات نهائياً ، حينما وصلت الأمور بينه وبين السلطان إلى ذروتها وتحولت إلى أزمة دولية بعد انتصار قواته في معركة نزيب ، وزحف هذه القوات نحو العاصمة العثمانية فتصدت له الدول الكبرى ، وأرغمته طبقاً لمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠م ، على سحب قواته من بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية .

وهنا أراد أن يسدل الستار على مشروع غزو العراق الذي كان خورشيد باشا يلح عليه ليصدر له الأمر بتنفيذه غير مدرك للتطورات الدولية المحيطة به فكتب له محمد علي قائلاً : « إن الوقت ليس وقت المصلحة التي تصورها ، وآمل فيها ، وأن أساس مهمته في الوقت الحاضر أن يهيء السبيل لسحب قواته ، تاركاً البلاد لخالد بن سعود بشرط أن يترك عدداً من الجند يكفونه ، ثم بعد ذلك يتوجه بقواته إلى مصر ، ويغلق باب المصروفات التي فتحت لمشروعاته » (٣٣) .

★ ★ ★

هكذا يستطيع الباحث من استقراء أحداث التاريخ السابقة والمتعلقة بدور البصرة في حركة هذه الأحداث ، أن البصرة كان لها ولا شك موقفها الواضح في هذه الأحداث ،

---

(٣٢) نفس الوثيقة ، دكتور عبد الحميد البطريق ، المصدر السابق ، ص٥٦ .
(٣٣) دار الوثائق القومية ، محفظة (٢٦٧) عابدين ، ارادة رقم (٢٧) ، من محمد على الى خورشيد بتاريخ ١٩ رمضان ١٢٥٥هـ/٢٦ نوفمبر ١٨٣٩م . وانظر : دكتور عبد الحميد البطريق ، المصدر السابق ، ص٦٠ .

خلال فترة حكم محمد علي في بعض مناطق شبه الجزيرة العربية فقد كانت البصرة حيناً مركزاً مناهضاً لهذا الحكم ، حينما كانت ترى في هذا الحكم خطراً على كيانها ، ولكن عندما رأى أهل البصرة سوء الوضع الذي تتردى فيه ولاية بغداد والأخطار التي تتهددها ، أصبحت تتطلع إلى الانضمام إلى حكم محمد علي وتطلعت كذلك إلى وصول قواته إليها لإنقاذها من الظروف التي أصبحت تعيشها .

كذلك يستطيع الباحث من استقراء وثائق العصر أن يدرك مدى اهتمام محمد علي ورجاله بالبصرة وبغداد ومخططه الواضح لغزو البصرة بل وكل العراق ، ورغم هذا الاهتمام فإنه لم يستطع أن ينفذ مشروعه هذا ، لوقوف بريطانيا في وجه هذا المشروع من جانب ، وإلى الموقف الدولي الذي أصبح يحيط بسياسة محمد علي التوسعية من جانب آخر ، لكل هذا فإن محمد على لم يستطيع أن يحقق أحلامه في الاستيلاء على البصرة حتى إنتهاء فترة وجوده في شبه الجزيرة العربية ، وسحب قواته منها ، وإغلاق باب مشروعاته هذا ، تاركاً البصرة تواصل مسيرتها .

* * *

ملحـــق رقـــم (١)

محفظة ٢٦٤ عـــابدين

صورة المرفق العربي (هـ) للوثيقة التركيـــة رقم ٢٦١ حمـــراء
المـــؤرخ ٢٢ شعبان سنة ١٢٥٣ هـ / ٢٠ نوفمبر ١٨٣٧ م

مـــن : علي محافـــظ بغـــداد وبصرة إلى الأمـــير فيصـــل التركـــي

السلام التام بالعز والإكرام ، إلى قدوة ذوي الحسب ، وزبدة أمراء العرب الأرشد الإكرام : الأمير فيصل التركي ساعده الله تعالى وأعانه وأكرمه ولا أهانه أما بعـــد : والباعث لتحرير الكتاب هو أنه قد مضت مدة من الزمان وبرهة من الآوان ما وردنا منك كتاب ولا وفدنا من طرفك خطاب ، عن حالك وكيفية أحوالك ، غير أنه قد بلغنا الخبر من الأفواه عن وقوع عزلك وممشا خالد السعود عليك ، ومنازعته معك ، ودخوله أرض الرياض التي بيديك ، ولا أخبرتنا عما جرا بينك وبينه وكيف آل أمرك معه فالله تعالى يعاونك ويساعدك على من عاداك ويظفرك بمن ناواك وحيث أنك من المنتمين لجانب الدولة العلية ومجزوم صدق الخدمة لطرف السدة السنية وخلوص صداقتك إلينا ثابتة لدينا ، فلم نزل نستفسر عنك ، على البعاد ، ونـــود تقويتك واستقرارك في تلك البلاد ، ونحب اتصال خدمتك لطرف الدولة العلية مدى الآبـــاد وإننا نكره المزاحمة لك على الديار ، ولا يهون علينا ما يصيبك من الضرر والأكدار ، فعاد ينبغي أن تحرر لنا كتاباً عن حالك ، وعما صار بطرفك وجرا لك مع المومى إليه خـــالد ، والذي معه ، وإن كان تعرف حزبك ضعيفاً ولم تطق لرد العدو ومنعه ، ولم تقدر على كفه ودفعه فيكون يفيدنا عن ما يناسب لحالك ، وفيه تقويتك ونجاح أُمورك ومصلحتك ، وتجزم بحقك الطـــاف الدولة العلية ، وزيادة مودتنا لك ، وإن شاء الله تعالى فما يتصور القصور عن مساعدة مقاصدك ومساعفة مآربك بالكلية ، ولاجـــل إفادة الحال حررنا الكتاب وأرسلناه بمنه تعـــالى ، لدى وصوله إليك ووفوده إليك ينبغي أن تزيد الاهتمام على ما ذكرنا ، ولا تقاطعنا الأخبار والاعـــلام على الدوام ، وخص نفسك منا بالسلام .

امضاء / **علي محافظ بغـــداد وبصرة**

ملحـــق رقــم (٢)
محفظة (٢٦٧) عـــابدين نمرة ٧ حمـــراء

من خورشــيد باشــا إلى صاحب الدولــــة

ســيدي سني الهمم صاحب الدولـة والعاطفـة

إن الرجـل المدعـو محمـود أغا المورة دي من العسكر الموجودة في البصرة التابعين لحضرة علي باشا والي بغداد،ركب فلكا في هذه المـدة هو وسبعون جندياً سكباني،وقام من البصرة حتى وصل إلى الكويت ، ومنها أركبه ابن صباح أمير الكويت هو والملازم محمد أفندي الموجود في الكويت من طرفي لاشتراء الغلال في زورق وأرسل إلى الأحساء ومنها إلى ومعه خمسة وستون جندياً مع قافلة الغلال الواردة أخيراً وبقي خمسة من جنوده في الأحساء فقيدنا أسماءهم في الدفتر إعتباراً من أول ربيع الآخر وأعطيناهم تعييناتهم (الميرة المخصصة لهم) وخيماً ومقداراً من النقود ، وأرسلنا لكم كشفاً بأسمائهم وأسماء بلادهم ضمن كتابنا هذا،وتقريراً من محمود أغا المورة دي المذكور،ومن إطلاعكم عليه تعلمون أنه قال فيه أنه اتفق هو وخمسماية جندي من الموجودين في البصرة،ومتى ما صدر له الأمر فإنه يرسل مندوباً عنه ويأتي بهم،فما هي المعاملة التي يلزم أن نعامله بها،وهل نعطيه رخصة ليأتي بأولئك العسكر أم لا،حسب ما قال وبما أن هذه الأمور منوطة بإرادة حضرة ولي النعم فإذا علمتم ذلك بإذن الله تعالى تعرضونه على اعتابه وإفادتنا بما تصدر به إرادته منوطة بهمة دولتكم سيدي .

مرسل في ٣ ربيع الآخـــر ١٢٥٥ / ١٦ يونيـة ١٨٣٩ م
وصـل في ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٢٥٥ / ٦ يوليه ١٨٣٩ م

ميرميران خورشــيد

★ ★ ★

محفظة (٢٦٧) عـــابدين

تابع الخطاب المرسل من خورشيد باشا سر عسكر نجد رقم ٧ المؤرخ في ٣ ربيع الآخر سنة ١٢٥٥هـ/١٦ يونية ١٨٣٩م

ذيـــــل سـيدي

لقد رتبنا للأغا المرقوم الآن نصف التعيينات المرتبة لرؤساء العسكر السكبانية وسيصرف له ذلك على هذا المنوال إلى أن تصدر الإرادة .

هذا ما دعا إلي المبـــادرة بكتابة هذه الحاشية سيدي

(خورشـــيد)

إرادة مذيـــلة رقم ١٧

كتب له أن الإرادة توافق على إعطائه نصف تعيين وعلى استدعاء العسكر الذين اتفق معهم وعلى أن يرتب له تعيين وتذاكر حسب أمثال رؤساء البيادة عند إكمال نصابه أربعماية جندي وأنه يلزم أن يخبر الخزانة بذلك .

في ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٢٥٥ / ١٠ يوليه ١٨٣٩ م

★ ★ ★

محفظة(٢٦٧) عـــابدين

ورقـــة (١)

تابع الخطاب الوارد من خورشيد باشا سر عسكر نجد المؤرخ في ٣ ربيع الآخر سنة ١٢٥٥هـ/ ١٦ يونيه ١٨٣٩م ، رقم « ٧ »

تقـــرير محمـود أغـا المـورة دي الذي جـاء من البصرة :

إنني عبدكم لما كنت قبلاً في بغداد، كنت رئيساً على أربعمائة عسكري سكباني ،وكان يوجد في تلك الأيام سبعة رؤساء غيري أيضاً،وقد مكثنا مدة،ثم إن حضرة علي باشا والي بغداد قطع مرتباتنا كلنا لعجزه عن الادارة،وبما أنه كان مرتباً لي وللرؤساء الآخرين ماهيات فقد صدر لنا الأمر بأن نقيم في بغداد بلا عسكر،فأقمنا،فلما حصلت ثورة بعد مدة في الموصل،وطلب إليَّ علي باشا المشار إليه،أن يذهب لإخمادها،فترك في بغداد مقداراً من

العسكر للمحافظة عليها من الفرسان الترك والايين من البيادة، وأخذ بقية العسكر وذهب بهم إلى الموصل، وفي ذلك الوقت كان تركجة بيلمز (اسم رجل) سر عسكراً وقبودان باشا حاكماً على البر والبحر على السفن الموجودة في البصرة، فلما وصل الخبر إلى البصرة وبغداد، أن حضرة خورشيد باشا المأمور (سر عسكر) على نجد، قبض على فيصل بن تركي، واستولى على جميع أنحـــاء نجد، شاع بين الناس أن خورشيد باشا يزحف على البصرة وأن عسكره وصل إلى الأحساء والكويت، فطلب تركجة بيلمز من علي باشا الذي هو في الموصل، أن يبعث له بوجه السرعة عسكراً وأسلحة وجبه خانه، بقدر ما يكفي للمحافظة على البصرة، فصدرت الارادة منه لي ولرئيس آخر اسمه صاري كوله بترتيب أربعماية جندي في معية صاري كوله، وإلحاق الأربعمائة عسكري سكبان الموجودة في البصرة من قبل بمعيّتي، وأن يصير إرسالنا بسرعة، وكان الأمر كذلك فبعث بنا إلى البصرة، فبعد ما وصلنا إليها وأقمنا فيها قليلاً، عزل تركجة بيلمـــز .

★ ★ ★

ورقـــة (٢)

وعزل محمد أغا متسلم البصرة، ونصب بدلاً عنهما سليمان أفندي أخو عبد القادر أغا مكاس (جمركجي) بغداد فجاء للبصرة ومعه مائتي جندي فعلمت أنه لا يريد أن يجعلني رئيس عسكر مستقلاً بل يريد أن يلحقني بمعية صاري كوله وأن تكون العسكر الذين هم في معيّتي في معية سليمان أفندي، فلم ترق لي هذه الكيفية، ربما أنني منذ القديم وأمل أن أكون مشرفاً ومفتخراً بالخدمة المصرية الموجبة للفخر فقد عملت على قطع خرجي واتفقت مع نحو خمسماية جندي من أصل ألف جندي المار ذكرها الموجودة في البصرة على أن نلتحق بمعية حضرة خورشيد باشا فشاع هذا الأمر فمنعوا من أجله إعطاء تذاكر وسفن فلم يكن بالإمكان أن نأتي بذلك المقدار من العسكر فاستدعيت بوجه السرعة سبعين جندياً وركبنا الفلك بالكره عنهم وتوجهنا إلى الكويت وصعدنا إليها وجئت عند محمد أفندي مأمور اشتراء الغلال في الكويت من قبل حضرة خورشيد باشا وبينما كان (محمد أفندي) ناوياً الإقامة في الكويت بضعة أيام جاء خطاب مع رجل مخصوص من البصرة لابن صباح أمير الكويت بطلب القبض علينا وإعادتنا إلى البصرة فلم يعبأ ابن صباح بذلك الكتاب

وأجاب بأنه غير قادر على القبض علينا وإرسالنا بالإجبار ثم إن الأمير المرقوم أركبني أنا ومحمد أفندي والعسكر الذين معنا سفينة فوصلنا إلى الأحساء فصعدنا إليها ومنها جئنا إلى ثرمدة مع قافلة الغلال المرسلة إلى خورشيد باشا من طرف محمد أغا الفاخري رئيس المغاربة مأمور الأحساء وبعدما جرت بنا السفينة من البصرة بثلاث ساعات أو أربع جاءنا خبر من أولئك العسكر الذين اتفقنا معهم يسألوننا أن نعين لهم محلاً يخرجون إليه وقالوا لنا إذا قبلنا أن نكون في الخدمة المصرية فلنبعث لهم علماً بذلك فإذا أمرتم نبعث من طرفنا رجلاً مخصوصاً يأتي بهم بصورة ملائمة وهذا ما نعرضه .

★ ★ ★

ملحـــق رقـــم (٣)

محفظـــة (٢٦٧) عـــابدين

صورة الوثيقـــة العربية رقم (٤) حمـــراء بتاريخ غـــرة جمادى الثانيـة سنة (١٢٥٥ هـ / ١٢ أغسطس ١٨٣٩ م)

مـــن : محمد خورشيد إلى باشمعاون جناب داورى

دولتلو عاطفتلوسني الهمم سعادة باشمعاون جنـــاب داورى المفخم دام بقاه

المبدو لسعادتكم أنه بتاريخ ٢٧ شهره ورد لطرفنا من نواحي بغداد الشيخ حمود بن جسار من العلماء الأفاضل ، وما عنده من الأجوبة والأخبار فإنه تحرر بهم جرنال وهو قادم لسعادتكم مع عبد همان مخصوص خشية من عدم الوصول ، ثم إنه في مدة سنة ونحن نستجلب أسرار تلك النواحي وتحضر إلينا الأخبار زيادة عنما هو موضح بالجرنال وهذا الشيء ظاهر ومعايننيه ، فالمرجو من عالى همتكم إعراض ذلك على المسامع الكريمة ويصير جميع ما ذكرناه محيطاً بعلم الشريف حرفاً بحرف فإذا اقتضت الارادة السنية بالتوجه إلى ذاك الأطراف فبعناية مولانا الكريم وبنفوس سعادة الخديوي الأكرم لا يحصل إلا الخير وبلوغ المرام خصوصاً بهذا الفتح والنصر العميم الذي صار لسعادة سر عسكر باشا ولا يخفاكم أن هذا ملكاً عظيماً يضاهي ملك مصر وهو الآن كالحسام الجوهر الذي سقط في حفير فبحسب ظني أن أخذه واجب غير أنه يلزم الاستحراص والقوة ولو أن ما بلغنا صحيح

ولكن لاتخلو الديار، ولو أن الأهالي مطيعين، فالأطراف أجناس مختلفين، ومن حيث ذلك فلأجل إظهار القوة يقتضي الحال بمقدار ألفين خيال وعساكر جهادية وأكم ألف كيس بحسب اللوازمات لأن الدراهم فهي عين القوة، أولاً في أجر الرجل لمشال العساكر والمهمات والذخائر التي يأخذوها معهم كذلك أن كثرة الذخائر فلا يلزم مشالها بل أنه مع وجود الدراهم فيشتري الذخائر اللازمة من ذاك الأطراف، أولاً: بأبخس ثمن، ثانياً: يصير به توفير أجر مشاله . وأما من خصوص العساكر فكما تعلم أنه الآن لا يوجد بطرف سعادتكم عساكر كما بلغنا فإذا كان يتحسن ويرى موافق سعادة ولي النعم بإرسال مأمورين لتشهيل العساكر إلى طرفنا من محلاتها لأنه إذا كان بموجب أوامر فلا يتحصل تشهيل الأمن بعد مدة مديدة تنوف عن ثمانية أو تسعة شهور، مع أن هذا وقته، وبملاحظتنا أن الشيء إذا صار وقته فلا ينبغي تركه خصوصاً مثل هذا، ثم أنه إذا أرسل أحد المأمورين لجهة الحربية، وينقص العساكر الجهادية ولابد أن يظهر من الثلاثة الآلايات آلاي أو آلاي ونصف كذلك الخيالة يصير نقصهم والجميع يصير تشهيلهم وحضورهم لطرفنا فإذا لوحظ أنه يصير عطل بذلك الطرف فلا خافي سعادتكم أن العساكر بجهة الحربية فلا يكن بها نفع ولا نتج منهم فائدة بمقتضى ما صار وبما نحن ملاحظين وربما أن يكون ورد لسعادتكم صحة الأخبار فإذا كان الأمر كما ذكر فيصير تلك الأطراف أبدي في كل شيء، الثاني: أنه يرسل مأمور لسعادته سر عسكر الأقطار الحجازية، يشهل جانب من العساكر الخيالة والقرابة من الأتراك والمغاربة وغيرهم بحسب الإمكان، وإن شاء الله تعالى في مدة شهرين ثلاثة، يكون التوجه إلى الحسا والقطيف ومنهم إلى ذاك الأطراف . وأما من خصوص الدراهم فيرسل اكم ألف كيس من المحروسة، إما في مركب الدخان أو على هجن، إنما إذا صارت الدراهم بزيادة فبحسب عشمنا أنه أقوى ولا يخفى سعادتكم أنه لو يصرف على هذا الملك خمسين ألف كيس أو زيادة فلا هو كثير بل إنه أبدي من غيره والذي علينا أننا نجتهد دائماً حتى روحنا تفارق الجسد، وذلك من أجل حصول المرام لم هو كثير بل يستحق زيادة عن ذلك ومنفعة تلك الأطراف، فلا يخفى على سعادتكم والذي بعشمنا أن سعادة أفندينا ولي النعم، يرغب لمثل هذا الأمر، فإذا عزم وتوكل سعادة الخديوي نرجو سرعة الإفادة، لأجل أنه يصير المبادرة فيما هو لازم، كذلك تعرضوا للاعتاب الكريمة بإصدار أمره الشريف لسعادة سر عسكر باشا أن يلاحظنا بنظره، وإذا لزم إلينا جانب عساكر ونعرض في شأنها لسعادته فيرسلها

لطرفنا في قوف الشط ، كذلك من خصوص الانكليز ، فإنه إذا صار معهم مكالمة عن الموجودين بالمحروسة . وأما الذي بهذه الجهات فلا لنا عليهم تعدي كون أن البر في يدنا وممشانا في البر فهو أقرب وأسهل وبحول الله تعالى ونفوس صاحب السعادة أدام الله إجلاله تتحصل وينال مقصوده غير أن المرجو أن يكون التعجيل والمبادرة والأمر مفوض لله ثم لصاحب الأمر وما تقتضيه إرادته فنحن ممتثلين وتحت الأمر .

غرة جمادى الثانية سنة ١٢٥٥هـ/١٢ أغسطس ١٨٣٩م

ميرميران : خورشيد باشا
سر عسكر
محمد خورشيد

محفظة (٢٦٧) عابدين

صورة الوثيقة العربية المرفقة للوثيقة رقم (٤) حمراء بتاريخ ٢٧ جمادى الأولى (سنة ١٢٥٥ هـ / ٨ أغسطس ١٨٣٩ م

أنه في يوم الثلاث المبارك ٢٧ سبعة وعشرون خلت من شهر جمادى الأول سنة ١٢٥٥ قد ورد إلى طرفنا جناب حضرة الشيخ حمود بن جسار من علماء الإسلام أصله من أهالي نجد ، وكان في السابق قاضياً بالزبير وكان له معنا صداقة قديمة بمدة إقامتنا بمحافظة مكة المشرفة وتوجه إلى جهة بغداد من مدة زمان فلما بلغه أننا قاصدين تلك الأقاليم أرسل إلينا كتاباً بمدة إقامتنا بعنيزة ومنها قد صارت المكاتبة باخبارية تلك النواحي بيننا وبينه والآن وصل إلينا بجوابات ومكالمات من نواحي بغداد والبصرة والمنتفق والزبير بوصايا من أشخاص معتمدين .

بند أول بخصوص بغداد

سأل من الشيخ حمود بن جسار بخصوص علي باشا والتوصية التي هي عن لسانه شفاها من أكابر واعيان بغداد وحوادث وأخبار تلك الأطراف .

بنـــد ثـــاني (أ)

جـواب الشيخ المومى إليه الأول بخصوص علي باشا فإنه بتاريخ ٢٥ صفر سنة ١٢٥٥ قد وكل بغـداد فريق باشا وملاعلي وهو توجه إلى الموصل بينه وبين بغـداد مقدار إثنى عشر يوم ومعه من العساكر مقدار سبعة آلاف من الجهـادية وغيرهم ، فلما أنه وصل إلى جهة الموصل تفرق منهم ألفين بنواحي العراق وتبقى معه خمسة آلاف من الجهادية وغيرهم وكان وصوله في ثاني من ربيع الأول وحصل بينه وبين أهل الموصل وقعة فقتل من أعيانهم اثنـان وسبعون شخصاً وسرحن من العلماء . سبعة إلى نواحي البصرة من دون ذنب غير أنـه يخبر على أنهم كاتبوا سـعادة أفندينا إبراهيم باشا ومبغضين إلينا وذلك لمسألة ظناً منه ثم أنه أراد التوجـه إلى حافظ باشا فعند ذلك وردت إليه كتب من حافظ باشا يفيـده على أنه انكسر هو وعساكره وصارت النصرة لسعادة أفندينا إبراهيم باشا وعساكره فمكث بمكانه ينظر ماذا يفعل الله به لكونه خايف من أهل بغـداد غاية ونهاية حيث أنهم مع الاطلاق لا يألفـونه وأكثر خوفه من هذه الجهات والآن ببغداد مقدار عساكر من الجهـادية وغيرهم لمحافظـة البـلدان ولا نعـلم هل علي باشا رجع إلى بغـداد بعساكره أم لا .

البنـــد الثـــاني (ب)

بخصوص توصية بكوري بك ومحمود أفندي مفتي الأحناف والشيخ سليمان بن غنـام ضـابط على العساكر الذين هم من أهالي نجد . ومقيمين ببغداد وهم ينوفوا عن ألفـين نفـر وجما غفـيراً ببغداد وجملة أعيان من أهالي بغداد صغار وكبار يخبروا سعادتكم أنه إذا تحقق عندهم على أنكم قاصدين البصرة وتلك الأطراف فنحن الجميع راغبين ومشتاقين إلى خدمة سـعادة أفندينا محمد علي باشا ونكون تحت أمـر الله ثم أمـره وله علينا القيـام بخدمته فيما يعتمدنا عليه .

البنـــد الثالث

من خصوص محمـــد أغا تركي بلماز فإنه مقيماً ببغـداد منتظر جـواب من سعادتكم بالأمـان والعفـو عن ما سلف واقـر على نفسه إذا عفى سعادة أفندينا عن ما مضى .فإني خـادم مملوك إلى الأبـــد نظير الذنب الذي تقـــدم فعله .

البنـــد الرابـع

من خصوص حوادث وأخبار بغداد فإنهم جميعاً متيقنين بحضور سعادتكم إليهم ومستبشرين بذلك وكارهين ما عندهم وبهذا الاسنى ونحن مقيمين ببغداد وردت إلينا أخبار وشاعت عند الخاص والعام بأن سعادة أفندينا خورشيد باشا وصل إلى البصرة فعند ذلك ذلك أقاموا جملة من الأعيان وعرفها أننا نتوجه لمقابلة سعادتكم ونأخذ لهم أمان ، وعلى أنهم سامعين ومطيعين فلما اهتموا بتحرير الأجوبة لسعادتكم وردت إليهم الأخبار ثانياً على أن سعادتكم بالأقاليم النجدية وبعدد الأوقات يطلبون الله تعالى بنصره سعادة أفندينا محمد علي باشا وتحقق عندنا أنه ما يكن لسعادتكم عدو ولا معاند بذاك الأطراف كلها .

البنـــد الخامس

من خصوص أخبار وكيفية البصرة فإن عبد الرحمن أفندي نقيب الأشراف ومحمد أفندي وعبد الودود أفندي مفتين الشوافع وباش أعيان البصرة الجميع أخبرونا أنه إذا تحقق عندنا أن سعادة أفندينا خورشيد باشا متوجه لطرفنا نسلم له البصرة بغير نزاع ، وأما البصرة فلا فيها عساكر سوى سرخوش معه مقدار عساكر أتراك .

البنـــد السادس

من خصوص المنتفق فإنه اجتمع عيسى شيخ المنتفق وفيصل التامر ولد عم وسلطان بن شويط وعرفونا أنه لا نقدر نسعى لنا طارش ولا نكاتب سعادة أفندينا خورشيد باشا نخشى من الضرر علينا وعلى أملاكنا ولكن إذا تحقق أنه قادم إلى هذا الطرف وثبت عندنا أنه متوجه إلى محروسة البصرة فنحن خدام ومطيعين لأمره واقفين في خدمته وقد أعطونا جوابين إلى سعادتكم وكذلك جواب أرسلوه إلينا سابقاً بمدة إقامتنا ببغداد على منوال هذه التضحية وعرفونا شفاها بهذه الوصية وهم يريدون أمانا على أموالهم وأملاكهم ويكونوا على خدمتهم المعتادة ومطلوبهم الأمان من سعادتكم ويذكر به أن الشيخ عيسى هو شيخ المنتفق ويكون هو وفيصل وسلطان ابن سويط على ما هم عليه كما أنه صاير من مدة جدودهم وعرفونا أنه إذا حضر لنا الأمان بهذا الشرط فنحن نجهد بأموالنا وحلالنا ولله الحمد والمنة موجود

عندنا من الخيالة ما ينوف عن اثنى عشر ألف خيال فكلما يريده فنحن في خدمته وتحت السمع والطاعة هذه وصية المشايخ المذكورين أعلاه .

البند السابع

عن صورة الجوابات :

أولاً – صورة الجوابين المحضرين من شيوخ المنتفق إلى سعادة سر عسكر نجد جواب من فيصل وعيسى تاريخه ٩ ربيع الثاني سنة ٥٥ مضمونه أنه طرقنا من أخباركم أنكم تريدون هذا الطرف الله يحييكم ويجعل عاقبة الأمر إلى خير ، وقد اقتضى الحال أن نراسل جنابكم على مقتضى إرادتكم وما أشرتم إلى حال أو أسى فنحن نتشرف بذلك وجناب الشيخ حمود له اطلاع على إيرادتنا وتذاكرنا نحن وإياه بمقتضاها وارادة غيرنا وفي رأيه البركة ، وأما من طرفنا نحن فعلى ما أملتم وزيادة ودم بعون الله مؤيداً منصوراً .

جواب من الشيخ عيسى شيخ المنتفق بتاريخ ٩ ربيع الثاني سنة ١٢٥٥ مضمونه بينما نترقب أخباركم السارة وآثاركم الدارة إذ في ابرك الساعات وأشرف الأوقات ورد إلينا شقة جناب الشيخ حمود بن جسار وإذا فيها ما يقر الناظر ويبهج الخاطر لاسيما أخباركم الشريفة وإنكم تريدون القدوم إلى هذا الظرف ، وهو إن شاء الله تعالى أسهل ما يكون ولكن جنابكم يعلم أنه لكل مقام مقال ولا كل ما يعلم يقال وجناب الشيخ المومى إليه له إطلاع على جميع أحوالنا وقد أخبأنا الخبر عن غيره ، وكلفنا جنابه أن يذاكرهم في أحوال هذا الطرف على ما يقتضيه رأيكم ، وإذا هممتم بالقدوم فاتحفونا بالخبر لكي يصير لدى محبكم معلوم . ودم بعون الله مؤيداً منصوراً .

الثـاني :

صورة الجواب الوارد إلى جناب الشيخ حمود بن جسار من حضرة الشيخ عيسى شيخ المنتفق مؤرخاً في ٢ محرم سنة ١٢٥٥ مضمونه أنه ورد إلينا بأبرك الساعات ، عزيز كتابكم وبه عرفتونا من خصوص الإقبال والنصرة التي صارت لسعادة أفندينا خورشيد باشا أيده الله تعالى وأسر الخاطر ورودها نحمد الله تعالى على صحة خاطركم وطيبكم . وما

ذكرتوه صار معلوم وعسى إن شاء الله تعالى تكون واسطة خير بيننا وبين سعادة أفندينا خورشيد باشا وعسانا ما نعد من ولا يخلينا الله منك ومن طرف الرابطة التي ذكرها جنابك بأنك مستنهى نوع تصليح بعض أمورنا مع سعادة أفندينا المشار إليه لجزاك الله خيراً أنت وكيلاً مفوض من طرفنا والذي يقتضيه رأيك هو المبارك .

البند الثامن

من خصوص كيفية أخبار الزبير وهي بين الكويت والبصرة مخصصة لأهالي نجد لأجل أنه صار بيانها من مدة السامور فكان الذي لم يقبل دين الوهابي فسيتوجه ويمكث بالزبير ولذلك أكثر أهالي الزبير مو جود لهم أقارب وعيال بنجد والزبير ودايم الأوقات واردين ومترددين لتلك الأطراف فالذي يفيد سعادتكم بها أن جميع أعيانها كالحاج عبد الله الفداخ فإنه يمتلك على ثلاثة لكون فرانه من دون أملاكه وهي تقوم بخمسة لكون فرانه ، ويذكر لنا أنه خادماً لسعادتكم ومهما اردتوه فإنه يتشرف بقضائه وباقي أعيانهم اخبرونا مثل ما ذكر لنا عبد الله ابن جمعان وباقي العلماء وتلاميذهم فإنهم جميعاً عاهدونا على السمع والطاعة في خدمة سعادتكم وهم بأناء الليل وأطراف النهار يسألون الله تعالى أن يهييء لسعادتكم القدوم إلى محروسة البصرة .

البند التاسع

سأل من حضرة الشيخ حمود بن جسار أن ما ذكرتوه صار لدينا معلوم وكما نعلم أنه صحيح لداعي الصداقة التي هي بيننا وبينكم من سابق ، غير أن هل يدرك بأن نرسل من طرفك جوابات وتحضر منهم أوراق بأختامهم سراً بما هو مذكور أعلاه ليكون سنداً عليهم أم لا يقتضي الإفادة .

البنـــد العــاشر

جواب الشيـخ حمـود بن جسار أنه إذا صـدر لسعادتكم أمر كريم بالتوجـه إلى هؤلاء الأطراف فلـكم علينا أننا نرسل إليهم من طرفنا جوابات بالواقعة ويحضر منهم أوراقاً بأختام الجميع سنداً عليهم . وربما أن بعضهم يقبل ويواجه سعادتكم ، وبحـول الله تعالى أن ذلك أسـهل ما يكون لما نحن معاينين منهم ظاهراً وباطناً وطـال الله بقاكم .

٢٧ جمادى الأولى ١٢٥٥ هـ ـ ٨ أغسطس ١٨٣٩ م .

حمــود بن جســار
عفى عنــه
حمــود بن جســار

قــد تحرر هذا الجرنال المحتوي من أجوبة وأخبار الجهات المحــررة به .
لاجل اعراضـه على المسامع الكريمـة سعادة ولي النعـم أدام الله إجــلاله ،
٢٧ جمادى الأول سنة ١٢٥٥ ـ ٨ أغسطس ١٨٣٩ م .

(من ثرمـــــدة)

ميرميران
عسكر نجــد
خورشيد

* * *

الموضوعية في أبحاث علم الاجتماع

الدكتور
غسان زكي بدر
أستاذ مساعد بقسم الاجتماع
والخدمة الاجتماعية

١ ــ أهميــة الموضوعية في الدراسات العلميــة :

من معايير الجماعة العلمية ضرورة الالتزام بالموضوعية في البحث العلمي . ويقصد بالموضوعية البعد عن الذاتية (التحيز لرأي ذاتي ساذج أو رأي جماعي جاهز يوفر مكانة مميزة للباحث بين أفراد هذه الجماعة رغم أن الرأي ليس له سند من الواقع) والبعد عن التوجيه الأيديولوجي (الارتباط بنسق فكري متكامل يعتقد أنه الموصل إلى الحقيقة) والبعد عن الحكم القيمي (يقول أن ما يصل إليه من حقيقة ضار أو نافع) في دراسة الظاهرة ،أي الفصل بين العلم والتطبيق أو الفصل بين البحث العلمي والتوجيهات المرتبطة بالتطبيق بالمعنى الواسع لهذه الكلمة .

ولقد أثيرت المناقشات بين العلماء حول فصل العلم عن التطبيق في الدراسات الاجتماعية وبصورة خاصة في علم الاجتماع منذ اوجيست كونت . إلا أنها أصبحت موضوعاً للدراسة منذ أن طرح ماكس فيبر في خلافه مع أعضاء جمعية السياسة الاجتماعية عام ١٩٠٤ ضرورة خلو البحث العلمي من الأحكام القيمية ، وهو الخلاف الذي عرف في حينه باسم مساجلات حكم القيمة . فلقد كان من رأي فيبر كما لخصه رالف دارندورف (١٩٦١) إن العلم الاجتماعي بطبيعة دراساته الامبيريقية يتناول الأحكام القيمية للأفراد في علاقاتهم مع بعضهم البعض بالدراسة . ولكن ليس من حق الباحث في العلم الاجتماعي أن يصدر هو أيضاً أحكاماً قيمية على ما يدرسه من أحكام قيمية للآخرين وكأنه واحد منهم فيدخل نفسه كموضوع فيما يدرسه ، فيقول لنا بأن هذا السلوك أو ذاك وأن هذه الظاهرة أو تلك

صحيحة أو معتلة ويجب تقويمها أو المحافظة عليها أو تطويرها . ولقد وقف فيبر وقلة من أعضاء جمعية السياسة الاجتماعية في وجه باقي أعضاء الجمعية ممن كان رأيهم أن الباحث عليه أن يتدخل برأيه فيما يدرسه من ظواهر فيوجهها في مستقبلها ويكون من الأسباب المؤثرة عليها مستقبلاً . ولقد كان الموضوع من الأهمية في ذلك الوقت لدرجة أن فيبر ومؤيديه انفصلوا عن جمعية السياسة الاجتماعية واقتصروا ابتداء من عام ١٩١٢ في عضويتهم على جمعية علم الاجتماع الألمانية (أنشئت عام ١٩١٠) لممارسة الدراسة العلمية الموضوعية التي لا تربط بين العلم الاجتماعي والتطبيق ، وهو ما كان يريده الآخرون من أن يكون العلم في خدمة أيديولوجية إصلاحية معينة أو سياسة تطبيقية معينة . ولقد كانت جمعية السياسة الاجتماعية في ذلك الوقت تضم المشتغلين بالعلوم الاجتماعية عموماً وعلماء علم الاقتصاد بصورة خاصة ، وترى في السياسة الاجتماعية إتجاها للتوجيه الإنساني والاجتماعي للعملية الاقتصادية في إطار من مبادىء الاشتراكية الأكاديمية التي لا تمانع في وجود الاقتصاد الحر ولكن في الوقت نفسه تعمل على ضرورة تدخل الدولة في الاقتصاد كلما دعت الحاجة إلى ذلك . ومع أن فيبر يؤيد هذا الاتجاه الأيديولوجي في السياسة الاصلاحية إلا أنه رأى ضرورة فصل العلم عن السياسة التطبيقية حتى لا يختلط البحث العلمي بالعمل السياسي (أو إيديولوجية إصلاحية) مما يؤثر على دقة البحث العلمي . ويرى جيرهارد تسخا (١٩٧٦) أن فيبر لم يضع قانوناً للموضوعية في العلم الاجتماعي وإنما وضع مبدأ عبر عنه فيبر بما يلي « أن العلم الأمبيريقي لا يبغي أن يعلم أي إنسان : ما يجب أن يفعله ، وإنما ما يمكن أن يفعله ـ وفي بعض الأحيان ـ ما يريد كمتعامل أن يفعله » .

ومنذ ذلك الحين وعلاقة علم الاجتماع بأحكام القيمة للباحث (والتي تمثل الانتماءات الأيديولوجية جزءاً منها منذ أن أثارها شيلر ومنهايم في العلوم الاجتماعية منذ عشرينيات القرن الحالي) موضوع للاهتمام العلمي تتخذ مرة صورة علاقة علم الاجتماع بالتطبيق ، وتتخذ مرة صورة علاقة علم الاجتماع بالإيديولوجية عندما نسأل هل يمكن تحييد الباحث في البحث العلمي عن ذاتيته أو تشيعه الجماعي ؟ إذا كان من غير الممكن تحييد الباحث فما هو الضرر من أن يقول الباحث برأيه في توجيه الظاهرة خاصة وأن الواقع الاجتماعي واقع متغير يؤثر في توجيهه رأي الباحث حتى لو كان غير متحيز لمفيد أو ضار ، إذ أن مجرد

تأكيده على هذا الجانب دون سواه يؤثر على وعي رجال السياسة في إتخاذ قرارهم وتوجيههم للظاهرة ؟ .

لقد أجمعت كل الآراء أن الموضوعية الكاملة معيار صعب التحقيق لذلك فلقد أصبح المطلب العلمي أن يعي الباحث بتوجيهه الأيديولوجي ويحاول الآخرون أن يفسروا التوجيه الأيديولوجي للبحث حتى يعملوا على نمو المعرفة العلمية الموضوعية دون الأيديولوجية . وهناك إتجاهات منهجية في علم الاجتماع تسعى إلى العلمية أو الموضوعية . وقد يدعى هذا الاتجاه أو ذاك أنه القادر على الدراسة العلمية دون غيره ، وأن ما يجمعه من حقائق يمثل الواقع وليس التوجيه الأيديولوجي الذي يتبناه . وفي هذا المقال محاولة للتعرف على الاتجاهات المنهجية وما تنتمي إليه من توجيه أيديولوجي في موقفها من الموضوعية في بحث الظاهرة الاجتماعية لنوضح ما يمكن أن تلتقي عنده هذه الاتجاهات في الدراسة العلمية ، وما لا يمكن أن تلتقي عنده ، وإلى أي مدى يؤثر عدم الالتقاء على العملية العلمية .

وفي رأينا أن التوجيه الأيديولوجي يؤثر على الموضوعية في مرحلة حكم القيمة للباحث في تحليله للنتائج وليس قبل ذلك . ولكي يتضح ذلك فلنسر مع عملية البحث العلمي من بدايتها .

٢ ــ الموضوعية واختيار مشكلة البحث :

يبدأ البحث المستخدم لمنهجية علم الاجتماع كأي بحث علمي بتحديد هدف البحث نظرياً كان أم تطبيقياً ، أي لحل خلاف نظري أو لحل مشكلة عملية . وسواء كان البحث هدفه نظرياً أم تطبيقياً فهو يحتاج إلى جانب نظري وجانب امبيريقي . وجانبه النظري يتناول أهمية الموضوع وتعريف مفاهيمه ونتائج الدراسات السابقة حول موضوعه ووضع تساؤلاته وفروضه والمنهج المستخدم في الدراسة . أما الجانب الامبريقي فهو الجانب اللازم لأي بحث إذ لا وجود لدراسة علمية على أساس منطقي ــ إذ أن مثل هذه الدراسة تعتبر دراسة فلسفية بحته ــ وإنما لابد أن تؤيد الفروض أو ترفض من خلال دراسة الواقع . وفي الدراسة الامبيريقية قد يعتمد الباحث على العمل المكتبي أو يعتمد على العمل الميداني في حالة عدم توفر المادة اللازمة لبحث الفروض مكتبياً . والواقع أن العمل الميداني ينتهي في صورة مادة

مكتبية إذا نحن راعينا أن العمل الميداني يستخدم طرقاً وأدوات لجمع مادة ثم تجدول إحصائياً في حالة البيانات الكمية وجمل منطقية في حالة المادة الكيفية . ثم يبدأ الباحث مكتبياً في تحليل هذه المادة المجموعة ميدانياً بالإضافة إلى ما هو متوفر له مكتبياً من بحوث سابقة ووثائق تاريخية وتشريعات وإحصاءات . ولكن المادة الميدانية لها ميزتها أن الباحث يجمعها عن قصد فيمكن له بذلك أن يوفر لنفسه المادة التي يريدها دون غيرها . ولكنها في الوقت نفسه تتعرض لمخاطر التحيز في جمعها وهي نفس المشكلة التي تواجه المادة التي يحللها مكتبياً . فالتحيز من نفس النوع في الحالتين .

والتحيز الأيديولوجي أو القيمي يبدأ من اختيار مشكلة البحث نفسها . وفي هذا السبيل يراعى أن تكون مشكلة البحث هامة أي مثارة على المستوى الخاص والمستوى العام ، وإن جمع المعلومات حولها يمكن أن نستفيد منه في تحديد الموضوع المثار . كما يراعى ألا تكون من الجزئية بالقدر الذي لا يمكن أن نستفيد منه من المعلومات لإغفال معلومات أعم منها ضرورية لفهم الجزء ولكن ليست أيضاً بالاتساع بالقدر الذي يجعل عملية جمع المعلومات المحددة الدقيقة المتعمقة مستحيلة التحقيق . كما يجب أن تصاغ المشكلة بصورة تجعل من الممكن جمع بيانات كمية إحصائية وجمل منطقية رياضية محددة المفهوم والمضمون .

ورغم هذه الاعتبارات التي يراعيها الباحث في اختيار مشكلة البحث فالباحث سيكون بالضرورة متحيزاً في اختياره لنوعية المشكلة التي سيختارها . وليس هناك من سبيل لمنع تحيز الباحث في اختيار مشكلة بحثه . وعموماً كما يرى دارندورف (١٩٦١) فمثل هذا التوجيه الأيديولوجي لا تأثير له على موضوعية البحث العلمي نفسه لأن عملية اختيار المشكلة تتم قبل البحث نفسه وليست جزءاً منه . ولا يمكن أن نقول أن هناك موضوعات ممنوع البحث فيها وأخرى يجب تركيز البحث عليها على الرغم من أن نوعية العمل العلمي تزداد بنوعية اختيارات الباحث لموضوعاته . ولكن هذا الاختيار يتم في مرحلة ما قبل الدراسة العلمية نفسها وتعبر عن رغبة الباحث واهتماماته . وأي توجيه أيديولوجي للباحث لا يمكن أن يؤثر على موضوعية البحث العلمي نفسه ولذلك لا أهمية له على الموضوعية وفي الوقت نفسه لا سبيل للحد منه .

٣ – الموضوعية والبناء النظري للمشـــكلة :

يلي عملية اختيار مشكلة البحث تصور العامل أو العوامل المؤثرة عليها وهي المتغيرات التي يركز الباحث على دراساتها في مشكلة البحث أو موضوعه أو ظاهرته . وهنا أيضاً تتم عملية حكم قيمي للباحث بالتوجيه الأيديولوجي للباحث ويسمي دارندورف (١٩٦١) هذه المشكلة « بالبناء النظري للمشكلة » ، ويعطي لها أمثلة . فعندما يرى ماكس فيبر في ظهور الرأسمالية أثر الكالفينية فقط وليس مثلاً أثر التقدم التكنولوجي ، أو عندما يرى بارسونز تماســك المجتمع نتيجة العوامل المعيارية ولا يعــير العوامل البنائية اهتماماً . أو بتعميم أكثر عندما يرى هؤلاء المحافظون عمليات التوازن فقط بينما لا يهتمون بعمليات الصراع أو لا يرونها . هل يمكن أن نطلب منهم أن يحللوا أنفسهم ليفهموا ما يقومون بدراسته ليهتموا بجوانب أخرى ؟ هل يجب أن يكونوا راديكاليين وإلا أصبحوا غير علماء ؟ فكما يقول بوبر (دارندورف ١٩٦١) إن البناء النظري تجريد اختياري من المستحيل أن نمنعه بل من غير المطلوب في البحث العلمي منعه . فمثل هذا التجريد الاختياري هو الذي يثري المعرفة ويجعل للمادة العلمية المتحصلة أهمية ولها لونها الخاص . ومثل هذا التحيز غير ضار على المعرفة العلمية ذلك أن الاختيار المحافظ أو الراديكالي لا يقول لنا بما سيثبته البحث من نتائج إذ أن الذي سيحكم على تأثير العامل المختار كمتغير في البحث هو البحث الامبيريقي نفسه . فكأن البناء النظري للمشكلة مرحلة سابقة على البحث العلمي نفسه ولا تؤثر على الموضوعية العلمية ولا يمكن ومن غير المطلوب صبها في قالب واحد . إنما الخطر كما يقول دارندورف من مثل هذا التحيز في البناء النظري أن نبني عليه أشياء غير منطقية مثل أن نختار عاملاً معيناً لدراستنا ونأتي فجأة ونقول أنه العامل الحاسم . ولكن خطأ هذه النقلة ليس نتيجة الانتماء الأيديولوجي وإنما هي خطأ منطقي في النقلة .

٤ – الموضوعية والإطار المرجعي للبحث :

وضع خاص في البناء النظري لمشكلة البحث في علم الاجتماع بالذات ويمكن أن نسميه « الإطار المرجعي للبحث » يحتله تحيز باحثي علم الاجتماع منذ دوركايم وماكس فيبر وبارتو مرورا بتالكوت بارسونز في كتابه « بناء الفعل الاجتماعي » (بناء التعامل الاجتماعي)

فالعديد من المحدثين . فهم يرون اختيارهم في المقام الأول يقع على العامل المعياري في تأثيره على الحياة الاجتماعية وما يرتبط بها من جزاء على المنحرفين عنها وبكلمات أخرى تعتبر المعايير الاجتماعية وما يرتبط بها من أدوار اجتماعية وعلاقات اجتماعية في نسق معين أو ما يمكن أن نسميه بالنظام الاجتماعي وما ينشأ عنه من انحراف اجتماعي وما يتعرض له من تغير اجتماعي أو تنظيم اجتماعي تعتبر في دراسات علم الاجتماع متغيراً مستقلاً يركز عليه الباحث في دراسته في علاقته بالمتغيرات التابعة المختلفة التي تشكل أي ظاهرة . وليس معنى أنه متغير مستقل أنه العامل الحاسم أو الأساسي أو الأهم وإنما فقط أنه بؤرة الدراسة العلمية المنهجية في علم الاجتماع بينما المتغيرات الأُخرى والتي يكون احدها أو عدد منها في هذه الظاهرة أو تلك أهم أو أكثر فاعلية ولكنها من المنظور الدراسي في علم الاجتماع هي متغيرات تابعة ينظر إلى تأثيرها في المتغير المستقل وتأثرها به دون أن نربط بها حكم قيمة في أهميتها . ومع أن هذا الإطار المرجعي لدراسات علم الاجتماع يميز خطاً رئيسياً في دراسات علماء علم الاجتماع منذ دوركايم وإلى اليوم فهناك إتجاهان آخران يتبنيان إطارين مرجعيين لدراسات علم الاجتماع يختلفان عن الاتجاه سابق الذكر أولهما وأقدمهما يرجع إلى أوجيست كونت ويكاد يرتبط بأغلب دراسات علم الاجتماع منذ نشأته وإلى اليوم هو الاتجاه الذي يرى في علم الاجتماع علماً يدرس علاقة المتغيرات ببعضها البعض وخاصة المتغيرات الحضارية (الثقافية) كالاقتصاد بالأُسرة بالسياسة بالدين ... الخ . فلا وجود لمتغير مستقل ومتغيرات تابعة وإنما يحدد المتغير المستقل ما يتبناه الباحث من هذه المتغيرات متغيراً مستقلاً لدراسته الذاتية . أما الاتجاه الثاني فهو يتبنى النظام الطبقي القائم على أساس اقتصادي اجتماعي ليكون هو المتغير المستقل في أي دراسة في علم الاجتماع . ويعيب دارندورف (١٩٦١) على دراسات علم الاجتماع – أياً كان إطارها المرجعي – ليس تركيزها على دراسة هذا المتغير أو ذاك وإنما ما كان يدعيه علماء علم الاجتماع نتيجة لدراساتهم الأمبيريقية نتيجة خطأ منطقي من أن العامل الذي يدرسونه يعتبر العامل الحاسم . ويعطي على ذلك مثالاً : ففي تجارب هاوثورن اكتشف الباحثون أن تماسك الجماعة غير الرسمية يؤثر على الإنتاج وعلى سعادة الأفراد . وإلى هنا لا اعتراض على ما وصلوا إليه ، إذ أن ما اكتشفوه يمثل حقيقة يمكن أن نتحقق منها دائماً امبيريقياً ، إنما أن يدّعوا – وهو ما فعلوه – أن تماسك الجماعة غير الرسمية هو العامل الوحيد للتأثير على الإنتاج ويتناسون

أهميـة الأجر وشروط العمـل وعلاقات السلطة في المصنع ، فهذا هو غير المقبول منهم .

ويستخلص من ذلك أن التأثير الأيديولوجي يأتي من الخلط المنطقي وإضفاء العلمية ليس فقـط على النتيجة العلمية وإنما على التعميم النظـري وطريقة شرح النتيجة . فالتأثير الأيديولوجي يظهـــر في التعميم الخـــاطيء لنتيجة محددة على أنها نتيجـــة عامة وأحادية (وتحت هذا المعنى تأتي كل النظريات آحادية العامل مثل العنصرية والوطنية وعلاقات الإنتاج . . . الخ) . ويرى دارندورف أن مثل هذا التفسير الأحادي خاطيء تماماً كأي تفسير لا يمكن التحقـق منه أو حسمه أمبيريقياً كما أثبت ذلك مثلاً فريدمان بالنسبة للأبحاث التي أُجريت على مشكلة اغتراب عامل الصناعة والتي لم تتمكن الأبحاث من تأييد وجودها أو عدم وجودها إذ أن هناك أبحاثاً تدعى ذلك وأُخرى تدعى غير ذلك ولا يمكن حسم الموقف امبيريقيا . ويرى دارندورف أن القضاء على هذا التأثير الأيديولوجي لا يكون بأن نظل أيديولوجيين في دراستنا وندعي العلمية وإنما في أن يتمرن الباحثون على الموضوعية بفهم نظريات علـم اجتماع المعرفة (العـلوم) وبالتحليل النفسي للذات فيما نبحثه ويجب أن يقف الباحث مما يقوله من آراء وما يصل إليه من نتائج موقفاً نقدياً وأن يعي الأيديولوجية التي توجهه في بحثه وأن يعرف الباحث أنه جزء من كل ويقبل النقـد الذي يوجهه إليه الآخرون كما ينقـد الآخرين من أجـل الوصول إلى نظريات تعبر عن نتائج البحوث الموضوعية وليست نظريات تعبر عن انتماءات أيديولوجية .

٥ ـ الموضوعية والتوجيـه التطبيقي للبحث :

والارتباط الحقيقي بين حـكم القيمة للباحث وعلم الاجتماع لا يتمثل في المراحل السابقة من مراحـل البحث العلمي في عـلم الاجتماع والعـلم الاجتماعي عموماً . وإنما الارتباط الحقيقي يتمثل في الإجابة على السؤال الآتي : هل نكتفي في البحث العلمي بالوصول إلى حقيقة الواقع أم يجب أن يكون لعـــلم الاجتماع دور في توجيـه المجتمع الذي يتعامل معه ، أي أن نقـدم ما يسمى بالهنـدسة الاجتماعية ؟ ومفهوم الهندسة الاجتماعية أن نقترح ما نراه من أساليب مناسبة لعـلاج أو إصلاح أو التأثير على ما نرى من نتيجة البحث العلمي إنه محتاج إلى عـلاج أو إصلاح أو تأثير في هذا الاتجـاه أو ذاك . وواضح أن اقتراح أساليب

العلاج أو الإصلاح أو التأثير تعبر أولاً وأخيراً عن رأي للشخص القائم بها وخبرته ، وواضح أيضاً أن هناك علوماً تطبيقية تعني بتنظير هذه الأساليب معتمدة على تجميع واختبار المقترحات الشخصية في صيغ تعميمية ترشيدية . وواضح أن الهندسة الاجتماعية بهذا المعنى غير ما نذهب إليه من مفهوم الهندسة الاجتماعية في علم الاجتماع . إذ أن ما نعنيه بالهندسة الاجتماعية في علم الاجتماع تنحصر فقط في تشخيص الحالة المحتاجة إلى علاج أو الوضع المحتاج إلى إصلاح أو إلى التأثير عليه ، وهذه هي مهمة العلوم الأساسية ومن بينها علم الاجتماع . ولنفهم ما نعنيه بذلك ففي الطب يقوم الطبيب بتشخيص المرض بناء على كشف وتحاليل تثبت حالة ما يسمى بأنه مريض بداء معين ثم تلى ذلك مرحلة علاج المرض الذي شخصه وهي مرحلة تالية وتعتمد على المعرفة بالمرض كجانب ثم المعرفة بامكانيات علاجه بالأدوية المعروفة للطبيب أو بالعلاج الطبيعي أو بالأشعة أو يقول لا أمل في شفاء المريض . والعلم الاجتماعي الأساسي دراسة لتشخيص أوضاع المجتمع لمعرفة طبيعته وما يتعرض له من حالات تحتاج إلى علاج أو إصلاح أو تأثير . أما العلم الاجتماعي التطبيقي فهو معرفة بوسائل علاج واقعية أو إصلاحه أو التأثير عليه . وعلم الاجتماع من العلوم الأساسية الباحثة عن فهم الواقع أو التثبت منه أو تشخيص ما فيه ، بينما الاشتراكية والإدارة والخدمة الاجتماعية من العلوم التطبيقية أو العلاجية أو الإصلاحية أو التأثيرية . فإذا استخدم المتخصص في علم الاجتماع مفهوم الهندسة الاجتماعية فهو لا يذهب أبعد من مجرد التثبت من الواقع الاجتماعي . وفي هذا السبيل هناك من يقول بأن مهمة عالم الاجتماع تنحصر في تحديد الظاهرة وبيان الأسباب المؤدية إليها أي فهم الظاهرة وهو الاتجاه المعروف بالاتجاه الوضعي ، وهناك من يقول بضرورة أن يبحث العالم في النتائج المترتبة على وجود الظاهرة أي التنبؤ بما سيحدث وهو الاتجاه المعروف بالاتجاه الوظيفي البنائي ،وأما بالنسبة لمعاني إنسانية ومثل عليا يريد تحقيقها أي تغيير ما هو قائم وهو الاتجاه المعروف بالاتجاه الراديكالي (في مقابل الاتجاهين السابقين إذ يطلق عليهما عادة الاتجاه المحافظ) .

ولنفرض الآن أننا ندرس ظاهرة التدريب المهني في مصر ، وعرفنا العوامل المؤثرة عليها أو العامل الذي اهتممنا بدراسته والعوامل التابعة المؤثرة عليه وخرجنا بنتيجة ولتكن أن المستوى الاقتصادي الاجتماعي عامل مؤثر على التدريب المهني في مصر ، فأغلبية الإقبال على

على التدريب المهني (سواء في ظل نظام الصبية في الشركات أو نظام التلمذة الصناعية أو النظام التقليدي للإعداد المهني أو التعليم الفني العام) بين أبناء مستويات اقتصادية دنيا ويقل الإقبال في المستويات المتوسطة ونادراً ما تكون في المستويات العليا . أو أن الإقبال على التدريب المهني ظاهرة مصاحبة لانخفاض المستوى الاقتصادي الاجتماعي . وإذا ما سألنا عن أسباب إقبال المستويات الدنيا على التدريب المهني وإدبار المستويات العليا فنعرف أن إنخفاض الدخل وما يرتبط به من عدم الرغبة في التعليم العام هما السببان الرئيسيان .

يتصور البعض أن من مهمة علم الاجتماع أو الباحث في علم الاجتماع أن يقول لنا مثلاً كيف يمكن لنا مساواة إعداد الطبقات المختلفة في الإقبال على التدريب المهني أو أن يقول لنا كيف يمكن أن نرفع مستوى دخل المستويات الدنيا وما يرتبط بها من عدم رغبة في التعليم العام لنقلل من نسبة إقبال المستويات الدنيا على التدريب المهني أو بواقعية أكثر كيف نجعل الإقبال على التدريب المهني غير مرتبط بالدخل المنخفض وعدم الرغبة في التعليم وإنما بمن له قدرات فطرية للقيام به وليس له قدرات فطرية للانتماء لتنظيم تعليمي آخر . ومن جهة أخرى قد يقول لنا البعض مثلاً يجب أن يقول لنا عالم علم الاجتماع هل نتوسع في التدريب المهني في مجتمع ينخفض فيه الدخل وما يرتبط به من عدم الرغبة في التعليم العام أم نتوسع في التعليم العام وكيف نستفيد من هذه الحقيقة في تصور خصائص المتدربين على برامج التدريب المهني اللازمة . والبعض يرى أن الباحث في علم الاجتماع يجب ألا يقول لنا بهذا أو ذاك ويجب أن يقف عند حد إثبات ما وصل إليه من نتائج وإذا طلبنا رأيه في كيفية الاستفادة من هذه الحقائق فليس بصفته العلمية من خلال دوره كعالم باحث وإنما بصفته الشخصية كمنتمي لهذه الأيديولوجية أو تلك أي من خلال دوره كمواطن أو كمستشار تطبيقي أو تنفيذي . فهو في رأيه التطبيقي ليس مزوداً بنتيجة علمية تحدد له الرد في هذا الاتجاه أو في ذاك . وإنما هو معبر عن رأيه الشخصي وانتمائه الأيديولوجي بالنسبة لرأيه التطبيقي . وهنا يفارق إنتماءه العلمي ليكون مصلحاً أو مواطناً .

وقد تكون هناك تنوعات أخرى لهذه الاتجاهات الثلاثة التي أشرنا إليها في موقف عالم علم الاجتماع من التطبيق ولكنها تنوعات فرعية على هذه الاتجاهات الرئيسية كما أتصورها والتي استخلصتها من الاتجاهات الأيديولوجية الثلاثة حول علم الاجتماع والتطبيق والتي

تتردد في تراث علم الاجتماع والتي يمكن أن نعطي كلاً منها التسمية المتعارف عليها : فالاتجاه الأول الاتجاه الراديكالي والاتجاه الثاني الاتجاه الوظيفي والاتجاه الثالث الاتجاه الوضعي . وعلى الرغم من أن بعض هذه الاتجاهات ترتبط بمسميات أُخرى كالماركسي والنقـدي بالنسبة للراديكالي ، والمحافظ للوظيفي والوضعي ، إلا أن في مجال علاقة علم الاجتماع بالتطبيق يمكن أن نستخدم مسميات الاتجاهات التي أخذنا بها لأنها أكثر تعبيراً عما يتضمنه كل إتجاه ، إذ أن الألفاظ الأُخرى ترتبط بمعاني أُخرى في التحليل المنهجي لعلم الاجتماع .

وإذا نظرنا لهذا الموضوع تاريخياً فسنجد أن التراث النظري في علم الاجتماع كان يؤكد الاتجاه الوضعي منذ اوجيست كونت وإلى نهاية العشرينات من القرن الحالي ليبدأ ظهور الاتجاه الوظيفي وينتشر دون أن يقضي على الاتجاه الوضعي ، ثم ليبدأ الاتجاه الراديكالي من نهاية الخمسينيات دون أن يقضي على الاتجاهين الآخرين .

٥ - (١) الاتجـاه الوضعي (البحث العلمي لفهم الواقع فقط)

فاوجيست كونت ذهب في كتابه دروس في الفلسفة الوضعية إلى أن الواقع الاجتماعي كالواقع البيولوجي خاضع لحالة سوية يمكن لنا أن نتعرف عليها بالدراسة . وهذه الحالة السوية للمجتمع ليست ثابتة وإنما هي متطورة وخاضعة لقواعد يمكن التثبت منها . فكما أن الطفل يتطور إلى أن نميزه بأنه شاب ثم إلى أن نميزه بأنه كهل فهو في كل هذه المراحل يخضع لقوانين ثابتة بمعنى أنه يمكن التثبت منها بالنسبة لكل إنسان ، ولكنها متطورة بالنسبة لكل منهم على حدة كإنسان فرد ، كما أن حالته الصحية تعتبر سليمة بالنسبة لكل فترة عمرية على حدة بالنسبة لكل الأفراد في هذه المرحلة العمرية ، فنفس الشيء بالنسبة للمجتمع فرغم تطوره خاضع لوضع سوى يناسب كل مرحلة من مراحل نموه . ومهمة علم الاجتماع عند كونت هي التثبت من حقائق الوضع السليم للمجتمع الإنساني في مرحلة نموه المعاصرة وكشف مواطن علته حتى يمكننا أن نقترح كخطوة تالية على ذلك ومنفصلة وسائل لعلاج ما يتعرض له من أمراض . لذلك طالب كونت بضرورة فصل الدراسة الأساسية في علم الاجتماع عن التطبيق للتثبت من الحالة السليمة للواقع الاجتماعي والحالات التي يتعرض فيها لما يمكن أن نعتبره مرض أو يحتاج فيها إلى أن نعمل على إصلاحه .

ولقد أكد هذا الاتجاه مرة أخرى ماكس فيبر عندما أهتم في العديد من مقالاته ومناقشاته بأن يفصل الدراسة العلمية عن السياسة التنفيذية أو التطبيقية فهو كما سبق أن عرضنا لا يرى أن مهمة العلم تعليم الناس ما يجب أن يفعلوه وإنما العلم هو معرفة ما يفعله الناس وفهمه وفهم ما يمكن أن يفعلوه . والفرق بين فيبر وكونت أن الإصلاح عند كونت يمثل علماً أو مرحلة منفصلة من العلمية تستخدم نتائج البحث العلمي ووسائله في تحقيق أهداف الإصلاح الاجتماعي المحددة علمياً بينما فيبر كان يرى أن سياسة التنفيذ أو التطبيق ، وأن الاستفادة من نتائج البحث العلمي لا يمكن أن تكون في ذاتها علماً لأن سياسة التنفيذ تحكمها أهواء الأفراد وأيديولوجياتهم وإمكان تقبل الواقع الاجتماعي لها أو بمعنى آخر هي مرتبطة بإرادة الأفراد الحرة التي لا يمكن أن نملي سياستهم التنفيذية . ففيبر لا يعتقد ككونت أن الإصلاح الاجتماعي يمكن أن يكون علماً في يد العلماء يسير حركة المجتمع ويلغي حرية الأفراد ، وإنما يعتقد أن حقائق العلوم ستعمل على إيجاد الإنسان الترشيدي الذي يمكنه أن يسير حركة المجتمع في طريق الإصلاح الاجتماعي .

ويمثل الاتجاه الوضعي من المفكرين المعاصرين هانز ألبرت عندما يرى (جيرهارد تسخا ١٩٧٦) أن حكم القيمة للباحث هو تفضيل من الباحث لرأي أو سلوك أو ظاهرة مبحوثة على غيرها . ولما كان هذا التفضيل ليس وصفاً لواقع وانها هو تصور لما يجب أن يقوم به الأفراد أو الموافقة عليه أو رفضه ، فهو ليس من جوانب الدراسة العلمية في العلوم الاجتماعية لأن مهمة العلوم الاجتماعية دراسة ما بين الأفراد من معايير يمكن التثبت منها وتضيف إلى معلوماتنا عن الواقع ، وليس إصدار أحكام (آراء شخصية) على ما بينهم ، لأن إصدار الأحكام موقف مع الباحث لا يعبر عن الواقع .

ورغم ما في موقف أنصار هذا الاتجاه من رغبة في الارتباط بالواقع والتعبير عنه كمهمة علمية أساسية ، إلا أن ما لا يراه أنصار هذا الاتجاه أن من متطلبات التعبير عن الواقع أن نحكم حكم قيمة يفرضه الواقع . إذ لا يكفي مثلاً في الدراسة العلمية أن نقول أن ١٠ ٪ يسلبون أنفسهم الحياة بأيديهم (ينتحرون) وإنما نحن في حاجة أيضاً أن نقول أن أفراد المجتمع يعتبرون الانتحار سلبية من الأفراد في مواجهة صعاب الحياة وأن ١٠ ٪ منهم انحرفوا عما هو متعارف عليه . فالانتحار خطأ من وجهة نظر أفراد المجتمع . وفي حكم القيمة

المقدم من الباحث لسنا أمام حكم قيمة من الباحث وإنما الباحث أداة لإدراك حكم قيمة يصدره مجتمع ما ويمكن لأي باحث في هذا المجتمع أن يتثبت من هذه الحقيقة . فنحن لا نخرج على مبدأ الموضوعية والعلمية في العلوم الاجتماعية بمثل هذا الحكم القيمي النابع من مجتمع ما بل إن مثل هذا المطلب دعا إليه اوجيست كونت رائد أنصار الاتجاه الوضعي عندما جعل من مهمة العلم الاجتماعي (الذي هو عنده علم الاجتماع فقط) دراسة الواقع لتحديد مواطن العلاج أو الإصلاح بما تقبله طبيعة الاجتماع الإنساني ، ولكن بصورة مبهمة وهو ما توصل إليه رائد الاتجاه الوظيفي في علم الاجتماع أميل دوركايم .

٥ ـ (٢) الاتجاه الوظيفي (البحث العلمي للتنبؤ بسير الأحداث)

لقد رأى أميل دوركايم أن العلم الاجتماعي (وهو عنده علم الاجتماع فقط لأن علم النفس الاجتماعي ليس إلا شبيهاً بالعلم الاجتماعي ولا وجود لعلوم اجتماعية أُخرى إلى جانبهما) يجب أن يدرس إلى جانب وصف الظاهرة أو تحديد أبعادها ، وإلى جانب دراسة أسبابها أو العوامل المؤدية إليها ـ وهما الجانبان المتعارف على دراستهما علمياً إلى عصره ـ رأى ضرورة أن يضم إليها جانب ثالث في الدراسة العلمية وهو وظيفة الظاهرة أو الآثار الناتجة عن وجودها أو المترتبة عليها . واهتم دوركايم في البحث عن الآثار المترتبة على وجود الظاهرة أو الموضوع أو المشكلة والتي هي مهمة علمية أن يبحث عن هذه الآثار في شكل اجتماعي معين أي فيما أسمى بعد ذلك في بناء اجتماعي معين . فقواعد السلوك الاجتماعي المميزة للظواهر الاجتماعية تختلف باختلاف البناء الاجتماعي . وما هو متشابه ليس لعموم قواعد السلوك الاجتماعي ـ والتي سميت فيما بعد بالأنماط الاجتماعية ثم بالمعايير أو القيم والمعايير الاجتماعية ـ في الأبنية الاجتماعية المختلفة ، وإنما لتشابه الظروف المؤدية لتشابه قواعد السلوك الاجتماعي في بنائين اجتماعيين أو أكثر وهو ما يفسر الاختلاف في قواعد السلوك الاجتماعي من مجتمع إلى آخر وفي الوقت نفسه يفسر وجود التشابه أحياناً . فالأساس هو الاختلاف في قواعد السلوك الاجتماعي وهو ما اثبتته الدراسات الانثروبولوجية والمقارنة. ولذلك أهتم دوركايم في دراسته لوظيفة الظاهرة الاجتماعية (أو وظائفها) أن يدرس هذه الوظيفة بالنسبة لبناء إجتماعي محدد . ومن هنا كان اهتمامه بتحديد أشكال الجماعات الإنسانية والتي بناها على أساس مرفولوجي والذي طور من بعده لبنائها على أساس من فكرة

النسق الاجتماعي . فتمييز بناء اجتماعي عن غيره لا يقوم على أساس مرفولوجي بقدر ما يقوم على أساس تمييز مجموعة من المعايير لجماعة من الأفراد عن غيرها من الجماعات وهي معايير خاصة بهم وحدهم وتنطبق عليهم دون سواهم في إطار من نسق نسبي .

ولقد جاءت دراسة دوركايم الامبيريقية عن الأشكال الأولى للدين مطبقة لهذه الفكرة . فبعد أن حدد ظاهرة التوتية ودرس الأسباب المؤدية إليها في جماعات استراليا المتخلفة ، اهتّم أن يوضح لنا الآثار المترتبة على وجودها بين أفراد هذه الجماعات بالذات دون أن يعمم نتائجه على الجماعات التاريخية وجماعات الأديان السماوية ، وقصر تعميمه على الجماعات المتخلفة التي تتشابه ظروفها وظروف جماعات استراليا المتخلفة .

فدوركايم لم يقف موقف الرافض من الاتجاه الوضعي في حكم القيمة لأنه سلم بأهمية هذا الاتجــاه للدراسة العلمية ولكنه أضاف إليه وفي إطاره اتجاهاً جديداً يهتم بجانب جديد متفقاً تماماً مع مباديء الدراسة العلمية الموضوعية في العــلوم الاجتماعية وهو البحث عما بين الأفراد من معايير ولكن فيما يخص حكمهم القيمي من واقعهم دون أن يربط هذا الحكم القيمي برأي الباحث الشخصي أو انتمائه الأيديولوجي إن كان فيما يفعلونه صواب أم خطأ . إذ أنهم هم أنفسهم الذين يحكمون على ما بينهم بأنه صواب أو خطأ ، يريدونه أو يريدون إصلاحه .

ومنذ عشرينات القرن الحــالي اتجهت الدراسات الأمبريقية النظرية إلى تأكيد أهمية الدراسات الوظيفية البنائية كأسلوب للدراسة العلمية القريبة من حاجات التطبيق واللازمة لتشخيص الواقع الاجتماعي . وعلى المستوى النظري ظهرت خلافات حول تحديد وظيفة الظاهرة الاجتماعية . فلم ير مثلاً تالكوت بارسونز في كتابه النسق الاجتماعي (دارندورف ١٩٦١) في وظيفة الظاهرة الاجتماعية غير وظيفتها الاجتماعية فقط أي أثرها في إنتاج الضغط الاجتماعي والقهر الاجتماعي على سلوك الأفراد ، إذ أنه ربط بين علم الاجتماع كعلم متميز في إطار مجموعة العلوم الاجتماعية وأن مهمته دراسة ما في الظاهرة الاجتماعية من قهر اجتماعي على سلوك أفرادها متغافلاً عن وظائفها الأُخرى التي هي موضوعات للدراسة في العلوم الاجتماعية الأخرى كعلم الاقتصاد والسياسة والدين . . . الخ .

أما الخلاف بين مالونفسكي وراد كليف براون (جورج هومنز ١٩٥٠) فكان حول وظيفة الظاهرة بالنسبة للفرد أو بالنسبة للجماعة ، فبينما يركز مالونفسكي على وظيفة الظاهـــرة وآثارها على الفـــرد يركز راد كليف براون على وظيفة الظاهرة أو آثارها على الجمـــاعة .

أما روبرت ميرتون (١٩٤٩) فلقد أوضح أن الظاهرة قد تؤدي وظيفة في البنـــاء الاجتماعي وقد تؤدي وظيفة مضادة وهو هنا يؤكد أن الآثار الناتجة عن الظاهرة قد تكون إيجابية في تماسك البناء الاجتماعي وقد تكون سلبية في تماسكه أو تؤدي إلى تفككه .

غير أن وجهة نظر الوظيفيين وإن كانت خطوة أكثر تقدماً من وجهة نظر الوضعيين في الاستفادة من المنهج العلمي بما يفرضه من مبدأ الموضوعية في العلم الاجتماعي عندما بحثوا عن الآثار المترتبة على الظاهرة بنظرة موضوعية ليس فيها من حكم القيمة الشخصي أو الأيديولوجي للباحث إلا ما يعبر عن واقع ما يحكم به الأفراد المدروسون أنفسهم على وضع الظاهرة بينهم ، على الرغم من ذلك فلقد وقف الاتجاه الوظيفي (رغم تنبؤه بسير الأحداث) ومن قبله الاتجاه الوضعي موقفاً لا يمكنه من تفسير ما يقوم في الحياة الاجتماعية من تغير ، فإذا كان الأفراد يحكمون على ظاهرة ما بأنها وظيفية أو ضد الوظيفة أو حتى لا وظيفية فذلك بما يسود بناءهم الاجتماعي من معايير مسيطرة . فالظاهرة صواب أو خطأ بالنسبة للمعيار المسيطر . فالنتيجة دائماً لا يمكن تفسيرها إلا من الواقع المسيطر . فإذا كان هناك صراع على المعايير المسيطرة فستفسر النتيجة فقط من خلال الواقع المسيطر الذي قد لا يكون مسيطراً في المستقبل لغلبة الاتجاه الآخر في المعايير المتصارع حولها ، كما أنها وهو الأهم ستفسر من خلال واقع قد يكون ضد مصلحة بعض أفراد المجتمع بل وأغلبهم أحياناً بل وضد مصلحة الجماعة على المدى الطويل في أحيان أخرى .

غير أن الاتجاه الوظيفي وإمكانياته لم ترض عدداً من الباحثين في العلم الاجتماعي فالبحث العلمي يجب أن يعبر عن حرية البحث العلمي فتكون المعلومات العلمية متاحة للجميع ويجب ألا تؤثر عليها السلطة أياً كانت هذه السلطة بل ويجب ألا تكون الحقيقة العلمية ملكاً خاصاً للباحث يستثمرها كيفما يريد وإنما يجب أن تكون تراثاً إنسانياً لا يعترف

بحدود الوطن ولا الطبقة ولا الدين ولا المذهب السياسي ولا المؤسسة العلمية التي ينتمي إليها بل ولا المصلحة الشخصية للباحث . يجب أن يقدم الباحث النتائج فور الوصول إليها للجميع وتنتشر بين الجميع ليستفيد منها كل من يريد . فيجب ألا يتأخر الباحث بما يصل إليه من نتائج ويجب ألا تخدم الصديق دون العدو . مثل هذه المثالية في البحث العلمي دفعت عدداً من الباحثين إلى نقد مؤسسات البحث العلمي وطرق تمويلها واستخدامها لنتائج الأبحاث ونقد الباحثين وانتماءاتهم الأيديولوجية وأثرها على التطبيق لنتائج البحث العلمي .

٥ — (٣) الاتجاه الراديكالي (البحث العلمي للتغيير)

ولقد كان س . ر . ميلز من علماء علم الاجتماع الذي تبنى هذه القضية في كتاباته التي بدأت بكتابه عن « التصور السوسيولوجي » (١٩٥٩) فنقد استخدامات علماء علم الاجتماع للوظيفية في البحث العلمي وطبيعتها في جعل الباحث أسيراً للسلطة ، وجعله محافظاً على الوضع القائم دون المساهمة في نقده ناهيك عن تغييره إلى وضع أفضل على أساس سبر أغوار الواقع بما فيه من حقائق أي براديكالية . ولقد جاءت الراديكالية في علم الاجتماع كاتجاه جديد يحاول أن يحقق ما لم تحققه الوظيفية في البحث عن الحقيقة في جانب لم تتمكن الوضعية ولا الوظيفية من كشفه في ظل المنهج العلمي . فالى جانب تحديد الظاهرة وبحث أسبابها ووظيفتها بالنسبة لبناء اجتماعي محدد ، أرادت الراديكالية تحرير الوظيفة من بنائية الوضع القائم المسيطر إلى بنائية التغير والمستقبل . . فلم ترفض الراديكالية موضوعية الوضعية ولا موضوعية الوظيفية وإنما أرادت أن تضيف موضوعية الراديكالية . ومن خلال كتابات ميلز لا يمكن أن نتعرف على الاتجاه العلمي الذي يمكن أن تتبناه الراديكالية كاتجاه جديد في الوصول إلى حقائق علمية موضوعية في واقع متغير له مستقبل ، إذ أن كتابات ميلز كانت نقداً له ما يبرره للوظيفية في تعرفها على واقع المجتمع الأمريكي . ولكن أهمية ميلز تتمثل في أنه مهد الطريق لعدد من المفكرين في أوروبا ثم في الدول النامية لنقد الوظيفية ونقد واقع المجتمعات الغربية والنامية .

ووجد الماركسيون في نقد الوظيفية ونقد المجتمعات الغربية والنامية فرصتهم لكسب شباب الدارسين لعلم الاجتماع لنقد تراث علم الاجتماع التقليدي كله وتحويله إلى العلم

الاجتماعي الوحيد في نظرهم وهو المادية التاريخية بما فيها من نظرة راديكالية لتوجيه الواقع إلى بناء مستقبلي . ولقد نجح الاتجاه الماركسي في تركيز كثير من علماء الاجتماع على العامل الاقتصادي في الاجتماع الإنساني كعامل مستقل في الدراسات بدلاً مما كان سائداً من إعتبار العامل الاجتماعي المتمثل في المعايير الاجتماعية والرقابة الاجتماعية عامل دراسياً مستقلاً في دراسات علم الاجتماع . إلا أن الاتجاه الماركسي بالنسبة للنظرة المستقبلية وقياس وظيفة الظاهرة في بناء متغير مرتبط بما أسموه بالاشتراكية العلمية للوصول إلى المجتمع الشيوعي لم تجد انتشاراً بينهم ذلك أن من كتبوا في الاتجاه الراديكالي لم يشاءوا أن يخرجوا بحرية الباحث من سيطرة السلطة القائمة إلى أسر حريته في سيطرة أيديولوجية دجماتيقية .

وكان من بين الرادكاليين الذين حاولوا أن يضعوا تصوراً لبناء مستقبلي غير البناء الماركسي تقاس على أساس منه وظيفة الظواهر ويتيح للباحث حرية البحث العلمي دون قيود السلطة القائمة رالف دارندورف . فهو يدعي أن المشكلة الأساسية في علم الاجتماع هي البحث عن أصل عدم المساواة بين الناس ، وإلى أي مدى يكون المجتمع أساساً لعدم المساواة بين الناس . وإذا درسنا وظيفة الظاهرة فيجب أن تكون بالنسبة لوظيفتها في تحقيق عدم المساواة في الأبنية الاجتماعية الكبيرة « المجتمعية » .

ولقد ربط عدد من علماء علم الاجتماع في الدول النامية وظيفة الظاهرة بما تساهم به في تحقيق التنمية الاجتماعية على المستوى المجتمعي ، والبعض على مستوى المجتمع المحلي وهو ما نجده في كتابات سمير أمين ومحمود عودة . ومع أن مفهوم التنمية الاجتماعية مختلف حول تحديد مضمونه بين زيادات كمية وكيفية في الجوانب غير الاقتصادية البحتة المتصلة بالإنسان واجتماعه مثل الصحة والتعليم والسياسة وبين تحقيق المساواة الاقتصادية في الدخل وما هو متاح من فرص فيه للفئات الاجتماعية المختلفة ، إلا أن وظيفة الظاهرة أو عدم وظيفتها بمعنى عام يقاس بقدر مساهمتها في التنمية الاجتماعية الشاملة في بناء اجتماعي محدد ، وهو عادة مجتمعي (اى مكرو وليس ميكرو) . ومعنى ذلك أن وظيفة الظاهرة لا تقاس بمعايير قائمة مسيطرة في البناء الاجتماعي ، وإنما بما تحققه من تنمية إجتماعية لهذا البناء الاجتماعي . ولقد أصبح هذا الهدف متعارفاً عليه بين الجماعة العلمية في العلوم الاجتماعية عموماً وهو هدف يحرر الباحث من سيطرة السلطة القائمة وإن لم يحررها من أيديولوجية الباحث : فمفهوم التنمية الاجتماعية غير متفق عليه . فبينما يراه الغربيون في

التحديث على النموذج الغربي ، يراه الماركسيون في الاشتراكية العلمية كنموذج يأملون في إقامته ، ويراه بعض الباحثين الوطنيين في الدول النامية في نموذج ثالث لم تتحدد بعد ملامحه ولكن له شروط خاصة تميز منها حتى الآن أن تكون التنمية متلافية قدر الإمكان سيطرة الدول المتقدمة على مستقبل الدول النامية وأن يتحقق قدر من العدالة وتساوى الفرص للفئات الاجتماعية في المجتمع من الحصول على عائد مناسب من الدخل القومي وثالثها أن تأخذ من نماذج الدول المتقدمة في التحديث وفي الأيديولوجية ما يتفق وواقع وآمال شعبها .

والاتجاه الراديكالي وإن كان لا ينكر موضوعية الاتجاه الوضعي والوظيفي إلا أنه يحاول أن يوجه الموضوعية العلمية إلى آفاق جديدة وقفت الوضعية والوظيفية من خلال حدود منهجها دون القدرة على ضمها بموضوعية إلى القدرة العلمية على تفسير وفهم جوانب يهمنا أن تشملها نتائج البحث العلمي .

فالراديكالية ليست ضد الوضعية أو الوظيفية وإنما تمثل إتجاها متفوقاً عليهما في ضمه جوانب للبحث العلمي لم تقوم الاتجاهات الأُخرى على ضمها . وليس كما يتصور البعض أن الاتجاه الراديكالي يرفض إمكانيات الاتجاه الوضعي والاتجاه الوظيفي ، وإنما يضيف إليها. فالبحث العلمي يعتمد – ولحد ما – على ما أسماه توماس كون (يورجن فالتر ١٩٧٩) « الثورة العلمية » . وفي الثورة العلمية يسود إتجاه يحاول الباحث من خلاله تفسير الظاهرة موضوع علم من العلوم . ويستمر هو الاتجاه المسيطر في التفسير إلى أن يقف عاجزاً أمام تفسير بعض جوانب هذه الظاهرة فيبدأ ظهور محاولات مخالفة للاتجاه السائد تأخذ من الاتجاه السائد إمكانياته التفسيرية ولكن تحاول أن تعدل فيها وتضيف إليها ما يمكنها من تفسير ما عجز عن تفسيره الاتجاه السائد ، إلى أن تنجح إحدى هذه المحاولات في إيجاد بديل يمكن الاعتماد عليه في التفسير بدلاً من الاتجاه السائد ، لتبدأ مرحلة صراع بين الاتجاه السائد والاتجاه الجديد الذي تمكن من استيعاب الاتجاه السائد وأضاف إليه قدرته على تفسير جوانب جديدة في الظواهر موضوع الدراسة في العلم ، وفي هذه المرحلة يحاول الاتجاه السائد أن يعدل في مواقفه بقدر الإمكان فتستمر له السيادة بعض الوقت لكن الاتجاه الجديد ينمو أيضاً بسرعة ويبلور من قدراته على التفسير إلى أن يسود الاتجاه الجديد . ويستمر الاتجاه الجديد في السيادة إلى أن يقف عاجزاً أمام جوانب من الظواهر موضوع الدراسة في العلم

لا يمكنه من خلال منطلقاته الأساسية أن يفسرها لتبدأ من جديد مرحلة محاولات مناهضة إلى أن تقدم إحداها تفسيراً مقنعاً لهذه الجوانب وغير رافضة لما في الاتجاه السائد من قدرات على تفسير الواقع .

وهذا هو بالفعل ما يمكن أن نرجع له ما حدث في علم الاجتماع بالنسبة لاتجاهاته التطبيقية فهي من سيادة الوضعية إلى سيادة الوظيفية إلى مرحلة صراع بين الوظيفية السائدة والراديكالية الجديدة . ولكن لي أن ألاحظ على هذا الأسلوب في نمو المعرفة العلمية أن سيادة إتجاه جديد لا تلغي تماماً إتجاهات سبق أن سادت كما أنها لا تمنع من قيام محاولات جديدة .

ولنعود مرة أخرى إلى الاتجاه الراديكالي في التطبيق في علم الاجتماع فنلاحظ أنه رغم الاهتمام المتزايد به مازال عاجزاً عن تقديم بديل كامل للاتجاه الوظيفي . فحتّى مع الاعتماد على التنمية الاجتماعية أساساً نقيس على أساسه وظيفة الظواهر ومدى سلبيتها وإيجابيتها فيجب أن يكون الباحث بوعي بالوظيفة الاجتماعية للظواهر بالنسبة للتنظيم الاجتماعي القائم ولا يستهويه التفسير على أساس من فاعليتها في التنمية فينسى حقيقة ما في هذه الفاعلية من سلبية بالنسبة لوظيفتها في التنظيم الاجتماعي القائم ، ذلك أن القوى الاجتماعية المسيطرة على الظاهرة ستقف ضد التفسير المناهض لها ويصبح القياس بالتنمية ضرباً من الاوتوبيا في الإصلاح الاجتماعي . ولعل هذا الموقف هو ما وصفه عاطف غيث « بالراديكالية الخيالية » . ولتلافي مثل هذه الراديكالية الخيالية فعلى الباحث أن يعتمد على التفسير الوظيفي بكامل واقعيته العلمية مضيفاً إلى بحثه محاولة الربط الراديكالي بالتنمية الاجتماعية فيعرى ما في الواقع من هوة بين الواقع الوظيفي وآمال الشعوب في التنمية الاجتماعية .

وأخيراً إذا كان الاتجاه الراديكالي يربط بين وظيفة الظاهرة والتنمية الاجتماعية كمبدأ يرتضيه أغلب علماء علم الاجتماع كمقياس يحرر الباحث من سطوة السيطرة الواقعية والأيديولوجية الدجماتيقية ، فليس معنى ذلك أن غير الراديكاليون بهذا المعنى ليسوا علماء علم اجتماع أو نتشكك في علميتهم لمجرد أننا نرفض إتجاههم الأيديولوجي ذلك أن الاتجاه الأيديولوجي مسألة شخصية للباحث له أن يوظفها كيفما شاء بشرط ألا تؤثر على

موضوعية البحث العلمي أو أن تكون آراؤه في كلها أو أجزاء منها ذاتية يدعي أنها علمية ولا تلتزم بالموضوعية ذات الأُصول العلمية .

٦ ـ الخلاصـــــة :

الموضوعية مبدأ عام للبحث العلمي ويجب أن نتحاشى الآثار المؤثرة على الموضوعية نتيجة للتوجيه الأيديولوجي في البحث العلمي . ويتمثل التوجيه الأيديولوجي في كل من اختيار مشكلة البحث والبناء النظري للبحث وفي الإطار المرجعي للبحث وفي التوجيه التطبيقي للبحث . ولا يمكن منع الباحث من انتمائه الأيديولوجي ولكن هناك ضوابط يجب أن يراعيها الباحث من أجل تحقيق الموضوعية وخروجه بنتائج علمية وليس وجهة نظر دجماتيقية ، ولقد أشرنا إلى ضوابط متفق عليها بالنسبة لاختيار مشكلة البحث وللبناء النظري له والإطار المرجعي ، ثم ناقشنا صعاب ومراحل الضبط لأثر التوجيه التطبيقي للبحث وأن التوجيه التطبيقي للبحث لا يجب أن يقف عند حد إقرار الواقع وفهمه وإنما يمكنه بموضوعية أيضاً أن يقول لنا ما هو خطأ وما هو صواب أي يتنبأ بسير الأحداث وذلك في ضوء البناء الاجتماعي القائم ثم و في ضوء بناء اجتماعي متطور يلتزم فيه الباحث بهدف التنميـــة الاجتماعية أي بالعمل على تغيير الواقع .

مراجـــع

Ralf Dahrendorf, Gesellschaft und Freiheit, Zur soziologischen Analysee der Gegenwart, Samlung Piper, R. Piper & Co. Verlag 1961. S. 27 — 48, S. 49 — 84, S. 85 — 111.

Juergen W. Falger, Die Behaviorismus-Kontroverse in der Amerikanischer Politikwissenschhaft, in Koelner Zeitschrift fuer Soziologie und Sozialpsychologie. 31 Jahrgang 1979 Left 1, Westdeutscher Verlag GmbH, Opladen 1979. S. 1 — 24.

George C. Homans, The Human Group, New York 1950, dtsch. Theorie der sozialen Gruppe, Westdeutscher Verlag, Koeln und Opladen 1960. S. 259 — 263.

Peter Chr. Ludz, Ideologie und ein Neubeginn, in KZfSS 29 Jg 1977 Heft 1, Westdeutscher Zerlag GmbH, Opladen 1977. S. 1 — 31.

Robert K. Merton, Social Theory and social Structure, The Free Press of Glence 1949.

C. Wright Mills, The Sociological Imagination, New York 1959, dtsch Kritik der soziologischen Denkweise, Soziologische Texte 8, Luchterhand 1963.

Gerhard Zecha, Wie lautet das "Prinzip der Wertfreiheit"? , in KZfSS 28 Jg 1976 Heft 4, Westdeutscher Zerlag GmbH, Opladen 1976. S. 609 — 648.

الولايات المتحدة والقضية الفلسطينية

خلال الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥

الدكتور
عادل حسن غنيم
مدرس بقسم التاريخ

كان الكتاب الأبيض البريطاني لعام ١٩٣٩ آخر صفحة رسمية في تاريخ الانتداب البريطاني في فلسطين قبيل الحرب العالمية الثانية ، وقد دفع بريطانيا إلى إصداره عدة عوامل أبرزها أن نذر الحرب كانت قد بدت في الأُفق ، وأن الأمر أصبح يحتاج إلى سياسة متوازنة أو شبه متوازنة بين العرب والصهيونية . فليتوقف – ولو مؤقتا – الاندفاع البريطاني من أجل دعم الكيان الصهيوني في فلسطين ، وليتوفر مناخ سياسي يسمح للبلاد العربية بالوقوف إلى جانب الحلفاء في حالة قيام الحرب أو على الأقل لا يجعل تلك البلدان متعاطفة مع النازية أو الفاشستية .

ومن هنا كان ذلك الكتاب الأبيض الصادر في ١٧ مايو ١٩٣٩ والذي قامت خطوطه الأساسية على البنود التالية :

أولاً : تشكل حكومة فلسطينية مستقلة خلال عشر سنوات .

ثانياً : يسمح بإدخال ٧٥٠٠٠ مهاجر يهودي إلى فلسطين خلال خمس سنوات ولا يسمح بهجرة يهودية أُخرى إلا برضاء العرب .

ثالثاً : منح سلطات للمندوب السامي تخوله منع وتنظيم انتقال الأراضي في فلسطين .

وقد شجع الحكومة البريطانية على إصدار هذا الكتاب اطمئنانها إلى الوفاء بالتزاماتها قبل اليهود ، فقد اكتمل بناء الوطن القومي اليهودي وتحقق ما جاء في تصريح بالفور وصلك

الانتداب خاصاً باليهود(١) وإن كان ذلك قد حدث على حساب عرب فلسطين الذين لم تحاول بريطانيا تحمل مسئوليتها إزاءهم حتى طبقاً لنصوص صك الانتداب .

ومن ناحية أُخرى فقد تغيرت قيمة اليهود السياسية في نظر بريطانيا في بداية الحرب العالمية الثانية عنها في الحرب العالمية الأولى . ففي الحرب العالمية الأولى كان اليهود قادرين على مساومة الحلفاء على نفوذهم السياسي والمالي ، لكن اليهود في الحرب العالمية الثانية لم يستطيعوا استغلال وضعهم المالي ، وكان موقفهم العام هو موقف المستعطف المضطهد لا موقف المساوم المتمكن (٢) .

وتمكنت السلطة البريطانية من إيهام العرب واليهود أنها مضطرة خلال الحرب العالمية الثانية إلى ترك قضية فلسطين جانباً . وكان من الطبيعي أن يدرس الصهيونيون الأمر ، وانتهوا من دراستهم إلى اختيار منهجين سيركزون عليهما خلال مراحل الحرب : الأول أن يعلنوا رسمياً عن رغبتهم في فلسطين كلها ، والثاني أن يدربوا رجال الهاجاناه والمنظمات السرية الأُخرى على القتال في المعسكرات البريطانية (٣) .

أما عرب فلسطين فقد رأوا أن يهادنوا بريطانيا خلال الحرب على أمل أن تقدر لهم موقفهم بعد الحرب ، بل وتطوع عدد كبير منهم في وحدات التطوع وحارب بعضهم في جبهات أفريقيا وأوروبا ، ومنهم من قتل في الحرب ، ولم يحدث منهم مواقف عدائية ضد بريطانيا (٤) .

الاتجاه الصهيوني نحو الولايات المتحدة الأميركية :

وتوقعاً من الصهيونية للدور الأميركي المتوقع خلال الحرب العالمية الثانية اتجهوا إلى الولايات المتحدة الأميركية ، فحاولوا قبيل الحرب أن يضغطوا على البيت الأبيض

(١) جامعة الدول العربية : الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين · المجموعة الثانية من بيان المستر بيفن وزير خارجية بريطانيا فى مجلس العموم البريطانى فى ٢٥ فبراير ١٩٤٧ ص١٠٥ ·

(٢) نجيب صدقة : قضية فلسطين ص٢٥٧ ، ٢٥٨ ·

(٣) انيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ص٢١٧ ·

(٤) الهيئة العربية العليا : قضية فلسطين العربية ص٥٧ ·

لمساندة أهدافهم ، لكن وزارة الخارجية الأميركية رفضت المحاولات المختلفة التي بذلها الصهيونيون في هذا الشأن ، ولم يحصل الصهيونيون إلا على عبارات العطف على مأساة اليهود الأوروبيين والإعجاب بإنجازاتهم في فلسطين ، وأكدت الولايات المتحدة أنها لا تتحمل أية مسئولية عن إدارة الانتداب في فلسطين أو عن تنفيذ تصريح بالفور (٥) .

ولم يكن بالأمر الغريب حين صدر الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩ أن لا يكون له رد فعل رسمي في الولايات المتحدة الأميركية ، لكن صداه كان في الكونجرس الأميركي وبين يهود أميركا . فبالنسبة للكونجرس الأميركي فقد احتج عليه بلهجة شديدة ٢٨ شيخاً أميركياً واعترض عليه غالبية أعضاء لجنة الشئون الخارجية في الكونجرس ، وذهب رجال الكونجرس في حماسهم للصهيونية إلى حد اعتبار الكتاب الأبيض خروجاً على الاتفاق الانجليزي الأميركي لعام ١٩٢٤ بشأن فلسطين ، واعتبروا أن المادة السابعة من هذا الاتفاق تحمل الولايات المتحدة الأميركية مسئولية أدبية بحماية اليهود (٦) .

وأما بالنسبة ليهود أميركا فيشير خطاب من وزير مصر المفوض في واشنطن في ٢٤ مايو ١٩٣٩ إلى أن ثورة اليهود على الكتاب الأبيض تميزت بالشدة ، فقام الزعماء ورجال الدين باستنكار نكث بريطانيا لعهودها ولجأوا إلى عقد مؤتمرات حضرها بعض الشخصيات التي تستند على اليهود في مصالحها الخاصة مثل محافظ نيويورك ومستر واجنر عضو مجلس الشيوخ اللذين بالغا في تعضيدهما للصهيونية ، ويعزو الخطاب حملة المستر واجنر الشديدة على الحكومة البريطانية إلى كونه عضو مجلس الشيوخ عن ولاية نيويورك مركز الثقل اليهودي في الانتخابات ، كما يعزو الدافع الأكبر في سعي يهود أميركا إلى تحقيق فكرة الوطن القومي اليهودي إلى حرصهم على أموالهم التي أرسلوها إلى فلسطين لاستثمارها هناك (٧) .

ولا ترجع عدم استجابة حكومة الولايات المتحدة الأميركية للضغوط الصهيونية قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية إلى تحذيرات رجال الدين في الشرق الأدنى أو ضغوط شركات البترول بقدر ما ترجع إلى موقف الولايات المتحدة في الحياد وعدم تحمل مسئوليات

(٥) أحمد عبد الرحيم مصطفى : الولايات المتجدة والمشرق العربى ص٥٨ ·
(٦) مانويل : بين أميركا وفلسطين ص١٧٤ ·
(٧) أرشيف مجلس الوزراء المصرى : ملف ٦٤ ـ ٥/٨ جزء ثان ·

في الشرق الأدنى ، بالإضافة إلى حرص بعض المسئولين في وزارة الخـــارجية الأميركية على عدم مضاعفة متاعب بريطانيا خـــلال الحرب (٨) .

النشـاط اليهـودي والصهيـوني في الولايات المتحـدة الأمـــيركية :

ونظـراً لتوقع انقطـاع الاتصال بين المقـر الرئيسي في القـدس وبين باقي فـروع الحركة الصهيـونية عند نشوب الحرب . قـرر المؤتمـر الصهيـوني العالمي الذي عقد في جنيف في أغسطس ١٩٣٩ إنشاء مجلس طوارىء للشئـون الصهيـونية في الولايات المتحـدة الأميركية يتولى مهـام القيـــادة ويعتمد على الزعامة الأميركية المنتظرة في عـالم بعد ما الحرب العالمية الثانية ، ولم يضف مجلس الطـوارىء إلى اسمه كلمة « الأميركي » فوراً ، وبقى الدكتور وايزمان والوكالة اليهـودية يقومان بدور هـام في شئـون المجلس لكنهما كانا متلهفين على إدخال الصهيـونية الأميركية في قلب الحركة الصهيونية تمهيداً لكسب الرأي العـــام الأميركي إلى جانبهـــم .

وأخـذ الصهيونيون في نفس الوقت يثيرون فـكرة إنشاء كومنولث يهـودي يجب إنشاؤه بعد الحرب في فلسطين ، كما عارض الزعماء الصهيونيون الأميركيون في تلك المرحلة أي شكل من أشكال تقسيم فلسطين (٩) .

وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية وأصبح موقف اليهـود حرجاً للغاية في أوربا شكل اليهـود في الولايات المتحـدة الأميركية وحـدة واحدة خلف الرئيس الأميركي روزفلت وطـالبوا بإخراج أميركا من عزلتها واشتراكها في الحرب ضد ألمـانيا على أساس أن اليهـود لن يتمكنوا من الحياة إلا إذا انتصر الحلفاء على النازي . وكان الموقف على النقيض بالنسبة للعرب فلم يكن العرب نازيين كما أنهم لم يكونوا متعاطفين مع الحلفاء حتى لا يؤدي انتصارهم إلى ضياع فلسـطين (١٠) .

---

(٨) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص٥٩ .

(٩) ستيفنس : الصهيونية الأميركية وسياسة أميركا الخارجية ص ٢١ ، ٢٥ .

(١٠) مانويل : المرجع السابق ص١٧٥ .

وعمل زعماء الصهيونية منذ بداية الحرب على كسب تعاطف الولايات المتحدة الأمير كية مستغلين كراهية الأمير كيين للنازي والفاشست ضاربين على وتر واجب العالم المتمدن ومسئوليته نحو التخفيف من آلام اليهود وتعويضهم عما لا قوه من آلام على يد النازية ومساعدتهم على الاستيطان في فلسطين . وقد تأثرت الجماهير الأمير كية ولا شك بتلك الدعاية ، وانقادت إلى العاطفة الإنسانية التي أثارها الصهيونيون في نفوسهم (١١) .

فلقد أحدث الاضطهاد النازي لليهود لدى الأمير كيين بالذات شعوراً خطيراً بعقدة الذنب ، ونمى من عقدة الذنب هذه الشعور بأن الرفض الأمير كي بفتح أبواب الولايات المتحدة الأمير كية للهجرة اليهودية قبل عام ١٩٣٩ قد أسهم في اتساع أبعاد المأساة(١٢) .

ومنذ مطلع عام ١٩٤١ ، واستفادة من هذا الجو الأمير كي المتعاطف مع اليهود المضطهدين مارس الزعماء الصهيونيون وعلى رأسهم وايزمان و بن جوريون نشاطات مختلفة داخل الأوساط الصهيونية في الولايات المتحدة الأميركية بهدف الحصول على التأييد الأميركي للبرنامج السياسي الجديد الذي يدعو إلى مفهوم الدولة اليهودية . كما قام « مجلس الطوارىء الأمير كي للشئون الصهيونية » بدور بارز في التخطيط لجعل اليهود الأمير كيين يمارسون تأثيراً فعالاً في توجيه السياسة الأمير كية في الشرق الأوسط (١٣) . ونسقت جهود مجلس الطوارىء الأمير كي لدعم علاقاته مع الرأي العام الأمير كي بفضل شبكة اتصالات واسعة شملت ٧٦ ولاية وفروعاً إقليمية انقسمت بدورها إلى حوالي ٣٨٠ لجنة محلية (١٤) .

وبالإضافة إلى ذلك فقد تم تأليف عدد كبير من اللجان الأُخرى لكسب تأييد الشعب الأمير كي مثل المجلس المسيحي لشئون فلسطين الذي كان يهدف إلى تكوين موقف مؤيد من رجال الدين المسيحي للعمل الصهيوني . وساعد على نجاح ذلك المجلس في مهمته أن أكثرية الشعب الأمير كي تنتسب إلى المذاهب البروتستانتية التي تعتمد العهد القديم من التوراة كما تعتمد العهد الجديد (١٥) .

---

(١١) نجيب صدقة : المرجع السابق ص٢٥٧ ـ ٢٥٩ .

12) Cattan: Palestine, The Arabs & Israel. The Search for Justice. P 24.

(١٣) أسعد رزوق : المجلس الأميركي لليهودية ص٣٣ ، ٣٦ .

14) Hurewitz: The Struggle for Palestine. P 210.

(١٥) كامل أبو جابر : الولايات المتحدة الأميركية واسرائيل ص٦٠ .

وكان اليهود يستشهدون بوعود معينة من الكتاب المقدس أعطاها الرب إلى نسل سيدنا إبراهيم كما لو كان اليهود ـ وبشكل خاص يهود أوروبا الشرقية الذين كانوا يشكلون عندئذ أكبر نسبة من المهاجرين اليهود إلى فلسطين ـ هم وحدهم أبناء إبراهيم (١٦) .

ومن ناحية أُخرى فقد تألفت في أبريل ١٩٤١ « اللجنة الأميركية لفلسطين » برياسة السناتور روبرت واجنر بهدف « العمل كوسيلة للتعبير عن العطف الودي الذي تكنه أميركا المسيحية للحركة الرامية إلى إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين » وضمت اللجنة عدداً كبيراً جداً من الشخصيات البارزة ، فقد ضمت أكثر من ثلثي أعضاء مجلس الشيوخ ، ١٤٣ نائباً ، ٢٢ حاكماً من حكام الولايات بالإضافة إلى عدد كبير من الأدباء والناشرين ورؤساء تحرير الصحف وغيرهم (١٧) .

وعندما تم للنازي سحق يهود شرق أُوروبا أواخر عام ١٩٤١ وأوائل أبريل ١٩٤٢ تسربت تفاصيل المذابح التي ارتكبها النازي ضدهم إلى زعماء اليهود الأميركيين . وقد هزت أنباء المذابح ومعسكرات الاعتقال الرأي العام الأميركي هزاً عنيفاً ، وبلغ ذلك التأثير أشده في الطائفة اليهودية في أميركا التي قدم معظمها من شرق أوروبا ووسطها خلال الجيل السابق . وكان التساؤل الذي طرح نفسه عليهم وترك فيهم أثراً عميقاً « ألم أكن أنا نفسي أحد هؤلاء الضحايا لو أنني بقيت هناك في وطني الأول ؟ » وكان نتاج هذا الشعور اتحاد كلمة اليهود في أميركا وازدياد تطرفهم ونشاطهم وتبرعاتهم لدعم الكيان الصهيوني في فلسطين (١٨) .

مؤتمر بلتمور :

وخلال تلك الفترة كانت قيادة الحركة الصهيونية قد أزمعت أن تعلن أهدافها على المستويين المحلي والعالمي . فعلى المستوى المحلي خطب الزعيم الصهيوني بن جوريون في تل أبيب في مارس ١٩٤٢ حيث أعلن « أن الصهيونية قد انتهت من وضع خطتها النهائية

16) Cattan: Op. cit. pp 23, 24.

(١٧) أسعد رزوق : المرجع السابق ص٣٦ .

(١٨) مانويل : المرجع السابق ص١٨٥ .

وهي أن تصبح فلسطين دولة يهودية ، وأن اليهود لا يستغنون عن أي قسم من فلسطين حتى قمم الجبال وأعماق البحار » (١٩) .

وعلى المستوى العالمي عقد الصهيونيون مؤتمرهم الشهير في فندق بلتمور بمدينة نيويورك في الفترة من ٩ إلى ١١ مايو ١٩٤٢ تحت إشراف مجلس الطوارىء الأميركي للشئون الصهيونية . وحضر المؤتمر حوالي ستمائة يهودي أميركي بينهم بعض اليهود غير الصهيونيين ، ٦٧ من الصهاينة القادمين من الخارج ، كما حضر المؤتمر وايزمان وبن جوريون

ولم يكن وايزمان وبن جوريون متفقين في أسلوبهما . فقد كان وايزمان يريد استمرار المفاوضات الدءوبة مع الحكومة البريطانية لإنشاء جيش يهودي ومع المسئولين البريطانيين والأميريكيين لإبطال سياسة الكتاب الأبيض . أما بن جوريون فقد كان يريد إثارة الأميريكيين من أجل تأييد أحداث تغير سريع وجذري في سياسة فلسطين يرغم البريطانيين على الإذعان . وبينما كان وايزمان مستمراً في التفكير في تهجير اليهود إلى فلسطين بلغة الآلاف التي تتحول في بطء إلى أغلبية فإن بن جوريون كان يفكر بلغة الملايين . وبينما كان وايزمان يري من الحماقة أن يخاطر بإحداث تصدع في العلاقات الودية مع انجلترا فإن بن جوريون كان يرى أن الطريق لاكتساب تأييد الأميريكيين يعتمد على اقتراح برامج متطرفة ومثيرة (٢٠) .

وكان هناك هدفان رئيسيان لعقد هذا المؤتمر :

أولاً : الإعلان في صراحة عن أهداف الحركة الصهيونية .

ثانياً : قيام الصهيونيين الأميركيين بدور بارز في المؤتمر حتى يتمكنوا بعد ذلك من اكتساب الشعب الأميركي إلى جانب الحركة الصهيونية .

وقد تضمن برنامج بلتمور ثمان قرارات كانت أبرزها القرارات الثلاثة الأخيرة :

٦ — يدعو المؤتمر إلى تحقيق المقصد الأصلي من تصريح بلفور وصك الانتداب بإتاحة الفرصة لليهود لإنشاء كومنولث يهودي في فلسطين ، ويؤكد المؤتمر رفضه الأكيد للكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩ .

(١٩) محمد أمين الحسيني : حقائق عن قضية فلسطين ص٣٠ .
20) Sykes: Cross roads to Israel. pp 281, 282.

٧ - ينبغي الاعتراف بحق يهود فلسطين في القيـام بدورهم الكامل في المجهود الحربي وفي الدفاع عن بلادهم بواسطة قوة يهودية عسكرية تحارب تحت علمها الخـاص وتحت القيـادة العليـا للأمم الحليفـة .

٨ - يعلن المؤتمر أن نظام العالم الجديد لا يمكن إنشاوءه على أسس السلام والعدالة والمساواة ما لم تحـل مشكلة التشرد اليهودي حلاً نهائياً .

ويلح المؤتمر على ضرورة فتح أبواب فلسطين للهجرة . وأن تعطي الوكالة اليهودية سلطة الإشراف على الهجرة إلى فلسطين والسلطة اللازمة لبنـاء البـلاد . . . »(٢١) .

ولم يكن قرار المؤتمر بفتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية ناتجاً عن أحداث أوروبا بقدر ما كان راجعاً إلى موقف بريطانيا من تحديد الهجرة وعدم قناعة الصهيونيين بأن سياستها المعتمدة على الكتاب الأبيض ستحقق لهم الأغلبية اليهودية في البـلاد ، وهو ما دعاهم إلى تحدي بريطانيا والعرب والعمل على إجبارهم على تحقيق هذا الهدف(٢٢) .

ولا شك أن قرارات مؤتمر بلتمور تعتبر نصراً للسياسة الصريحة التي تبناها بن جوريون رئيس المجلس التنفيذي للوكالة اليهـودية في فلسـطين لا تلك السياسة المتحفظة التي كان يؤمن بها الدكتور وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية (٢٣) .

وجدير بالذكر أنه عند انعقاد مؤتمر بلتمور كان اليهود يشكلون في فلسطين ٣١٪ من مجموع السكان بينما كانوا يمتلكون ٥ر٥ ٪ من مساحة الأراضي في فلسطين (٢٤) .

ويلاحـظ أن العمل الصهيوني بعد مؤتمر بلتمور قد اختلف عنه قبله ، فقبل المؤتمر كانت بريطانيا تبني الوطن القومي لكنها كانت تتلاعب بالألفاظ مدعية أنها تحافظ على المصالح العربية واليهودية على السواء ، فمرة تزعم أن الوطن القومي في فلسطين شيء

(٢١) ستيفنس : المرجع السابق ص٢٥ - ٢٨ .

(٢٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص٦٠ .

23) Barbour: Nisi Dominus. A survey of the Palestine controversy. P 218.

(٢٤) منظمة التحرير الفلسطينية (مركز الابحاث) . ملف القضية الفلسطينية . اعداد سامى هداوى ، تحرير الدكتور يوسف صايغ ص٣٩ .

وتحويل فلسطين إلى وطن قومي شيء آخر ، وأخرى تزعم أن الوطن القومي لا يعني تحويل فلسطين إلى دولة يهودية ، ومرة ثالثة تدعي أن الهجرة ليست مطلقة وإنما هي متوقفة على قدرة البلاد على الاستيعاب ، إلى غير ذلك من العبارات التي حاولت بها أن تضلل عرب فلسطين وتشغلهم بالبحث عن مدلول لمقصدها ، أما العمل الصهيوني بعد بلتمور فقد أخذ خطاً سياسياً واضحاً يتلخص في سرعة العمل من أجل قيام الدولة اليهودية (٢٥) .

وكان من أهم نتائج بلتمور انتقال الحركة الصهيونية من انجلترا إلى الولايات المتحدة الأميركية (٢٦) . ولا نجد من الناحية الرسمية في الولايات المتحدة حتى عام ١٩٤٢ أي مواقف رسمية لتأييد العمل الصهيوني في فلسطين ، لكن كان هناك بعض المواقف المؤيدة مثل تلك المذكرة التي قدمها في نوفمبر – بمناسبة مرور ربع قرن على تصريح بالفور – عدد كبير من أعضاء الكونجرس الأميركي بينهم زعيما الأكثرية والأقلية في مجلس الشيوخ وستة عشر عضواً من أعضاء لجنة الشئون الخارجية فيه . وقد اعتبرت المذكرة تصريح بالفور عملاً تاريخياً وأكدت أن الحاجة إلى إقامة الوطن القومي اليهودي أصبحت أقوى مما كانت عليه عند صدور التصريح وأن على العالم المتمدن أن يمهد السبل لليهود لإعادة بناء حياتهم في فلسطين بعد إنتهاء الحرب (٢٧) .

المؤتمر اليهودي الأميركي :

ومحاولة من الحركة الصهيونية لحشد المجتمع اليهودي الأميركي خلف مقررات بلتمور وجه الزعيم الصهيوني هنري مونسكي في ٦ يناير ١٩٤٣ دعوة إلى أربعة وثلاثين منظمة يهودية لتختار مندوبيها إلى مؤتمر يهودي عقد في بتسبرج في ٢٣ يناير ١٩٤٣ بهدف قيام ممثلي المجتمع الأميركي اليهودي باستنباط برنامج مشترك عن وضع اليهود بعد الحرب وبناء فلسطين يهودية .

واختار المجتمعون لجنة تنفيذية لوضع صيغة دعوة للمؤتمر اليهودي الأميركي الذي يمكنه التحدث باسم يهود أميركا ، وتحديد موعد انتخاب المندوبين وتاريخ الاجتماع

(٢٥) مانويل : المرجع السابق ص١٧٨ ، ١٧٩ .
(٢٦) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص ٦١ .
(٢٧) نجيب صدقة : المرجع السابق ص٢٥٩ .

ومكانه وجمع الأموال اللازمة ، وأصبح عدد المنظمات اليهودية الممثلة في المؤتمر خمساً وستين منظمة . وعقد المؤتمر في ٢٩ أغسطس ١٩٤٣ (٢٨) وقرر عدم الاكتفاء بطلب إطلاق الهجرة إلى فلسطين بل تبني برنامج بلتمور الذي يدعو إلى إقامة دولة يهودية ، وكان ذلك القرار بأغلبية ٧٤٨ صوتاً ضد ٤ أصوات وامتناع ١٩ عن التصويت .

وهكذا توحدت المنظمات اليهودية الأميركية للوقوف صفاً واحداً لدعم البرنامج الصهيوني . وأعلن الحاخام إسرائيل جولدستين الرئيس الجديد للمنظمة الصهيونية الأميركية أنه أصبح مفهوماً منذ ذلك الوقت أن الحركة الصهيونية أصبحت تهدف إلى « اكتساب الموافقة الصادقة من الحكومة والشعب الأميركيين على البرنامج الصهيوني بالنسبة لفلسطين وهو البرنامج الذي أصبح الآن برنامج جميع يهود أميركا الممثلين بأعضاء المؤتمر اليهودي الأميركي المنتخبين انتخاباً ديمقراطياً » (٢٩) .

الأساليب الصهيونية لكسب الرأي العام الأميركي :

وإثر إنعقاد هذا المؤتمر استخدم زعماء الصهيونية الأميركيون أساليب مختلفة لكسب الشعب الأميركي لصالح القضية الصهيونية خاصة اليهود الأميركيين وفئات السكان التي لا تبالي بتلك الصهيونية ، وكان من تلك الأساليب النداءات الدعائية ونواحي النشاط الصحفي والنشر والاجتماعات العلنية وتجمعات الاحتجاج والمظاهرات مع تأييد الحاخامات اليهود لذلك النشاط المتعدد .

وتتبين مهارة الصهيونيين الدعائية في تلك النقاط العشرة التي اختاروها كنداءات دعائية لقضيتهم والتي ما زالوا يستخدمونها حتى الآن .

- الصهيونية هي شارة الشرف اليهودي . واليهودي الذي يهتم بشعبه يساعد في قضية فلسطين .
- أن ما تحقق من أعمال على يد الرواد اليهود في فلسطين هو نموذج حي للجنس البشري بأسره .

---

(٢٨) ستيفنس : المرجع السابق ص٢٩ ـ ٣٣ .

(٢٩) ستيفنس : نفس المارجع ص٣٨ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٣ .

- يشكل اليهود أينما وجدوا شعباً واحداً . ويجب أن يتلقى اللاجئون الأوروبيون المعونة من إخوانهم في أميركا .
- الصهيونية نضال ضد أعداء الشعب اليهودي .
- الصهيونية وسيلة بناءة لحل القضية اليهودية .
- الصهيونية تجعل اليهودية مستمرة .
- الصهيونية تضع حداً للاسامية .
- نبوءات التوراة وحاجة العالم والأعمال التي حققها اليهود في فلسطين تطلب جميعها الحل بإنشاء دولة يهودية .
- المعونة لفلسطين معناها الولاء للولايات المتحدة الأميركية ، وفلسطين هي حصن الديمقراطية في قلب الشرق الأوسط الإقطاعي .
- الحل الصهيوني يطالب بالعدالة التاريخية ، والدولة اليهودية المطلوبة ليست سوى تعويض عن المذابح المستمرة .

وكانت هناك مجلات عديدة شهيرة تساعد على نشر السياسة الصهيونية ، وزودت الصحافة الأمريكية بمئات المقالات والبيانات الموجهة لخدمة الحركة الصهيونية ، وحافظت المنظمة الصهيونية على أوثق العلاقات مع كبار مراسلي الصحف الأميركية في واشنطن ومع كتاب كبريات الصحف في نيويورك ، وعقدت المؤتمرات الصحفية ذات التأثير الفعال في واشنطن ونيويورك (٣٠) . واشتريت صفحات كاملة من الصحف الأميركية البارزة لشن الدعاية ضد الحكومة البريطانية التي اتهمت بأنها شاركت بصفحة جديدة في تاريخ استشهاد الشعب اليهودي (٣١) .

وحرصت المنظمة الصهيونية الأميركية على توزيع النشرات والكتب التي تخدم أهدافها. ففي عام ١٩٤٤/٤٣ قامت المنظمة بتوزيع أكثر من مليون نشرة على المكتبات العامة ورعاة

(٣٠) ستيفنس : نفس المرجع ص٤٥ ، ٥١ ، ٦٩ .

31) Barbour: Op. cit. P 220.

الكنائس والمراكز الاجتماعية والكتاب وغيرهم . كما ساعدت الحركة الصهيونية بأموالها عدداً من المؤلفات غير اليهودية . وربما كان كتاب الدكتور لودرميلك « فلسطين أرض الميعاد » أبرز تلك الكتب التي اهتم بها الصهاينة (٣٢) .

وأمكن للجنة الأميركية لفلسطين أن تستميل إلى عضويتها شخصيات أميركية بارزة بلغ عددها مع نهاية الحرب العالمية الثانية ٦٥٠٠ عضواً (٣٣) بينهم أعضاء في مجلس الشيوخ والنواب ووزراء وحكام ولايات وكبار موظفين وقضاة ورجال دين وكتاب وأصحاب دور نشر ورجال صناعة ، وكان من نتائج جهودها حصولها على إعلان من سبعين عضواً من أعضاء مجلس الشيوخ يربط بين فلسطين وبين مشكلة اللاجئين في أوروبا .

كما تمكن مجلس الطوارىء من شراء وقت إذاعي من ١٨٢ محطة إذاعة في الولايات المتحدة الأميركية ومن ٥٠ محطة إذاعة في كندا ، وسمع الأميركيون في ست وأربعين ولاية أصوات كبار النجوم في أدوار درامية ضمن برنامج عنوانه « فلسطين تتكلم » .
وكان من الأساليب التي اتبعتها المنظمة اليهودية الأمريكية أن يتدفق على الكونجرس الأمريكي عند نظر موضوع فلسطين ـ كما حدث عام ١٩٤٤ ـ ألوف الرسائل والبطاقات والبرقيات ، وأن يتم الاتصال عدة مرات بكل عضو من أعضاء لجنة الشئون الخارجية عن طريق دائرته الانتخابية (٣٤) .

فهل يعني ذلك أن المنظمة الصهيونية الأميركية ومعها المجالس واللجان والتشكيلات الصهيونية المختلفة قد استطاعت أن تكتسب الرأي العام الأمريكي إلى جانب القضية الصهيونية خلال مرحلة الحرب العالمية الثانية ؟ .

إن كل ما يمكن أن يقال في هذا الشأن أن المنظمة الصهيونية الأميركية وتلك التشكيلات المختلفة قد استطاعت أن تكتسب قطاعات مؤثرة من الرأي العام الأمريكي ، كما نجحت في نفس الوقت في تكتيل جهود معظم اليهود الأميركيين لخدمة القضية الصهيونية ، ولكنها

---

(٣٢) ستيفنس : المرجع السابق ص٥٢ ـ ٥٤ .

33) Hurewitz: Loc. cit. P 210.

(٣٤) ستيفنس : المرجع السابق ص٦٠ ، ٧١ ، ٨٠ ، ٨١ .

لم تنجح في ضم كل اليهود الأمير كيين إلى صفوفها . وقد كان المجلس الأمير كي لليهودية هو أبرز تلك التشكيلات اليهودية التي كانت تختلف في نظرتها ومواقفها عن التشكيلات الصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية . وقد شكل المعادون للصهيونية ذلك المجلس في أغسطس ١٩٤٣ وقامت فكرته على أن اليهود ـ كطائفة دينية ـ مرتبطون بقومية البلدان التي يعيشون بين ظهرانيها . ورفض المجلس تلك الجهود التي كانت تبذل لإقامة دولة يهودية قومية في فلسطين أو في أي مكان آخر واعتبر ذلك موقفها انهزامياً (٣٥) .

وقد ظل هذا المجلس على مدى ربع قرن من الزمان مناوئاً للفكرة الصهيونية ومجابهاً للنفوذ الصهيوني في الولايات المتحدة الأمير كية رافضاً اسباغ التفسيرات القومية الضيقة على الديانة اليهودية . وقد ظل المجلس ملتزماً هذا الموقف حتى حدث انشقاق داخلي بين أعضائه في أعقاب عدوان الخامس من يونية ١٩٦٧ (٣٦) .

ومن ناحية أخرى فإن كثيراً من الأمير كيين في تلك المرحلة رغم تعاطفهم مع اليهود المضطهدين لم يكن يؤيد فكرة إنشاء دولة في فلسطين ، ولذلك ركز الزعماء الصهاينة على الجانب الإنساني للقضية اليهودية حتى يمكن التأثير الفعال في الرأي العام الأمير كي على أساس أن ذلك سيؤدي في النهاية إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين . ولذلك فإن استمرار مشكلة اللاجئين في أوروبا دون حل كان ضماناً في حد ذاته لخلق دولة يهودية في فلسطين(٣٧) .

الرئيس روزفلت والقضية الفلسطينية :

تلك نظرة مركزة عن النشاط الصهيوني في الولايات المتحدة الأمير كية خلال الحرب العالمية الثانية . فهل كان لذلك النشاط أثره في السياسة الرسمية في الولايات المتحدة خلال تلك المرحلة ؟ وما هي المواقف الحقيقية للهيئات الرسمية في الولايات المتحدة تجاه القضية الفلسطينية ؟

---

35) Hurewitz: Op. cit. P 209.

(٣٦) أسعد رزوق : المجلس الأميركي للصهيونية ص١٣ .
ويتضمن الكتاب تفاصيل وافية عن نشأة هذا المجلس ومواقفه المختلفة من عام ١٩٤٣ حتى عام ١٩٦٨ .

(٣٧) ستيفنس : المرجع السابق ص ٦١ .

لقد اختلفت الآراء في موقف الرئيس الأمير كي روزفلت من القضية الفلسطينية خلال تلك المرحلة . فمن قائل أنه كان متعاطفاً مع فكرة الوطن القومي اليهودي ، ومن قائل أنه كان حريصاً على عدم إغضاب العرب . ولعل ذلك الغموض يرجع أساساً إلى تلك التصريحات والوعود الطيبة التي أعطاها روزفلت لكل من الجانبين كما يرجع إلى ما ذكر من روايات متناقضة عن علاقة روزفلت بالعرب .

فبالنسبة للجانب الصهيوني نجد الرئيس روزفلت يستقبل في ٩ مارس ١٩٤٤ كلا من الدكتور وايز والدكتور سلفر – وهما من رجال الدين اليهود – ويخولهما أن يعلنا عن تأييده لمطالب الصهيونيين (٣٨) . وبعد أسبوع واحد من ذلك التاريخ – أي في ١٦ مارس ١٩٤٤ – عبر الرئيس الأمير كي في تصريح رسمي عن عدم موافقة الحكومة الأمير كية على الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩ ، وأن الرئيس الأمير كي سعيد بفتح أبواب فلسطين أمام اللاجئين اليهود ، وأن الحكومة والشعب الأمير كي كانا يشعران بالعطف العميق تجاه إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، وأنها أصبحت تشعر بذلك أكثر من أي وقت مضى « نظراً للنكبة المحزنة التي حلت بمئات الالوف من اللاجئين اليهود الذين لا وطن لهم » (٣٩) .

وأما بالنسبة للعرب فقد جرت خلال الحرب العالمية الثانية اتصالات بين الرئيس روزفلت وبين بعض الملوك والرؤساء العرب كان أبرزها تلك الاتصالات التي جرت مع الملك عبد العزيز آل سعود ، والتي حاول فيها الملك أن يوضح للرئيس روزفلت حقيقة الأمور في فلسطين وقيام الصهيونيين ببعض أعمال الإثارة في المنطقة ثم ضغطهم على الحلفاء لتبني خطة معادية للمصالح العربية . وقد أكد الرئيس روزفلت للملك عبد العزيز في تلك الاتصالات أنه لن يقوم بأي عمل عدائي ضد الشعب العربي وأنه لن يتخذ قراراً يخص الوضع الأساسي في فلسطين دون استشارة تامة مع العرب واليهود ، وأن سياسة الحكومة الأمريكية في هذا الشأن غير متغيرة (٤٠) .

والمتمعن في تلك التأكيدات التي أعطاها روزفلت للملوك والرؤساء العرب يدرك أن روزفلت يعد بشيء محدد وهو أنه لن يتخذ قراراً في المسألة الفلسطينية دون استشارة العرب.

---

(٣٨) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص٦٢ ·
(٣٩) جامعة الدول العربية : المرجع السابق · المجموعة الأولى ص٣٤٠ ·
(٤٠) جامعة الدول العربية : نفس المرجع ص٣٤٦ ، ٣٥١ ·

وقد تم استشارتهم فعلاً عن طريق الاتصالات والمشاورات ، ومن الطبيعي ألا يكون هذا التشاور ملزماً للرئيس الأميركي (٤١) . فوعده للعرب هو في حقيقة أمره غير ذى شأن لأنه يقتصر على الاستشارة غير الملزمة لصاحبها .

ويبدو أن الملوك والرؤساء العرب قد فهموا من هذه العبارة التي كررها روزفلت في أكثر من مناسبة أن ذلك يعني التزاماً أميركياً بالحفاظ على المصالح العربية أو على الأقل عدم الإضرار بحقوق العرب في فلسطين . لكن الحقيقة أن تلك العبارة أو ذلك التعهد يفهم منه بالدرجة الأولى أن الولايات المتحدة قد أخذت على عاتقها المشاركة في الحل النهائي للمسألة الفلسطينية (٤٢) .

ويلاحظ أن هناك وجه شبه بين الوعود الأميركية والبريطانية للعرب ، فهي تصاغ جميعها بطريقة لولبية مطاطة غير محددة النتائج أو الالتزامات لكن العرب أحياناً يحملون تلك العبارات أكثر مما تحتمل ، ثم يبنون نتائج مختلفة على تلك المفاهيم دون أن يدركوا المعاني الحقيقية لتلك الوعود .

وأما عن الروايات المتناقضة عن علاقة الرئيس روزفلت بالعرب ، فنجد بعض المراجع تذكر أن رسالة روزفلت إلى عبد العزيز آل سعود المؤرخة في ٥ أبريل ١٩٤٥ كانت دسيسة من وزارة الخارجية الأمريكية التي أعدت الرسالة في الأيام الأخيرة من حياة روزفلت فوقع على الرسالة في وقت لم يكن يستطيع فيه ممارسة نشاطه العادي (٤٣) . بينما يذكر مرجع آخر أن مقابلة العاهل السعودي للرئيس روزفلت عام ١٩٤٥ قد أثرت في الرئيس الأميركي الذي صرح فيما بعد للقاضي بروسكاور رئيس اللجنة الصهيونية الأمريكية بأنه لن يمكنه عمل شيء فيما يتعلق بفلسطين (٤٤) .

ولا شك أن الرواية الأولى مستبعدة ، فلم تكن رسالة روزفلت إلى الملك عبد العزيز في ٥ أبريل ١٩٤٥ هي أولى الرسائل وإنما سبقها على مدى السنوات السابقة رسائل واتصالات

(٤١) نجيب صدقة : المرجع السابق ص٢٧٤ ، ٢٧٥ .

42) Hurewitz: Op. cit. P 213.

(٤٣) مانويل : المرجع السابق ص١٨٤ .

(٤٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص٦٤ .

مماثلة وفي ظروف طبيعية بالنسبة للرئيس الأمير كي . أما الرواية الثانية فهي غير مستبعدة . ومن الممكن أن يكون لقاء الملك عبد العزيز بالرئيس روزفلت قد ترك أثراً طيباً في نفس الرئيس الأمير كي ، لكن ذلك لا يعني تخليه عن تعهداته بالنسبة لليهود ، ولا يترتب عليه استجابة للمطالب العربية .

فالرئيس الأمير كي روزفلت كان فعلاً شخصية معتدلة لكنه كان يعبر في النهاية عن مصالح أمته وإن كانت شخصيته بطبيعة الحال تترك بصماتها على السياسة الأمريكية سواءً بالنسبة لطريقة التنفيذ أو أساليب التعبير عن المواقف . ويعبر كتاب مرسل من وزير مصر المفوض في واشنطن إلى وزارة الخارجية المصرية في القاهرة عن هذا المعنى . فبعد صدور الكتاب الأبيض البريطاني لعام ١٩٣٩ بشأن فلسطين ورغم ثورة اليهود الكبيرة في الولايات المتحدة الأمير كية على هذا الكتاب ، لكنهم عندما سعوا لدى الرئيس روزفلتووزير خارجيته لاستغلال نفوذهما لدى بريطانيا للتراجع عن سياسة الكتاب الأبيض لم يتعهدا بتقديم المساعدة (٤٥) .

ولقد قام الدكتور وايزمان بزيارة إلى أمير كا عام ١٩٤٢ ، وقبيل انتهاء زيارته التقى مع الرئيس الأمير كي روزفلت في مقابلة طويلة حاول خلالها الدكتور وايزمان أن يثيره ضد العرب مصوراً إياهم بغير حقيقتهم . فقد اخبر الدكتور وإيزمان الرئيس روزفلت أن اليهود لا يستطيعون أن يربطوا قضيتهم بموافقة العرب ، وأنه طالما كانت موافقتهم مطلوبة فسوف يرفضون طبيعيا الاستجابة ، أما إذا عرفوا أن المستر تشرشل والرئيس روزفلت كليهما يؤيدان الوطن القومي اليهودي فسوف يرضخون ، لكنهم في اللحظة التي يشعرون فيها بضعف في ذلك التأييد فإنهم يتحولون إلى رافضين ومتعجرفين ومخربين . ومع أن الدكتور وايزمان يذكر أن الرئيس روزفلت كان إيجابياً للغاية ، لكن المقابلة انتهت بتأكيد الرئيس روزفلت تعاطفه مع اليهود دون أن يقدم لوايزمان أية تعهدات محددة (٤٦) .

وبالرغم من أن الرئيس روزفلت – مثل من سبقه من الرؤساء الأمير كيين – كان يرسل تحياته إلى المؤتمرات السنوية للمنظمة الصهيونية في أمير كا ، فإن صياغة تلك الرسائل –بما

(٤٥) أرشيف مجلس الوزراء المصرى : الملف ٦٤ ـ ٨/٥ جزء ثان .

46) Weizmann: Trial and Error. P 534.

فيها الرسالة التي وجهها إلى المؤتمر الذي عقد في سبتمبر ١٩٤٣ ـ كانت متحفظة دائماً ، ولم تتضمن إطلاقاً أية تعهدات أميركية رسمية (٤٧) .

بل أن الرئيس روزفلت كان يريد حل مشكلة المضطهدين اليهود في أوروبا عن غير طريق فلسطين ، فقد حاول مساعدتهم على الهجرة إلى أميركا أو إلى أية أماكن أخرى ، لكن الصهيونيين عارضوا تلك المحاولة وهاجموها لأسباب سياسية صرفة تقوم على رغبتهم في تحويل الهجرة إلى فلسطين بالدرجة الأولى . وها هو موريس ايرنست الذي عهد إليه الرئيس روزفلت بوضع خطة تهجير اليهود يوضح ردود الفعل لدى الصهاينة .

« لقد استغربت بل شعرت بالمهانة عندما أخذ القادة اليهود المؤثرون يشجبون ويسخرون ثم يهاجموني وكأنني خائن . . . إن أصدقائي من الصهيونيين يعارضون . . . وانني أستطيع معرفة السبب . . . إن زعماء هذه الحركات يجب أن يكونوا قد شعروا أن نظريتهم العزيزة لديهم أصبحت في خطر داهم بسبب سخاء مخطط روزفلت وما ينطوي عليه من إنسانية » (٤٨) .

مشروع لتصفية قضية فلسطين :

ولقد أشير في مذكرات الدكتور وايزمان إلى أمر يستحق أن نقف عنده قليلاً . فقد أشار وايزمان إلى أنه عندما ذهب إلى أميركا كان قد أخذ تأكيدات من المستر تشرشل بأنه لديه خطة للصهاينة تقوم على أن يصبح الملك عبد العزيز آل سعود زعيماً للشرق الأوسط ، وأن تشرشل يمكنه تنفيذ تلك الخطة بمساعدة روزفلت وأن نهاية الحرب العالمية سوف تشهد تغييراً في وضعية الوطن القومي اليهودي ، وأن الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩ سوف يذهب ، وأن الرئيس روزفلت طلب من وايزمان أن يبلغ تشرشل رد فعله الإيجابي لأفكار تشرشل .

ويضيف وايزمان أنه طوال مقابلته للرئيس الأمريكي ـ والتي حضرها المستر ويلز مساعد وزير الخارجية الأمريكية ـ فإن المستر ويلز كان صريحاً في تعاطفه مع مشروعات

47) Hurewitz: Loc. cit. P 213.

(٤٨) كامل أبو جابر : المرجع السابق ص٦٥ ، ٦٦ ، ستيفنس : المرجع السابق ص١١٧ ، ١١٨ .

وايزمان ، كما عبر عن ثقته بأن أمير كا سوف تكون مستعدة للمساعدة مالياً في إنشاء الوطن القومي اليهودي ، ويضيف وايزمان أنه لم تبحث تفاصيل الموضوع لكن مستر ويلز كان قد قرأ مقالة وايزمان في مجلة « الشئون الخارجية » واتفق معه في أفكارها (٤٩) .

فما هو ذلك المشروع الذي أبدى مساعد وزير الخارجية الأمريكية استعداد بلاده للمساعدة مالياً في تنفيذه ؟

لقد أشارت بعض المراجع إلى أن المقصود من ذلك هو ذلك المشروع الذي سبق أن عرضه فيلب لتسوية المسألة الفلسطينية والذي كان يقوم على الأُسس التالية :

١ — أن تترك فلسطين بأجمعها لليهود .

٢ — يتم توطين العرب الذين يتركون فلسطين إلى أماكن أُخرى على نفقة اليهود ، ويوضع مبلغ عشرين مليوناً من الجنيهات الاسترلينية تحت تصرف الملك عبد العزيز آل سعود لهذا الغرض .

٣ — يعترف باستقلال جميع البلدان العربية في آسيا باستثناء محمية عدن .

٤ — تقترح كل من بريطانيا والولايات المتحدة هذه الخطة على الملك عبد العزيز آل سعود وتضمنان تنفيذها في حالة قبول العرب لها .

وقد قيل أن وايزمان وموسى شرتوك طلبا من فيلبي أن يحاول الحصول على موافقة الملك عبد العزيز على ذلك المشروع وأنه عرضه فعلاً على الملك عبد العزيز في يناير عام ١٩٤٠ لكن محادثاته لم تسفر عن شيء (٥٠) .

ولا شك أن مشروع فيلبي كان صحيحاً . فقد تحدث عنه وايزمان في مذكراته وربط بينه وبين الخطة التي عرضها عليه المستر تشرشل (٥١) . كما روى أمين الحسيني أن الرئيس روزفلت عرض على الملك عبد العزيز آل سعود عندما التقى به في فندق الفيوم

49) Weizmann: Op. cit. Pp. 534, 535.

(٥٠) ستيفنس : المرجع السابق ص١٢٢ ، ١٢٣ .

51) Weizmann: Op. cit. Pp. 525—527.

بمصر عام ١٩٤٥ عشرين مليون جنيه ذهباً لتنفيذ المشروع ، وأن آخرين أيضاً تحدثوا مع مع الملك عبد العزيز في نفس الموضوع ، لكن الملك عبد العزيز رفض بشدة وإباء تنفيذ ذلك المشروع (٥٢) .

الانتخابات الأمريكية وأثرها على القضية :

ومن ناحية أخرى فعلينا ألا ننسى عند تحليل تصريحات الرئيس روزفلت ومواقفه من القضية الفلسطينية أن الرئيس روزفلت كان رئيساً للحزب الديمقراطي في الولايات المتحدة الأمريكية . ومن الطبيعي أن يعبر رئيس الحزب عن إتجاهات حزبه وقراراته . ولم يكن في استطاعة روزفلت أن يسكت عن إبداء رأيه في المسألة الفلسطينية أو أن يقول شيئاً مخالفاً لرأي حزبه خاصة عند اقتراب موعد انتخابات الرياسة الأمريكية (٥٣) .

ولقد أحسن الصهيونيون استغلال فرصة الانتخابات الأمريكية لمساومة الحزبين الرئيسيين على منح الأصوات اليهودية للحزب الذي يوافق على تحقيق مطالبهم في فلسطين وهو ما دفع الحزبين إلى التنافس لخطب ودهم واكتساب تأييدهم (٥٤) .

ولا شك أن انتخابات الرياسة الأمريكية تشكل عاملاً هاماً في تأييد الرؤساء الأمريكيين للقضية الصهيونية وفي اندفاع بعضهم في دعم الكيان الصهيوني في فلسطين إلى أقصى درجات التأييد والدعم .

ولا ترجع أهمية أصوات اليهود في الولايات المتحدة الأمريكية إلى قيمتها العددية . فاليهود لا يشكلون سوى ٣ ٪ من مجموع السكان ، وإنما ترجع إلى تركز معظم يهود الولايات المتحدة في عدد محدود من المدن الكبرى المزدحمة بالسكان خاصة في مدينة نيويورك وولاية كاليفورنيا وهو ما تبرز أهميته نتيجة للنظام الانتخابي في البلاد .

وتسير انتخابات الرياسة في الولايات المتحدة الأمريكية على مبدأ « كل شيء أو لا شيء » إذ يحصل المرشح الفائز على كل الأصوات الانتخابية في الولاية . وهذا يوضح أهمية الفوز

---

(٥٢) محمد أمين الحسيني : المرجع السابق ص٣٢ .

(٥٣) أرشيف مجلس الوزراء المصرى : تقرير رقم (١٧) فى ١٩ اكتوبر ١٩٤٤ من القنصل العام لمصر بالقدس عن حديث لقنصل الولايات المتحدة العام بالقدس .

(٥٤) محمد محمود السروجى : السياسة الخارجية الأميركية ص٣٩٣ .

بالولايات المزدحمة بالسكان إذ تشكل ولايات نيويورك وكاليفورنيا وبنسلفانيا والينوى وماساشوستس وأوهايو ١٧٨ صوتاً انتخابياً من ٢٢٦ وهي مجموع الأصوات اللازمة للفوز بانتخابات الرياسة .

ونظراً لأن ٤٠ ٪ من مجموع اليهود في الولايات المتحدة الأمريكية يعيشون في مدينة نيويورك وحدها ، بينما يوجد حوالي ٣٥ ٪ بولايات كاليفورنيا وبنسلفانيا والينوى وماساشوستس وأوهايو فإن ذلك يعطي لأصوات اليهود قيمة كبيرة خاصة إذا كان المرشح في انتخاب الرياسة في حـاجة إلى أصواتهم .

ومن ناحية أخرى فإن اليهود في الولايات المتحدة الأمريكية ينفقون أموالاً طائلة في الدعاية الانتخابية لمن يساندونه من المرشحين ، فقد بلغ مقدار ما أنفقوه في الانتخابات النيابية عام ١٩٧٠ لمساعدة مرشحي الحزب الديمقراطي ٦٤ مليون دولار وهو ما يدفع المرشحين إلى العمل على اكتساب تأييدهم ومساندتهم (٥٥) .

ولا شك أن عاملي الأصوات والأموال التي تنفق بالإضافة إلى حسن استغلال اليهود لهما للتأثير في مرشحي الرياسة الأمريكية يحققان نتائج طيبة بالنسبة للقضية الصهيونية . فقد دفع ضغط السياسة المحلية في انتخابات الرياسة لعام ١٩٤٤ مرشح الحزب الجمهوري جون ديوى (في ١٢ أكتوبر ١٩٤٤) وبعد ذلك مرشح الحزب الديمقراطي روزفلت (في ١٥ أكتوبر ١٩٤٤ (٥٦) إلى التحدث في القضية الفلسطينية .

ويعزى قيام روزفلت بتأييد برنامج بلتمور بعد أن تجنب حتى ذلك الوقت الادلاء بأي تصريح علني إلى مخاوف الديمقراطيين الانتخابية عام ١٩٤٤ ، وقد تجلى ذلك في الكتاب الذي بعثه الرئيس روزفلت إلى واجنر عضو مجلس الشيوخ طالباً إليه أن ينقل محتوياته إلى إجتماع عقدته المنظمة الصهيونية . فبعد أن استهل الكتاب بمواد وردت في برنامج الحزب الديمقراطي الذي أعلن في يوليو ١٩٤٤ وتأييد إقامة دولة يهودية في فلسطين ذكر الرئيس روزفلت العبارة التالية :-

---

(٥٥) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص٥٣ ، ٥٤ .

(٥٦) أحمد فراج طايع : صفحات مطوية عن فلسطين ص٣٥ .

« ستبذل الجهود للعثور على السبل والوسائل الملائمة لتنفيذ هذه السياسة في أقرب وقت ممكن عملياً . فإني أعلم كم مضى من الوقت على الشعب اليهودي ، وكم جاهد وصلى لإقامة فلسطين دولة يهودية حرة ديمقراطية . وإني مقتنع بأن الشعب الأمريكي يؤيد هذا الهدف ، وإذا أعيد انتخابي سأساعد على تحقيقه » .

لكن بمجرد أن انتهت الانتخابات بفوز الحزب الديمقراطي بالرياسة عاد روزفلت إلى سياسته المعتدلة التي عرف بها . ففي رسالة منه إثر الانتخابات إلى واجنر عضو مجلس الشيوخ قال الرئيس روزفلت :

« وهناك الصعوبة الوحيدة في أي عمل إضافي يقوم به أي من مجلسي الكونجرس بشأن فلسطين في الوقت الحاضر . ففي تلك البلاد الآن نحو نصف مليون يهودي ، ويحتمل أن مليوناً آخر منهم يريدون الذهاب إلى هناك ، وهم من جميع الفئات ــ منهم الطيبون والأشرار ومنهم من لا يهمهم الأمر ــ وفي الناحية الأُخرى من الصورة يوجد نحو سبعين مليون مسلم يريدون ذبح هؤلاء اليهود يوم نزولهم إلى البر . والأمر الوحيد الذي أُريد اجتنابه هو المذبحة أو نشوء موقف لا يمكن حله بمجرد الأقوال . وكل ما يقال أو يعمل هنا الآن من شأنه أن يزيد في الوقود للنار المشتعلة . وأرجو أن لا يقوم في هذا الوقت أي فرع من فروع الحكومة بأي عمل . فكل إنسان يعلم ما هي الآمال الأميركية . فإذا أكثرنا من الكلام عنها سببنا الضرر في التحقيق » (٥٧) .

واضح من هذين الخطابين الموجهين من الرئيس الأميركي روزفلت إلى واجنر أن مواقف الرئيس الأمريكي كانت مواقف متغيرة طبقاً لما تقتضيه مصلحة الولايات المتحدة الأميركية ثم مصلحة الحزب الديمقراطي . ولا يعني ذلك أن تلك المواقف لم تكن مواقف مبدئية ، فليس ذلك ما أقصده بطبيعة الحال . إنما أقصد أن الولايات المتحدة لها مصالح أساسية في منطقة الشرق الأوسط متمثلة على الجانب العربي في مصالحها السياسية والبترولية والاستراتيجية ، ومتمثلة على الجانب اليهودي في إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين كقاعدة أساسية للغرب في المنطقة . هذه مصالح أساسية ولا شك ، لكن هناك إلى جانب تلك المصالح عوامل أُخرى قد تكون ثانوية حيناً وقد تقرب أن تكون أساسية حيناً آخر ،

---

(٥٧) ستيفنس : المرجع السابق ص١٣٤ ــ ١٣٨ .

منها الاستفادة من أصوات اليهود وأموالهم في الانتخابات ، ومنها الضغوط الاعلامية والاقتصادية الصهيونية ، ومنها احتمال حدوث موقف عربي يهدد المصالح الأميركية ، ومنها إتجاهات الرئيس الأميركي وميوله الفكرية والنفسية تجاه قضية معينة . هذه العوامل الثانوية قد تبرز أحياناً على السطح وتبدو وكأنها عامل أساسي في الموقف ، وقد تختفي أحياناً وتظهر العوامل الأساسية وحدها ، وقد يخفف إتجاه الرئيس الأميركي من حدة موقف معين . لكن العوامل الأساسية المتمثلة في مصلحة الولايات المتحدة الأميركية تبقى هي العوامل المؤثرة في المواقف وفي إتخاذ القرارات وفي مساندة قضايا محـــددة .

ليس هنـــاك إذن تناقض في سياسة الرئيس الأميركي روزفلت تجاه القضية الفلسطينية . وروزفلت في النهاية ليس سوى معبر عن المصالح الأميركية التي كانت تتبلور في تلك الفترة في إتجاهات محددة لمواجهة مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية . وكانت السياسة الأمريكية في تلك الفترة مؤيدة لقيام الوطن القومي اليهودي في فلسطين لكنها كانت حريصة أيضاً على محاولة كسب العرب وتجنب إغضابهم دعماً لمصالحها في المنطقة العربية ، واستعداداً لشغل ذلك الفراغ الذي يمكن أن ينشأ نتيجة للانسحاب البريطاني والفرنسي من المنطقة .

وقد تركت تلك السياسة الأمريكية التي حاولت أن تبدو متوازنة وذلك الاعتدال في الأسلوب والنظرة الذي اتسمت به مواقف الرئيس روزفلت – تركت انطباعاً طيباً لدى كبار المسئولين العرب فترة الحرب العالمية الثانية . هذا الانطباع هو الذي دفع الملك عبد العزيز آل سعود إلى أن يقول للرئيس روزفلت في رسالته المؤرخة ١٠ مارس ١٩٤٥ أنه « واثق من إنصاف العرب من قبل دول الحلفاء » وهو الانطباع الذي جعل شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية في ذلك الوقت يقول للقائم بالأعمال المصري في دمشق في مقابلة بينهما في ٢٢ مارس ١٩٤٥ إثر التصريحات التي أدلى بها الرئيس روزفلت بشأن الهجرة اليهودية أنه كان يظن في بادىء الأمر أن تلك التصريحات مكذوبة نسجها خيال الدعاية الصهيونية أو الفرنسية لإ ثارة العرب ضد الأميركيين ، وأنه يعتقد أن تلك التصريحات لا تعبر عن الرأي الحقيقي للرئيس الأميركي ، وأنه يفهم أن الرئيس روزفلت حريص على إرضاء اليهود ظاهرياً في الوقت الحاضر ، وأنه « قد يكون من المفيد لقضية الحلفـــاء أن يذيع الرئيس روزفلت مثل تلك التصريحات بشرط أن تكون من قبيل تصريحات لويد

جورج » (٥٨) .

والحقيقة أن الرئيس الأمير كي كان يعرب فعلاً لا عن رأيه الحقيقي فحسب بل عن الرأي الذي يتفق والمصالح الأمير كية ، الرأي الذي سبق أن عبر عنه الرئيس ويلسون عندما وافق على نص تصريح بالفور قبل إصداره ، وعبر عنه الكونجرس الأمير كي بموافقته على إنشاء الوطن القومي اليهودي في ١١ سبتمبر ١٩٢٢ .

وزارة الخارجية الأمير كية والقضية :

وكانت وزارة الخارجية الأمير كية أكثر الجهات المسئولة في الولايات المتحدة تعبيراً عن المصالح الأمير كية في العالم العربي بل إنها كانت تعترض على إتجاه الرئيس روزفلت لتأييد المطالب الصهيونية . ولم يكن ذلك راجعاً إلى مجرد كون كبار المسئولين في الوزارة شديدي العداء للصهيونية بل أيضاً إلى أن ذلك التأييد كان يثير قلقاً بالغاً في العالم العربي (٥٩) .

وقد كانت المصالح الأمير كية في الشرق العربي في تلك الفترة تنمو من خلال مؤسسات ومراكز عدة : فقد كان هناك مركز التموين الإنجليزي الأمير كي ، وبعثات عسكرية أميريكية ومستشارون أمير كيون في عدد من البلاد العربية والإسلامية ، وأعمال تجارية وسياسية مختلفة ، بالإضافة إلى ازدياد الاهتمام الأمير كي بمخزون البترول في المملكة العربية السعودية ، وقد أدت تلك الاستثمارات والمصالح إلى تقوية الرغبة الأمير كية الرسمية في إنشاء علاقات طيبة مع الأقطار العربية (٦٠) .

وقد عبرت وزارة الخارجية الأمير كية عن استيائها في أوائل ١٩٤٤ حين علمت أن مشروعات قرارات تستند إلى برنامج بلتمور قدمت إلى الكونجرس الأمير كي ، وكانت تخشى أن تؤدي الموافقة على تلك المشروعات إلى عرقلة المفاوضات الجارية مع ابن سعود

---

(٥٨) أرشيف مجلس الوزراء المصرى : الدوسيه ٦٤ ـ ٣/١ جزء ٣ ·
حديث لرئيس الجمهورية السورية فى مقابلة مع القائم بالأعمال المصرى بالنيابة ·
(٥٩) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص٦٢ ·
(٦٠) مانويل : المرجع السابق ص١٨١ ، Barbour: Op. cit. P 222

حول خط الأنابيب عبر شبه الجزيرة العربية ، وهي الأنابيب التي كان القادة العسكريون في الولايات المتحدة يعتبرونها حيوية بالنسبة لأمن الولايات المتحدة الأمريكية (٦١) . بل إن وزير الخارجية الأمريكية أكد في يناير ١٩٤٤ أن بلاده لا دخل لها في شئون فلسطين وأنه لا يهمها أكثر من إظهار العطف على اليهود المضطهدين في أوروبا . وكتب وزير الخارجية الأمريكية في ١٨ يناير ١٩٤٤ رسالة إلى السناتورماينك رداً على احتجاج له بقوله : « إن حكومة أمريكا تعتبر فلسطين هذه أمانة في عنق بريطانيا ، وأنه ليس لنا نحن أن نتدخل فيها » (٦٢) .

وقد عبر قنصل الولايات المتحدة الأمريكية بالقدس عن هذا المعنى في حديث له مع الدكتور محمود فوزي القنصل المصري العام بالقدس في ١٩ أكتوبر ١٩٤٤ حين قال معلقاً على التصريحات الأمريكية لصالح اليهود « فإنه سيكون في إمكاننا مستقبلاً التحلل من وعودنا كما تحللت انجلترا قبلنا من وعود كثيرة أعطتها . ثم إنا سنقول كذلك أن كل ما علينا عمله هو إبداء رغباتنا ، وأن الأمر الطبيعي هو أن تحل المسألة الفلسطينية في لندن ، وبتلك الطريقة ننقل المسئولية إلى انجلترا ، كما فعلت هي كثيراً ولازالت تفعل بمحاولتها إفهام الناس والعرب خصوصاً أن كثيراً مما تعمله إنما يحصل مجاملة لأمريكا وتحت الضغط الأمريكي » (٦٣) .

ويبدو أن البريطانيين كانوا يفكرون في نفس الوقت وبنفس الطريقة في إلقاء الكرة إلى الأمريكيين . فيتضح من قرار لحزب العمال البريطاني اتخذه في ديسمبر ١٩٤٤ أن الحزب كان يسعى لكسب عطف وتأييد الحكومة الأمريكية في تنفيذ سياسة فلسطينية تقوم على الفكرة التالية « فليشجع العرب على الخروج بينما اليهود يدخلون . . . » (٦٤) لكن الموقف سينتهي بعد الحرب العالمية الثانية باستقرار الكرة الفلسطينية لدى الأمريكيين الذين سيتحملون المسئولية الأساسية في بنـــاء الدولة اليهودية في فلسطين .

---

(٦١) احمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص٦٢ ٠
(٦٢) مانويل : المرجع السابق ص١٧٩ ٠
(٦٣) ارشيف مجلس الوزراء المصرى : تقرير رقم ١٧ لسنة ١٩٤٤ عن حديث لعميد الهيئة القنصلية بالقدس قنصل الولايات المتحدة العام ٠
(٦٤) جامعة الدول العربية : الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين ٠ المجموعة الأولى ص٣٤٤ ٠

لكن رغم ذلك الموقف المتمشي مع الحفاظ على المصالح الأمريكية من وزارة الخارجية الأمير كية ، فإن الكونجرس الأمير كي كان يأخذ موقفاً مختلفاً . فقد اتخذ الكونجرس الأمير كي في يناير ١٩٤٤ قراراً تبنى فيه المطالب الصهيونية . فوافق على قيام الدولة اليهودية وتشجيع الهجرة اليهودية غير المحدودة ، وحظى القرار بتأييد الحزبين الديمقراطي والجمهوري (٦٥) .

وعندما بدأت لجنة الشئون الخارجية بمجلس الشيوخ الأمير كي في مارس من نفس العام تناقش تلك السياسة وتبحث اقتراحاً بإقامة دولة يهودية في فلسطين قدمت احتجاجات من بعض الدول العربية وعلى رأسها مصر والمملكة العربية السعودية فطلب وزير الحربية الأمير كي إيقاف بحث الاقتراح لاعتبارات عسكرية وتم الاستجابة إلى طلبه (٦٦) .

وكان لذلك رد فعله العنيف لدى الصهيونيين في الولايات المتحدة الأمير كية ، فقابل وفد منهم الرئيس الأمير كي الذي عبر لهم عن تلك المعاني التي وردت في تصريحه الصادر في ١٦ مارس ١٩٤٤ — والسابق الإشارة إليه — لكن وزارة الحربية عادت فأعلنت في أكتوبر ١٩٤٤ أن الموقف الحربي لم يعد حرجاً مثلما كان في مارس ١٩٤٤ ، وأنه ليس هناك ما يمنع من مناقشة السياسة الجديدة الخاصة بقضية فلسطين .

وفي الوقت الذي رفعت فيه وزارة الحربية الأمير كية تحفظها اعترضت وزارة الخارجية على تنفيذ قرار الكونجرس بحجة أن الموقف الدولي لا يسمح بذلك . ويرجع تحفظ الخارجية الأمير كية في تأييدها للصهيونية إلى نفس موقفها الثابت في ذلك الموقف وهو حرصها على على الحفاظ على المصالح الأمير كية في العالم العربي وقد حاول الصهاينة في الولايات المتحدة الأمير كية إثارة الكونجرس ضد وزارة الخارجية بزعم حدوث مؤامرات من وزارة الخارجية الأمير كية ضدهم . وكان الشيخ الأمير كي عمانوئيل سيلر أشهر رجال الكونجرس حملة على الخارجية الأمير كية في هذا الشأن ، لكن الحقيقة أنه لم تكن هناك مؤامرات في وزارة الخارجية الأمير كية . وإنما كانت الخارجية الأمير كية تدافع عن المصالح الأمير كية في العالم

---

(٦٥) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص٦١ .

(٦٦) نجيب صدقة : المرجع السابق ص٢٦١ .

العربي ، لكن ضغوط الكونجرس الأميركي نجحت في نهاية الأمر في كسب التأييد الأميركي الرسمي (٦٧) .

الحزبان الجمهوري والديمقراطي والقضية :

وأما عن موقف الحزب الجمهوري فلقد أصدر الحزب قراراً في ٢٧ يونية ١٩٤٤ يدعو فيه إلى فتح أبواب فلسطين لهجرة اليهود غير المقيدة وتملكهم الأراضي لكي تصبح فلسطين كومنولث حر ديمقراطي ، وأدان الحزب الرئيس الأميركي لتقصيره في تحقيق هذا الهدف .

ولم يلبث الحزب الديمقراطي أن اتخذ قراراً مماثلاً في مؤتمره الذي عقد في ٢٤ يوليو ١٩٤٤ يحبذ فيه « فتح أبواب فلسطين لهجرة يهودية غير محددة ولاستعمار يهودي ، واتخاذ سياسة من شأنها أن تؤدي إلى إنشاء كومنولث يهودي ديمقراطي هناك » (٦٨) .

وقد حاولت الحركة الصهيونية الضغط على الرئيس روزفلت كي يبحث مطالبها في مؤتمر يالطة الذي عقد في الفترة من ٣ إلى ١١ فبراير ١٩٤٥ على أمل أن يحصلوا على دعم دولي ، لكن روزفلت لم يستجب إلى هذا الضغط ، وأعلن بعد عودته من المؤتمر واجتماعه بالملك عبد العزيز آل سعود « إني علمت من مشاكل العرب والمسلمين واليهود في خلال أحاديثي مع ملوك العرب ورؤسائهم مدة خمس دقائق أكثر مما تيسر لي علمه بالرسائل المتبادلة مهما كثرت . . . » (٦٩) .

أما حكومة الولايات المتحدة الأميركية فإنها لم تأخذ خلال الحرب العالمية الثانية أي موقف رسمي من القضية الفلسطينية ، كما أن ترومان ــ الذي كان قد تولى رياسة الولايات المتحدة بعد وفاة الرئيس روزفلت في ١٢ أبريل ١٩٤٥ ــ تردد في اتخاذ موقف صريح مؤيد للصهيونية في مؤتمر بوتسدام لأن الحرب لم تكن قد انتهت بعد مع اليابان ، وصرح عقب عودته إلى واشنطن بأن الولايات المتحدة الأميركية غير مستعدة لإرسال نصف مليون

(٦٧) مانويل : المرجع السابق ص١٧٩ ــ ١٨٢ ·
(٦٨) جامعة الدول العربية : المرجع السابق ص٣٤٢ ·
(٦٩) مانويل : المرجع السابق ص١٨١ ·

جنـدي إلى فلسطين للمحافظة على أرواح المهاجرين اليهـود ، لـكن ترومان لم يلبث أن أصبح من أشد السـاسة تحيزاً للحـر كة الصهيونية (٧٠) . وبدأت بعـد الحرب العالمية الثانية سياسة أمير كية جديدة أسـاسها التحيز السافر للمطالب الصهيونية دون اعتبار للمصالح العربية (٧١) .

سـمات السياسة الأمـير كية تجـاه القضيـة خـلال الحرب :

ولعـل من المفيـد في نهاية البحث أن نبرز أهم السمات التي تميزت بها السياسة الأمير كية تجـاه المسألة الفلسطينية خـلال الحرب العالمية الثانية :

أولاً : أنه لم يكن هنـاك خـط واضح لسياسة الولايات المتحـدة الأمير كية تجـاه المسألة الفلسطينية أو تجـاه الحـل النهائي لها . ويبدو أن روزفلت كان يعتقد بإمكان التوصل إلى حـل وسـط أو تسوية للموقف في فلسطين (٧٢) . فقد أخبر الرئيس روزفلت الدكتور وايزمان عام ١٩٤٢ أنه تواق إلى تسوية المسألة الفلسطينية ، كما عبر لونستون تشرشل في مالطة عام ١٩٤٥ عن رغبته في إحـلال السلام في فلسطين بين العـرب واليهـود .

ولقـد كان الرئيس الأمير كي روزفلت متعاطفاً مع سياسة الوطن القـومي اليهـودي ، لكنه كان في نفس الوقت حريصاً على عدم إغضاب العرب أو إجبارهم على قبـول تسوية يرفضونها . ومن هنا كان اهتمامه بدراسة الأفكار المختلفة للقضية ومحاولة إحداث توازن مقبول بينها .

ثانياً : أن الولايات المتحـدة الأمير كية كانت حريصة على عدم إتخاذ أي موقف رسمي من المسألة الفلسطينية حتى انتهاء الحـرب حفاظاً على المصالح الأمير كية في العـالم العربي وتجنباً لدعايات النـازي ضد الحلفاء . لـكن ذلك لا يمنع من إصدار تصريح من الرئيس الأمريـكي مؤيد للقضية الصهيونية .

---

(٧٠) صلاح العقاد : قضية فلسطين ٠ المرحلة الحرجة ص٣١ ٠

(٧١) محمد محمود السروجى : المرجع السابق ص٣٩٤ ٠

72) Lilienthal: What Price Israel. P 91 & Weizmann: Op. cit P 534.

ثالثاً : أنه كان هنـاك تباين كبير في وجهات النظـر بين موقف الدوائر الحكومية الرسمية — مثل وزارة الخارجية الأمريكية — التي كان لها خبرة مباشرة مع الشرق العربي وبين موقف الرأي العـام الأمريكي الذي كان متأثراً بالدعاية الصهيونية بشكل دائـــم (٧٣) .

رابعاً : أن الحركة الصهيونية استطاعت خـــلال تلك المرحلة أن تكتل جهـود معظم اليهود في الولايات المتحـدة الأمريكية لحساب العمـل الصهيوني في فلسطين ، وعن طريق يهود الولايات المتحـدة تمكنت الحـركة الصهيونية من الوصول إلى الرأي العام الأمـيركي .

خامساً : أنه حـدث خـلط مقصود وربـط متعمد بين حـل مشكلة اللاجئـــين اليهـود في أوروبا وبين القضية الفلسطينية . ولم يبذل الغرب أيـة محاولة لحـل هذه المشكلة بعيداً عن فلسطين ، فقد كانت مشكلة اللاجئـــين اليهود في أوروبا فرصة ذهبية أحسن الاستعماريون والصهيونيون استثمارها بهـدف الإسراع في بناء الدولـة الصهيونية في فلسطين .

73) Barbour: Loc. cit. P 222.

مصـــــادر البحث

أولاً : الوثـــــائق :

(أ) وثـــائق غير منشـــورة :

- أرشيف مجلس الوزراء المصري : ملف ٦٤–٨/٥ جزء ثـان خطـاب من وزير مصر المفوض في واشنطن إلى وزارة الخارجية المصرية في ٢٤ مـــايو ١٩٣٩ .
- أرشيف مجلس الوزراء المصري : تقـرير رقـم (١٧) في ١٩ أكتوبر ١٩٤٤ من القنصل العـــام لمصر بالقـدس عن حديث لعميـــد الهيئة القنصلية بالقـدس قنصل الولايات المتحـدة العـــام .
- أرشيف مجلس الوزراء المصري : الدرسية ٦٤ ـ ٣/١ جزء ٣ حديث لرئيس الجمهورية السورية في مقابلة مع القائم بالأعمـال المصري بالنيـابة في ٢٢ مارس ١٩٤٥.

(ب) وثـــائق منشـــورة :

- جامعة الدول العربية : الوثـائق الرئيسية في قضية فلسطين . المجمـوعة الأولى ١٩١٥ ـ ١٩٤٦ . القـــاهرة ، ١٩٥٧ .
- جامعة الدول العربية : الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين . المجموعة الثانية ١٩٤٧ ـ ١٩٥٠ . القـــاهرة ، ١٩٧٤ .

ثانياً : المراجـــــع :

(أ) المراجــع العـــربية :

- أحمـد عبد الرحيم مصطفى : الولايات المتحـدة والمشرق العربي ، الكويت ١٩٧٨ .
- أحمـد فـراج طـايع : صفحات مطـوية عن فلسطين . القاهرة ، مطابع الشعب .
- أســعد رزوق : المجلس الأمريكي لليهودية : بيروت ، ١٩٧٠ ، منظمـة التحرير الفلســطينية (مركز الأبحـــاث) .

- الهيئة العربية العليا : قضية فلسطين العربية . القاهرة ، مطبعة السعادة .
- أنيس صايغ ، الهاشميون وقضية فلسطين . صيدا – بيروت ، ١٩٦٦ المكتبة العصرية .
- ستيفنس : الصهيونية الأمريكية وسياسة أمريكا الخارجية ١٩٤٢ – ١٩٤٧ ، ترجمة جورج نجيب واكيم . بيروت ، ١٩٦٧ ، الطبعة الأولى ، دار الطليعة للطباعة والنشر .
- صلاح العقاد : قضية فلسطين . المرحلة الحرجة . القاهرة ، ١٩٦٨ ، معهد الدراسات العربية العالية .
- فرانك أ. مانويل : بين أمريكا وفلسطين . ترجمة يوسف حنا ، عمان ، ١٩٦٧ ، وزارة الثقافة والاعلام الأردنية .
- كامل أبو جابر : الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل . القاهرة ، ١٩٧١ معهد البحوث والدراسات العربية .
- محمد أمين الحسيني : حقائق عن قضية فلسطين . القاهرة ، ١٩٥٧ ، الطبعة الثالثة ، دار الكتاب العربي .
- محمد محمود السروجي : السياسة الخارجية الأمريكية . الإسكندرية ، ١٩٦٥ .
- منظمة التحرير الفلسطينية (مركز الأبحاث) ملف القضيةالفلسطينية . إعداد سامي هداوي ، تحرير الدكتور يوسف صايغ ، بيروت ، ١٩٦٨ .
- نجيب صدقة : قضيةفلسطين . بيروت ، ١٩٤٦ ، دار الكتاب ،الطبعة الأولى .

(ب) المراجع الأجنبية :

- Barbour (Nevi II): Nisi Dominus. A survey of the Palestine controversy. Beirut 1969, The Institute for Palestine Studies.
- Cattan (Henry): Palestine & Israel. The Search for Justice. London 1971. First published. Lowe and Brydone.
- Hurewitz (J. C.): The Struggle for Palestine, New York 1950. First Edition. Norton & Co. Inc.
- Lilienthal (Alfred M.): What Price Israel.
- Sykes (Christopher): Cross roads to Israel, London 1965, Collins.
- Weizmann (Chaim): Trial and Error. London 1950, Fourth Impression, Hamish Hamilton.

الزينة فى الشعر الجاهلي

(التزيُّن بالحِلى)

الدكتور
يحيى الجبوري
أستاذ بقسم اللغة العربية

الشعر الجاهلي هذا الكنز الخالد القديم المتجدد الذي كلما زدت فيه درساً وتفحصاً وإمعاناً ، زادك تكشفاً وحيوية وتجلت أمامك عوالم جديدة مدهشة لا تمل النظر فيها والتجوال في عوالمها ورحابها الرائعة ، وكانت ومازالت أحب الأوقات لدي وأسعدها تلك الساعات التي أتصيدها من زحام الدنيا فأعيش فيها مع قصيدة من نوادر الشعر الجاهلي أو ديوان من دواوينه . وقد لفت نظري في غزل الشعراء الجاهليين إلحاحهم على وصف الحبيبة الجميلة – وكل حبيبة جميلة – بأنها حالية غير عاطل عليها العقود والأساور والأقراط والشنوف ، وثيابها حرير ملونة زاهية يفوح شذى عطرها كأريج الزهور ، فالمرأة الحبيبة متزينة أبداً في أحسن زينتها سواء في ذلك الحضرية والبدوية(١) ، والشعر الجاهلي في كثرته بدوي أعرابي . فرحت لذلك أرصد الشعر الذي تحدث عن الزينة أو عرض لها ، فتجمعت لدي مادة وافية – لا أزعم لها الاستقصاء الكامل – جديرة بأن تنصرف إليها الدراسة ويتدبرها البحث .

الزينة :

تقول العرب : زانه زينة وأزانه وازّينه ، وتزين هو وازدان بمعنى ، وهو افتعل من الزينة ، والزين خلاف الشين ، وجمعه أزيان ، ومنه قول حميد بن ثور يصف امرأة(٢) :

تصيد الجليس بأزيانها ودلٍّ أجابت عليه الرقى

وقال الأزهري : سمعت صبياً من بني عقيل يقول لآخر : وجهي زين ووجهك شين ، والتقدير : وجهي ذو زين ووجهك ذو شين ، فنعتهما بالمصدر كما يقال : رجل

(١) ندر ان توصف المرأة بأنها عاطل ، ومن هذا النادر قول الشماخ :
دار الفتاة التى كنا نقول لها يا ظبية عطلا حسانة الجيد
(معجم البلدان ٨/٥٢٥ وعجز البيت فى اللسان : عطل) .
(٢) ديوانه ص٤٨ ، واللسان : زين .

صوم وعدل أي ذو عدل . وزانه الحسن يزينه زينا ، قال محمد بن حبيب : قالت أعرابية لابن الأعرابي : إنك تزوننا إذا طلعت كأنك هلال في غير كتمان ، قال : تزوننا وتزيننا واحد ، وزانه وزيّنه بمعنى ، قال المجنون :

فيا ربِّ إذ صيَّرتَ ليلى ليَ الهوى ... فزِنّي لعينيها كما زِنْتَها ليا

وفي حديث شريح : أنه كان يجيز من الزينة ويرد من الكذب ، يريد تزيين السلعة للبيع من غير تدليس ولا كذب في نسبتها أو في صفتها . ورجل مزيّن أي مقذذ الشعر ، والحجام مزين ، والزين عرف الديك كأنه زينته ، قال ابن عبدل :

أجئت على بغل تزفُّك تسعة ... كأنك ديك مائلُ الزَّيْنِ أعور

وتزينت الأرض بالنبات وازّينت وازدانت أي حسنت وبهجت ، والزينة اسم جامع لكل شيء يتزين به . وفي حديث الاستسقاء قال : اللهم انزل علينا في أرضنا زينتها ، أي نباتها الذي يزينها . وفي الحديث أيضاً : « زينوا القرآن بأصواتكم »(٣) . قال ابن الأثير : قيل هو مقلوب أي : زينوا أصواتكم بالقرآن بمعنى ألهجوا بقراءته وتزينوا به ، وقال آخرون : لا حاجة إلى القلب ، وإنما معناه الحث على الترتيل الذي أمر به في قوله تعالى : (ورتل القرآن ترتيلا) فكأن الزينة للمرتل لا للقرآن ، واستشهدوا على صحة هذا وأن القلب لا وجه له بحديث أبي موسى : أن النبي ﷺ استمع إلى قراءته فقال : « لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود »(٤) ، فقال : لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا ، أي حسنت قراءته وزينتها ، ويؤيد ذلك كذلك حديث ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قال : « لكل شيء حلية وحلية القرآن حسن الصوت » . ويوم الزينة : يوم العيد ، وبهذا جاء في القرآن الكريم : (قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى) (٥) ، والزينة والزونة اسم جامع لما تزين به ، وقوله تعالى : (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) (٦) ، معناه لا يبدين الزينة الباطنة كالمخنقة والخلخال ، والدملج والسوار ، والذي يظهر هو الثياب والوجه . وقوله عز وجل : (فخرج على قومه في زينته) (٧)

(٣) صحيح البخارى (توحيد) وصحيح الدرامى (فضائل القرآن) . وسأختصر عند الاشارة الى كتب الحديث كلمة صحيح أو مسند فاقول : البخارى (توحيد) أي باب أو كتاب التوحيد.
(٤) البخارى (فضائل القرآن) ، مسلم (مسافرين) .
(٥) سورة طه ٥٩ .
(٦) النور ٣١ .
(٧) القصص ٧٩ .

قال الزجاج : جـــاء في التفسير أنه خرج هو وأصحابه وعليهم وعلى الخيل الأرجوان ، وقيل كان عليهم وعلى خيلهم الديباج الأحمـــر ، وامرأة زائن : متزينة(٨) .

وهنـــاك كلمة أخرى في معنى التزين هي (التزيق) وهي أخص من التزين ، ويراد بها استعمال وسائل الزينة ، يقـــال : تزيقت المرأة وتزيغت تزيغاً إذا تزينت وتلبست واكتحلت(٩) .

ولـــع النســـاء بالزينـــة :

وقد ولعت النساء ـ منذ بدء الخليقة ـ وأغرمت بالزينة والتجمل سواء في ذلك الجميلة منهن الغانية(١٠) أو التي كان حظها من الجمال قليلا ، وليس التزين مقصوراً على النساء دون الرجال ، ولا الشباب دون الشيوخ ، بل ان الطبيعة البشرية جعلت الإنسان السوى ميالاً إلى الظهور بالمظهر الجميل المعجب ، وكانت الزينة وما تزال الوسيلة الأولى لإخفاء أثر السنين وتزوير الأعمـــار وزيادة الحسن وإخفاء العيوب ، فبالزينة يعـــود الكهول

---

(٨) راجع فى الزينة ومعناها : الصحاح واللسان والتاج : زين ٠

(٩) اللسان والقاموس المحيط : زيق ٠ وقد يخصص التزيق بالتزين بالأحمر ، جاء فى الغريب المصنف لأبى عبيد القاسم بن سلام (مخطوطة المتحف العراقى رقم ١٦٢٨) : تزيقت المرأة تزيقا اذا تزينت بالأحمر ٠ عن التزيق والحلى فى العصر العباسي لزكية عمر العلى ص١٣ وقد اسمت الباحثة كتابها بالتزيق ، وهى تسمية تضيق معنى الزينة ، وهى تريد بالتزيق التزين نفسه ، وليست كلمة التزيق بالكلمة الدقيقة المأنوسة الشائعة ولا المعبرة عـن معنى الزينـة الواسـع ٠

(١٠) قيل فى معنى الغانية : سميت غانية لأنها غنيت بجمالها عن الزينة ، ولسـت أرى هـذا الرأى ، اذ ليس هناك امرأة مهما كانت جميلة تستغنى عن الحلى والزينة فالتزين طبيعة وتكاد تكون غريزة فى المرأة ، ولذلك فالمعنى الذى هو أقرب الى طبيعة الأشياء ان الغانية من النسا هى التى غنيت بزوجها ، وبذلك قال جميل ـ (ديوانه ص١٣٩) :

أحب الأيـامى اذ بثينـة أيـم ‏ ‏ ‏ ‏ وأحببت لمـا أن غنيت الغوانيـا

والغانية من النساء أيضا : الشابة المتزوجة ، وبذلك جا قول نصيب الشـاعر :

فهل تعودن لياليا بذى سـلم ‏ ‏ ‏ ‏ كما بدأن وأيـامى بها الأول
أيام ليـلى كعاب غير غانيـة ‏ ‏ ‏ ‏ وأنت أمرد معروف لك الغـزل

وقال ابن الأعرابى : الغنى ، التزويج ، والعرب تقول : الغنى حصن العزب ، اى التزويج (اللســان : غنى) ٠

شباباً والشيوخ كهولاً ، وبالزينة يزداد الإنسان اعتداداً بنفسه ويزداد شعوره بالجمال وإقباله على الحيـــاة .

وإذا كانت الزينة تحتاج إلى إمكانات مادية كان لابد أن يرتبط الإسراف في التزين بالتحضر ، فتكثر الزينة في المـــدن وتقل في البوادي ، وهنا يصدق قول المتنبي :

حسن الحضـــارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب (١١)

وكان للشعر دور كبير وأثر فعـــال في رسم مقاييس الجمال ومثال الحسن لدى الجاهليين ، وكان ذلك المثال – وما زال لم يتغير إلا قليلا – هو غاية المرأة والرجل ، ولابد أن تتوسل المرأة بوسائل الزينة والتجمل وإبداء المحاسن وإخفاء العيوب كي تصل إلى الجمال المثال أو تحاكيه ، أما صورة المرأة الجميلة في ذهن الشاعر الجاهلي فيوجزها امرؤ القيس في معلقته في الأبيات التي جمع فيها صفات الجمال في جسم المرأة(١٢) :

إذا قلت هـــاتي نوّليني تمـــايلت عليّ هضيمَ الكشح ريّـــا المخلخلِ
مهفهفة بيضـــاء غير مفاضـــة ترائبهـــا مصقـــولة كالسجنجل

إلى قـــوله :

إلى مثلها يرنو الحـــليم صَبـــابةً إذا ما اسبكرّتْ بين دِرْعٍ ومِجْوَل

فهي رشيقة خفيفة لحم البطن هيفاء ، صدرها صقيل كالمرآة ، خدها أسيل ، عيونها نجـــلاء جميلة العنق مزين بالعقود وشعرها أســـود فاحم كثيف طويل ، لطيفة الخصرين ، ساقاها ابيضان مملوآن ، أصابعها طويلة ناعمة ، بيضاء صافية البشرة ، وضيئة مشرقة الوجه ، تسحر الألبـــاب وتخلب العقـــول .

---

(١١) ديوان المتنبى ص٤٤٩ .

(١٢) راجع الشعر كاملا فى ديوان امرىء القيس ص١٥ – ١٨ ط ابى الفضل ، ص٤٢ – ٤٧ ط صـــادر .

الحَــــلْي :

الحــلي كل ما يتزين به من مصوغ المعدنيات أو الحجــارة وإليه يشير الشاعر :

كأنهــا من حُسُنٍ وشَـــارةْ والحَـــلْى حَـــلْى التِّبْر والحجارةْ
مدفَــعُ مَيْثَــاءَ إلى قــرارةْ (١٣)

ويشمل كل ما يصاغ أو ينظم من المعــادن والأحجــار الكريمة مثل الذهب والفضة واللؤلؤ والمرجــان والزمرد والياقوت وغيرها ، وقد تزينت المرأة بكل ذلك ووضعت في كل موضع من مواضع الزينة صنفاً كالعقد والقرط والوشاح والسوار والخــاتم والخلخال وغير ذلك .

والحَــلْي كل حِلية حليتَ بها امرأة أو سيفاً أو نحــوه قــال تعالى : (واتخذ قوم موسى من بعده من حُلِيِّهم عجلا جسدا له خوار) (١٤) ، والحَــلْيُ حــلى المرأة وجمعه حُلِيّ مثل ثَدْي وثُدِيٍّ ، ويفرقون بين الحَلْى والحِلية ، فالأول للمرأة والثاني للسيف يقــال : حلية السيف ولا يقال حلى السيف ، قال الأغلب العجلى (١٥) :

جــارية من قيسٍ بن ثعلبـــهْ بيضــاء ذاتُ سُــرَّةٍ مقَبَّبـــهْ
كأنهــا حِليـــةُ سـيف مُذْهَبــهْ

وحليت المرأة حليا وهي حــال وحالية : استفادت حليا أو لبسته ، وحليت : صارت ذات حلى ، ونسوة حوال ، وتحلت : لبست حليا أو اتخذت . وحلَّيتُ الرجل : وصفت حليته ، وقوله تعــالى : (يُحَلَّــون فيها من أساور من ذهب) (١٦) عــداه إلى مفعولين لأنه في معنى يلبسون . وفي الحديث : « كان يحلينا رِعاثا من ذهب ولؤلؤ » (١٧) . وقد أطلق القــرآن الــكريم اسم الحلية على ما يستخرج من البحر كاللآلئ والمرجان

(١٣) اللســان : حلى ، والمخصص ٤/٤٠ .
(١٤) الأعراف ١٤٨ .
(١٥) الصحاح واللسان : حلى .
(١٦) الحج ٢٣ والكهف ٣١ .
(١٧) راجع الصحاح واللسان والتاج : حــلى .

في قوله تعالى : (وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها) (١٨) ، وما يستخرج من الأرض من معادن كالذهب والفضة والجوهر . قال تعالى : (أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله) (١٩) .

الذهـــــب :

ذكرنا أن الحـــلى التي دخلت في الزينة كثيرة أهمها المعـــادن من الذهب والفضة والأحجار الكريمة وأنواع الجواهر ، ولابد من الوقوف عند الخامات والمعادن التي صنعت منها الحـــلى . ولا شك بأن أبرز المعادن وأكثرها شهرة وشيوعاً هو الذهب ، ويسمى التبر إذا كان خاماً لم يصنَّع ، فإذا صُنِّع سمى النضار والعين والعسجد ، وقيل إن العسجد هو التبر الذي لم يصنع ، وقيل بل هو اسم جامع يطلق على الجوهر كله كالدر والياقوت (٢٠) . وذهب ابريز بمعنى خالص ، والعقيان كذلك الذهب الخالص ، أو الذهب الذي لا يستذاب من الحجارة وإنما ينبت نباتاً (٢١) . ويسمى الذهب : النضار والأنضر وقد يطلق النضار على الذهب والفضة أيضاً ، والنضرة سبيكة من ذهب ، ونضار الجوهر : الخالص من التبر .

والمُذْهَب : ما طلي بالذهب . قال لبيــد يذكر لوحاً مطلياً بالذهب(٢٢) :

أو مُذْهَبٌ جــدد على ألواحهـــ ـــن النـــاطق المبـــروز والمختوم

وكل ما مــوِّه بالذهب فقد أذهب ، والإذهاب والتذهيب واحد ، وهو التمويه بالذهب . والمذاهب : البرود الموشاة ، والمذاهب أيضاً : سيور تموه بالذهب ، ومنه قول قيس بن الخطــيم (٢٣) :

أتعرف رسماً كاطِّراد المذاهب لعمرةَ وَحْشَاً غيرَ موقف راكب

(١٨) فاطـر ١٢ .
(١٩) الرعد ١٧ . وانظر الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبى ٣٠٥/٩ وتفسير الجلالين ص ٥٧٦
(٢٠) راجع اللسان والتاج : عسجد ، ذهب ، والتلخيص ٣٦٠/١ .
(٢١) التاج : عقى ، وانظر المفصل فى تاريخ العرب ـ جواد علي ٥١٢/٧ .
(٢٢) ديوان لبيد ص١٥١ واللسان : ذهب .
(٢٣) ديوان قيس بن الخطيم ص٧٦ ، واللسان : ذهب .

وقد يطلق اسم التبر على كل ما يستخرج من المعادن قبل أن يصاغ ويستعمل ، وقيل : هو الذهب المكسور ، ومن ذلك قول الشاعر :

كل قوم صيغة من تبرهم وبنو عبد مناف من ذهب

والتبر عند ابن الأعرابي : الفتات من الذهب والفضة قبل أن يصاغا ، فإذا صيغا فهما ذهب وفضة (٢٤) . وفي الحديث بيان على أن التبر يطلق على الذهب وعلى الفضة ، قال : « الذهب بالذهب تبرها وعينها ، والفضة بالفضة تبرها وعينها » (٢٥) .

وإذا كان الذهب دنانير مضروبة فهو العين (٢٦) . والجذاذ : حجارة فيها ذهب أي الحجر الذي يقلع من مناجم الذهب ثم يسخن بالمساخن لاستخلاص الذهب من المواد الأُخرى ، والمسحنة : حجر يدق به حجارة الذهب (٢٧) .

وأحب الإنسان الذهب منذ كان ، وقد قرنه القرآن الكريم بحب النساء والبنين قال تعالى : (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة) (٢٨) .

الفضة :

وتأتي الفضة بالمرتبة الثانية بعد الذهب ، وقد عرفها العرب وتاجروا بها في العصر الجاهلي ، وهي من المعادن المشهورة في جزيرة العرب ، وفي اليمن خاصة ، ومن أسمائها اللجين ، والصرف أو الصريف وهي الفضة الخالصة ، وقد جاء ذكر الصريف في قول الشاعر (٢٩) :

بني غُدانة حقا لستمُ ذهبا ولا صَرِيفا ولكن أنتم خزف

(٢٤) اللسان : تبر .
(٢٥) ابو داود والنسائى : بيوع .
(٢٦) اللسان : تبر .
(٢٧) المعانى الكبير ٨٤٨/٢ وجواد على ٥٦٢/٧ .
(٢٨) آل عمران ١٤ .
(٢٩) الصحاح واللسان والتاج : لجن ، صرف .

والوذيلة : القطعة من الفضة ، وقيل السبيكة منها ، وقد خصصها بعضهم بالقطعة المجلوة من الفضة ، وقد كان الطائيون يسمون المرآة (الوذيلة) ، وكانت المرآة صفيحة من معدن مجلوة ينظر فيها (٣٠) .

وقد يطلق الوَرِق على الفضة ، وقد يراد بها الدراهم المضروبة من الفضة ، قال الجوهري : الوَرْق : الدراهم المضروبة ، وكذلك الرِقة ، وفي الحديث : « في الرقة ربع العشر » (٣١) ، وورد استعمال الرقة في الشعر في قول خالد بن الوليد في يوم مسيلمة الكذاب (٣٢) :

إن السهام بالردى مفوّقهْ والحرب ورهاء العقال مطلقهْ
وخالد من دينه على ثِقهْ لا ذهب يُنجيكم ولا رِقَهْ

وقال أبو عبيدة : الورَق ، الفضة كانت مضروبة كدراهم أو لا ، وسموا بالرقة العين وهي من الفضة خاصة ، أو الفضة والمال ، أو الذهب والفضة ، وأطلقوه كذلك على المال عامة ، وفي المثل : (إن الرِقين تُغَفّي على أفَن الأفين) أي أن المال يغطي العيوب ، وأنشد ابن الأعرابي لثمامة الدوسي (٣٣) :

فلا تلحيا الدنيا إليّ فإنني أرى ورق الدنيا تَسُلُّ السخائما
ويا رب ملتاث يجرُّ كساءَهُ نفى عنه وجدان الرِّقين العزائما

إن استعمال كلمة (العين) للدينار والذهب عامة ، وكلمة (الورق) للدراهم المضروبة والفضة خاصة جاء من استعمالهم النقود ، فالدينار قطعة من ذهب والدرهم قطعة من فضة . وقد يطلق على الذهب والفضة اسماً من لونهما فيقال (الأصفر) أو الصفراء للذهب ، و (الأبيض) أو البيضاء للفضة ، ومنه الحديث : « أعطيت الكنزين الأحمر

---

(٣٠) الصحاح واللسان والتاج : وذل .
(٣١) البخارى والنسائى : زكاة . والصحاح : ورق . والرقة : الهاء عوض عن الواو .
(٣٢) اللسان : ورق .
(٣٣) اللسان : ورق .

والأبيض » (٣٤) وهما الذهب والفضة . وكان مقياس الثراء عند الحضر ما يملكون من الذهب والفضة .

لقد ورد ذكر الفضة في القرآن الكريم في قوله تعالى : (ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا قواريرا من فضة قدروها تقديرا) (٣٥) . وفي قوله تعالى في ذكر أهل الجنة : (عاليهم ثياب من سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهورا) (٣٦) .

وإذا كان الإسلام قد أباح للمرأة أن تتزين بالذهب وحرم ذلك على الرجال ، فإن الفضة قد أبيحت للمرأة والرجل على السواء ، ولذلك صارت خواتيم الرجال من الفضة دون الذهب .

اللؤلؤ :

ومن مواد الزينة النفيسة الغالية اللؤلؤ ، وهو يلي الذهب والفضة في شيوع الاستعمال . واللؤلؤة الدرة والجمع لآلىء ، والدرة اللؤلؤة العظيمة قال ابن دريد : الدرة ما عظم من اللؤلؤ والجمع در ودرات ودرر ، وأنشد بيت الربيع بن ضبع الفزاري (٣٧) :

كأنها درة منعمة ... من نسوة كن قبلها دررا

ويقال : كوكب دري ، أي ثاقب مضيء ، تشبيها بالدرة .

ويقول الجاحظ : أن وزن الدرة لا يقل عن نصف مثقال ، فإذا كانت أقل من ذلك فهي لؤلؤة (٣٨) . أما الدرة اليتيمة ، فهي التي يبلغ وزنها ثلاثة مثاقيل (٣٩) . وكثيراً

(٣٤) مسلم والترمذى : فتن ·
(٣٥) الانسان ١٥ ـ ١٦ ·
(٣٦) الانسان ٢١ ·
(٣٧) اللسان : درر ·
(٣٨) التبصر بالتجارة ـ الجاحظ ص١٩ والتزيق والحلى ص١٠٤ ـ ١٠٥ ·
(٣٩) ذكر ابن الزبير فى كتابه الذخائر والتحف ص١٧٧ ان درة يتيمة بيعت للرشيد بسبعين الف دينار ، وبلغ سعر درة عادية فى زمن الرشيد ثلاثين الف دينار ·

ما شبهت المرأة بالدرة كما سيأتي ، وكما سميت المرأة البكر عـذراء ، فكذلك سميت الدرة التي لم تثقب (العـذراء) (٤٠) .

وكذلك سميت اللؤلؤة التي لم تثقب (الخريدة) ، وهي من أسماء النساء تشبيهاً لهن بالدرر ، وجاءت في شعر لبيـد يصف حمر الوحش (٤١) :

فاختـار منهـا مثل الخـريدة لا تأمن منـه الحـذار والعطبـا

وتسمى اللؤلؤة (الصدفية) نسبة إلى الصدف الذي تستخرج منه ، قال النابغة الذبياني(٤٢)

كمضيئـة صدفيـة غواصهـا بَهِـجٌ متى يرها يهِـلُّ ويسـجد

وجـاءت في شعر المسيب بن علس (٤٣) :

فأصـاب منيتـه فجـاء بهـا صـدفية كمضيئـة الجمـر

ولأن اللؤلؤة تستكن في قلب الصدفة فهي محفوظة ومكنونة فسميت (المكنونة) ، وبذلك وصفها القرآن الـكريم : (ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون) (٤٤) . وسميت (التوأمية) كذلك (٤٥) . ومن أسمائها أيضاً (الجُمـانة) ، قال الجوهري : الجمانة حبة تعمل من الفضة كالدرة ، قال ابن سيدة : وبه سميت المرأة ، وربما سميت الدرة جمانة (٤٦) ، وجـاء في صفة رسول الله ﷺ : « حتى أنه ليتحدر منه العرق مثل الجمان »(٤٧) ، قال : هو اللؤلؤ الصغار ، وقيل : حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ . وقد شبه لبيـد البقرة الوحشية في بياضها بالجمانة (٤٨) :

---

(٤٠) اللسان : عذر ، وفقه اللغة ـ الثعالبى ص٥٩ ·
(٤١) ديوانه ص٢١ ·
(٤٢) ديوانه ص٣٠ و٣٣ ·
(٤٣) شعراء النصرانية ص٣٥٦ ·
(٤٤) الطـور ٢٤ ·
(٤٥) الجماهر فى معرفة الجواهر ـ البيرونى ص١٠٧ ·
(٤٦) اللسـان : جمن ·
(٤٧) البخارى : مغازى ، مسلم : توبة ، فتن ·
(٤٨) ديوان لبيد ص١٧٢ ·

وتُضيءُ في وجهِ الظلام منيرةً　　كجُمانة البحريِّ سُلَّ نِظامها

وجاءت كذلك في شعر المسيب بن علس (٤٩) :

كجمانة البحري جاء بها　　غواصها من لجة البحر

وكذلك هي في شعر امرئ القيس(٥٠) :

فأسبل دمعي كفَض الجُمان　　أو الدُّرِّ رَقْراقه المنحدر

وفي كل هذا الشعر الجاهلي جاءت الجمانة على أنها اللؤلؤة ، وقد أضافها لبيد والمسيب ابن علس صراحة إلى البحر ، ولم يقصدا بها حبة الفضة ، ولعل الذين أطلقوا على حبة الفضة جمانة أرادوا تشبيهها بالجمانة البحرية التي هي اللؤلؤة .

والجمان كذلك : سفيفة من أدم ينسج فيها الخرز من كل لون تتوشح به المرأة ، قال ذو الرمة (٥١) :

أسيلةُ مستَنِّ الدموع وما جرى　　عليه الجُمان الجائِلُ المتوشَّحُ

ويستخرج اللؤلؤ من أجواف الصدف يستخرجه الغواصون من البحر الأحمر وبخاصة قرب مدينة جدة وإلى الجنوب (٥٢) ، ولكن شهرة لؤلؤ الخليج العربي غلبت عليه فأكثر الغواصين مهارة هم في منطقة الخليج إذ كان اللؤلؤ تجارتهم ومكسبهم والغوص حرفتهم التي برعوا فيها .

الياقوت :

ودخل الياقوت أيضاً في صناعة الحلي وهو من الأحجار الكريمة النفيسة ، وكلمة الياقوت معربة مثل الجمان عن الفارسية (٥٣) . وورد ذكر الياقوت في القرآن الكريم في

(٤٩) شعراء النصرانية ص٣٥٦ .
(٥٠) ديوان أمرىء القيس ص١١٠ .
(٥١) اللسان : جمن . وديوان ذى الرمة ص١٢٠٢ ط دمشق ١٩٧٣ وفيه : عليه المجن .
(٥٢) ابن المجاور ١/١٠٥ .
(٥٣) المعرب ص١١٥ والتاج : جمن ، واللسان والقاموس : يقت .

صفة الحـــور العين : (فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان فبأي آلاء ربكما تكذبان كأنهن الياقوت والمرجان) (٥٤) ، وجاء ذكره كذلك في الأحاديث النبوية الشريفة في قوله : « وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت » (٥٥) ، وقوله : (إن الحجر والمقـــام ياقوتتان من ياقوت الجنة » (٥٦) ، وقوله : « على فرس من ياقوتة حمراء »(٥٧) . والياقوت أنواع وألوان ، وأجـــود أنواعـــه الأحمـــر ، ثم الأبيض والأزرق ، وأقلها جودة الأبيض (٥٨) . وللياقوت الأحمر درجات ذكر له ابن الأكفاني سبع مراتب : الرماني ، وهو الشبيه بحب الرمان ، والبهرماني في الحمرة ، ثم البنفسجي ثم الجلناري ، وأخيراً الوردي الذي هو أنزل طبقات الأحمر (٥٩) .

والأصناف الجيدة من الياقوت الأحمر غالية الثمن وقد حرص ذوو اليسار على اقتنائه والتحـــلي به (٦٠) .

وقد وصف الشعراء الجاهليون حلي حبيباتهم وفيه الياقوت ، فالمرقش الأكبر يذكر الضعائن وما عليهن من زينة (٦١) :

تحـــلين ياقـــوتا وشَذْرا وصِيْغَـة   وجَـــزْعا ظَفَـــاريا ودرا توأمـــا

ويصف قيس بن الحطـــيم جيد حبيبته وما عليه من الزينة (٦٢) :

وجيـــد كجيـــد الرئم صاف يزينـــه   توقـــدُ ياقـــوت وفَصْل زَبَرْجَد

(٥٤) الرحمن ٥٦ ـ ٥٨ .
(٥٥) الترمذى : جنة ، الدارمي : رقاق .
(٥٦) الترمذى : حج .
(٥٧) الترمذى : صفة الجنة .
(٥٨) تجارب الامم ٥٢/٢ .
(٥٩) نخب الذخائر ص ٢ ـ ٧ .
(٦٠) كان للوليد بن يزيد الخليفة الأموى (١٢٥ ـ ١٢٦هـ) خاتم ياقوت أحمـــر كاد البيت أن يلتمع من شـــعاعه (الاغانى ١٣٨/٦) وكان فص خاتم من الياقوت فى يـــد ابراهيم بـــن المهدى اشتراه الأمين بعشرة آلاف دينار (الذخائر والتحف ص١٧٨) كما كان للخيزران أم الرشيد خاتم من الياقوت الأحمر ثمين جدا (الذخائر والتحف ص١٧٩) .
(٦١) المفضليات ص٢٤٥ .
(٦٢) ديوانه ص١٢٥ .

المَرْجَان :

ومن الأحجار الكريمة التي دخلت في صناعة الحلي المرجان ، وهو نبات بحري (حجر شجري) أحمر يتكون من مادة كلسية يفرزها نوع من الحيوانات البحرية نظير هيكل لوقاية جسمه من الأمواج (٦٣) ، وأكثر ما يكون في البحر الأحمر ولاسيما في ساحل جزيرة العرب . والمرجان لفظ أعجمي معرب عن اليونانية (٦٤) ، واسمته المعاجم العربية (البُسَّذ) وقالوا : هو جوهر أحمر ، وعدوه من صغار اللؤلؤ واستشهدوا على ذلك بقول امرىء القيس (٦٥) :

أذود القوافي عني ذيادا ذياد غلام جريء جيادا
فأعزل مَرْجَانها جانبا وآخذ من دُرِّها المستجادا

وقد جاءت تعريفات اللغويين للمرجان متقاربة فقالوا : إنه صغار اللؤلؤ ، أو عظام اللؤلؤ، أو خرز حمر وغير ذلك (٦٦) .

وذكر الشعر المرجان ، يقول اعشى همدان(٦٧) :

من كل مرجانة في البحر أحرزها تيارها ووقاها طينها الصدف

ويذكر طرفة بن العبد المرجان في صدر حبيبته(٦٨) : فوقه المرجان جم .

الصَدَف :

ومما يستخرج من البحر ويتخذ حلية أيضاً الصدف ، وهو المحار غشاء اللؤلؤ ، وقد تزين به الجاهليون ، وهناك ألفاظ أُخرى بمعنى الصدف منها (الجم) وهو صدف

---

(٦٣) الاحجار الكريمة ص١٤٥ والصحاح فى العلوم : مرج ، وجواد على ١٢٣/٧ .
(٦٤) الاحجار الكريمة ص١٤٥ وقيل مترجم عن الفارسية وهو البسذ . التاج : البسد .
(٦٥) اللسان : مرج ، وديوانه ص٩٠ .
(٦٦) الصحاح واللسان والتاج : مرج .
(٦٧) شعرا النصرانية ص٣٨٥ .
(٦٨) ديوانه ص١٣١ ط الجندى .

من أصداف البحر و (القبقب) و (القنقن) وهو ضرب من صدف البحر يعلق على الصبيان من العين ، وكذلك (الدوك) و (الدلاع) (٦٩) .

وكان العرب القدماء يظنون أن السماء إذا أمطرت فتحت الأصداف أفواهها فما وقع فيها من مطر تكون اللؤلؤ (٧٠) . و (الودع) ضرب آخر من أصداف البحر وهو خرز بيض يستخرج من البحر وشقه كشق النواة تتفاوت في الصغر والكبر ، وهي جوف في جوفها دويبة كالحلمة واحدتها ودعة (٧١) .

وجاء الودع في شعر عقيل بن علّفة في قوله (٧٢) :

ولا أُلقِي لذى الوَدَعاتِ سوطى ... لأخدعه وغِرَّتَه أريد

وكان الوَدَع يجعل قلائد في أعناق الصبيان والأطفال ، وذو الودع : الصبي لأنه يقلدها ما دام صغيرا ، قال جميل العذري يخاطب بثينة (٧٣) :

ألم تعلمي يا أُم ذى الوَدْع أنني ... أضاحك ذِكراكم وأنت صَلُود

وقد يعلقه الكبار أيضاً دفعاً للعين ، ولذلك جاء الحديث : « من تعلق ودعة لا ودع الله له » (٧٤) ، قالوا : وإنما نهى عنها لأنهم كانوا يعلقونها مخافة العين .

العقيق :

أما العقيق فهو من المعادن ، وهو حجر أحمر ، وبعضه أصفر وأزرق وأسود وأبيض ، وأجود أنواعه الأحمر الشديد الحمرة ، وكان يؤتي به من اليمن (٧٥) وتتخذ منه فصوص الخواتم ، وهو معدن سليكي دقيق التبلور مجزع صلد ، إذا صقل كان سطحه ذا زخرف

(٦٩) القاموس والتاج : جم ، قبب ، قنن ، دلع ، والمخصص ١٠/٢٠ .
(٧٠) اللسان والتاج : صدف ، وتفسير الطبرى ٢٧/٧٧ ، وجواد على ٧/١٢٣ .
(٧١) الصحاح واللسان والتاج : ودع .
(٧٢) الصحاح واللسان : ودع .
(٧٣) ديوان جميل ص٤١ واللسان : ودع .
(٧٤) اللسان : ودع ، لا ودع الله له : اى لا جعله فى دعة وسكون .
(٧٥) التبصر بالتجارة ص١١ .

وألوان جذابة (٧٦) ، وفي الجزيرة العربية مواضع كثيرة لاستخراج العقيق (٧٧) .

الجَــزْع :

ومن الأحجار الكريمة التي تستعمل في فصوص الخواتم الجــزع ، وقد تحفر عليه كتابات أو صور (٧٨) . والجــزع هو الخــرز اليماني ، وقالوا : اليماني الصيني ، وفيه سواد وبياض تشبه به الأعين ، ولذلك وصف امروء القيس عيون الوحش وشبهها بالجزع الذي لم يثقب (٧٩) :

كأن عيــون الوحش حــول خبائنا　　　وأرحلنــا الجَزْعُ الذي لم يُثَقَّــب

وذكره في بيت آخر في وصفه لبقر الوحش الذي جسمه أبيض وأطرافه سود(٨٠) :

فأدبرن كالجَــزْع المفصَّــل بينــه　　　بجيــد مُعَــم في العشيرة مُخْــوَلِ

وسمي الجزع جزعاً لأنه مجزّع أي مقطع بألوان مختلفة ، أي قطع سواده ببياضه (٨١) وجاء في الحديث : « أن رسول الله ﷺ دخل على أهله ومعه قلادة جزع فقال : لأعطينها أحبكن إليّ ، فقلن يدفعها إلى ابنة أبي بكر ، فدعا بابنة العاص من زينب وعقدها لها » (٨٢) .

وقد عرفت ظفار الجزع ونسب إليها فقيل (جزع ظفار) أو ظفارى ، وقد جاء بهذه النسبة في الشعر الجاهلي فقال المرقش الأصغر (٨٣) :

تحــلين ياقوتا وشــذرا وصيغـــة　　　وجَــزْعا ظَفَــاريا ودُرًّا توائمــا

---

(٧٦) الصحاح فى اللغة والعلوم : عقق ٠

(٧٧) اهمها : مقرى فى اليمن ، والشحر ، وجبل شبام ، والهان ، وشهارة وقساس ٠ انظر التاج : قرأ ، عقق ، وابن المجاور ١٨٤/٢ وصفه جزيرة العرب ص٢٠٢ وجواد على ٥١٨/٧ ـ ٥١٩ ٠

(٧٨) الاشارة الى محاسن التجارة ص١٨ وجواد على ٥١٨/٧ وفى الصحاح فى العلوم : جزع ، سماه العتيق اليمانى وقال : معدن سليكى يشبه العقيق الا ان الخطوط التى بـه مستقيمة وليست مقوسة كما فى معدن العقيق ، وجزع بقرانى من الأحجار الكريمة ٠

(٧٩) ديوانه ص٧٠ واللسان والتاج : جزع ٠

(٨٠) ديوانه ص٥٧ ٠

(٨١) اللســان : جزع ٠

(٨٢) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ٢٧/٨ ط ليدن ٠

(٨٣) المفضليات ص٢٤٥ والتاج : جزع ٠

وكان لعائشة أم المؤمنين جزع ظفارى فقدته فأرسل النبي ﷺ رجالاً لطلبه فحضرت الصلاة وليسوا على وضوء ولم يجدوا ماء وصلوا وذكروا ذلك للنبي فنزلت آية التيمم (٨٤) . وظفار في اليمن ، وقيل إن الجزع من (ظفار الحقل) على مرحلتين من صنعاء ، وقيل بل نسبة إلى (ظفار أسد) مدينة في اليمن (٨٥) .

ومن أنواع الجزع الأُخرى ، الجزع الموشى ، والمسيّر ، وهو في مواضع من اليمن منها النقمى (٨٦) ، أما الجزع البقراني فمركب من ثلاث طبقات الأولى حمراء فيها طبقة بيضاء ثم طبقة بلورية ، والنوع الآخر الحبشي الذي تكون واجهته العليا والسفلى سوداوين أما وسطه فشديد البياض (٨٧) .

الجَـــزيز :

ومما يلحق بالجـزع ويشبهه الجزيز ، وهو ضرب من الخَرَز تزين به جواري الأعراب ، وقد ورد ذكره في شعر النابغة الذبياني يصف نساء شمّرن عن أسوقهن حتى بدت خلاخيلهن (٨٨) :

خَـرَزَ الجَزيز من الخِـدام خوارج من فــرج كل وصيلـةٍ وإزارِ

ووصفه ابن سيده بأنه شبيه بالجــزع إلى حد كبير (٨٩) .

الزَبَرْجَـــد :

يقـــال إن الزبرجد هو الزُمُـرُّذ نفسه (٩٠) ولم يرد الزمرد في الشعر الجاهلي وورد

(٨٤) البخارى : شهادات وطبقات ابن سعد ٥٢/٨ والتاج : جزع .
(٨٥) التاج : ظفر ، واستخرج الجزع أيضا من جبل شبام ، ابن المجاور ١٨٤/٢ .
(٨٦) صفة جزيرة العرب ص ٢٠٢ وجواد على ٥١٨/٧ .
(٨٧) نخب الذخائر ص٨٦ والتزيق والحلى ص١٠٨ .
(٨٨) اللسان : جزز . وديوان النابغة ص١٠٣ ط شكرى فيصل ، وفى ط صادر جاء برواية : (برز الأكف من الخدام خوارج) .
(٨٩) المخصص ٥٣/٤ ط تونس .
(٩٠) الصحاح واللسان : زمرذ ، قال : الزمرذ (بالضم) الزبرجد ، وعرفه الصحاح فى اللغة والعلوم بانه : (ضرب من معدن الأوليفين النقى لونه أخضـر جميـل وهو حجر كريـم تركيبه الكيميائى سليكات المغنيسيوم والحديد ويستعمل فى الزينة) .

الزبرجد ، ففي شعر طرفة بن العبد يصف عقدين من لؤلؤ وزبرجد (٩١) :

وفي الحي أحوى ينفض المَرْدَ شادن		مظاهر سِمْطَي لؤلؤ وزَبَرْجَدِ

وهو أنواع ، يقول الجاحظ : إن أحسنه الشديد الخضرة الصافي (٩٢) ، ويصف ابن الأكفاني النوع الجيد بأنه الأخضر ذو الرونق والشعاع الذي لا يشوبه سواد ولا صفرة ولا نمش ولا عروق بيض (٩٣) . وينظم الزبرجد في العقود مع الدر والياقوت قال الشاعر (٩٤) :

تأوى إلى مثل الغزال الأغيد		خمصانة كرشأ المقلد
دراً مع الياقوت والزبرجد		أحصنها في يافع ممرد

الشذر :

الشذر قطع من الذهب تلقط من معدنه بلا إذابة الحجارة ، ومما يصاغ من الذهب فرائد يفصل بها اللؤلؤ والجوهر ، والشذر أيضاً : صغار اللؤلؤ ، وقيل : هنات صغار كأنها رؤوس النمل من الذهب تجعل في الحوق (أي الحلقة) (٩٥) ، وأنشد للمرار الأسدي (٩٦) :

أتين على اليمين كأن شذراً		تتابع في النظام له زليل

وهناك أحجار كريمة أُخرى كالماس والفيروز والبقران والدهنج وغيرها ، لا أتعرض لذكرها لأني لم أجد لها أثرا في الشعر الجاهلي ، وهي مما ذكر في العصور المتأخرة وخاصة العباسية وما بعدها .

---

(٩١) ديوانه ص٢٠ .
(٩٢) التبصر بالتجارة ص١٠ .
(٩٣) نخب الذخائر ص٤٨ والتزيق والحلى ص١٠٩ . وقد يرد الزبرجد مقلوبا بلفظ الزبردج كما جاء فى اللسان (زبرجد) .
(٩٤) اللسان : زبرجد .
(٩٥) الصحاح واللسان والتاج : شذر .
(٩٦) اللسان : شذر .

الحلي أصنافه ومواضعه

لقد اهتمت المرأة خاصة بالحلي فزينت المواضع البارزة من جسمها بأصناف من الحلي ، بدءاً من الشعر في أعلى الرأس والأُذنين والرقبة والصدر ، ومروراً بالساعدين والمعصمين وأصابع اليد فالخصر وانتهاء بالساق وموضع الخلخال وأصابع القدمين .

العقود والقلائد :

ولعل أبرز ما اهتم الشعراء به من حلي المرأة هي العقود والقلائد التي تحلي أجياد النساء وصدورها ، وقد تنوعت جواهر الأعناق ومعادنها ، ففيها الذهب واللؤلؤ والياقوت والزبرجد والجزع وغيرها . والعقد : خيط ينظم فيه اللؤلؤ والخرز يعقد حول الرقبة ، والعقد : القلادة وجمعه عقود ، وقد اعتقدت المرأة الدر والخرز وغيره إذا اتخذته عقداً ، قال عدى بن الرقاع (١) :

وما حسينة إذ قامت تودعنا ... للبين واعتقدت شذرا ومرجانا

أما (النظام) فهو كل شيء منظوم ، و (السمط) هو الخيط الذي يكون فيه النظم من لؤلؤ وغيره ، ويسمى بالسلس أيضاً (٢) وكذلك (المعقاد) خيط ينظم فيه خرزات وتعلق في عنق الصبي (٣) . وتصنع القلادة في الغالب من الذهب أو الفضة ، وقد تكون من ربط أحجار كريمة أو خرز بعضها إلى بعض وتربط حول العنق وتتدلى على الصدر .

وجاء لفظ (القلاد) بمعنى القلادة ، واستشهد ابن سيدة على ذلك بقول الشاعر (٤) :

ليلى قضيب تحته كثيب ... وفي القِلادِ رَشَأ ربيبُ

وقد افتن الشعراء في وصف القلائد والعقود ، فالنابغة الذبياني يصف جيد حبيبته وقد تزين بعقد من الدر والياقوت الذي يفصل بينها اللؤلؤ والزبرجد (٥) :

بالدر والياقوت زين نحرها ... ومفصل من لؤلؤ وزبرجد

---

(١) المخصص ٤/٤٤ واللسان : عقد .
(٢) المخصص ٤/٤٥ .
(٣) اللسان : عقد .
(٤) اللسان : قلد .
(٥) ديوانه ص٣١ ط شكرى فيصل .

ويذكر المرقش الأصغر أن قلائد النساء كانت من ياقوت وشذر وجزع ظفارى ودر (٦) :

تحـلين ياقـوتاً وشَـذْرا وصيغة   وجَـزْعا ظَفـاريا ودُرًّا توأمـا

وجعل قيس بن الحطيم عقد حبيبته من ياقوت وزبرجد (٧) :

وجيـد كجيد الرِئمْ صافٍ يزينُـه   توقـدُ ياقـوت وفَصْـل زبرجدِ

أما طرفة بن العبـد فجعل في جيد حبيبتـه عقداً ذا نظمـين (٨) :

وفي الحي أحوى ينفض المَرْدَ شادنٌ   مظاهر سِمْطَي لـؤلـؤ وزَبَرْجدِ

وقد يكون العقد من لؤلؤ أو ياقوت ويتوسطه فص كبير من نوع آخر ، وهذا الفص الكبير الذي يتوسط العقد يعرف بـ (واسطة العقد) ، يقول ابن سيدة : الواسطة أنفس درة في العقد (٩) . وقد يجعلون فصاً من زبرجد في وسط عقد من ياقوت أو غيره كما مر في شعر قيس بن الحطيم (توقد ياقوت وفصل زبرجد) (١٠) .

وقد يصاغ الياقوت خرزات صغيرة مفقرة مثل فقرات الجرادة ، وذكر ذلك امروء القيس في قوله (١١) :

غـرائر في كِنّ وصَـوْنٍ ونعمـة   يُحلَّـيْنَ ياقـوتا وشَذْرا مُفَقّرا

وقد يسمى الخرز المفقر بـ (المحال) ، وهناك ضرب آخر يعرف بـ (الكبيس) كان يصاغ مجوفا (١٢) ، وقد نوه علقمة بن عبدة بهذين الضربين من الخرز في قوله (١٣) :

محـال كأجـواز الجـراد ولؤلؤ   من القلقـى والكبيس الملـوب

---

(٦) المفضليات ص٢٤٥ .
(٧) ديوانـه ص١٢٥ .
(٨) ديوانه ص٢٠ . والسمط هنا الخيط الذى ينظم فيه الخرز ولا يسمى سمطا الا اذا كان فيه الخرز والا فهو سلك .
(٩) المخصص ٤/٤٥ ويذكرنا هذا ببيت ابن الرومى المشهور : (ديوانه ٢/٦٢٤ ط دار الكتب)
توخى حمـام الموت أوسط صبيتى   فلله كيف اختـار واسطة العقـد
(١٠) ديوانه ص١٢٥ .
(١١) المخصص ٤/٥٠ وديوان امرىء القيس ص ٩٢ .
(١٢) المخصص ٤/٥٠ .
(١٣) ديوانه ص١٩ ط القاهرة ١٩٣٥ .

وكذلك قال النمر بن تولب بأن جيد حبيبته فيه عقد من لؤلؤ وزبرجد قد فصل بخرز صغيرة كفقرات الجراد : (١٤)

أناة عليها لؤلؤ وزبرجد ... ونظم كأجواز الجراد مفصل

ووصف قيس بن الخطيم عقد حبيبته وما فيه من حلي فوق صدرها وشبهه بجراد مقشور لا رؤوس له ولا قوائم (١٥) :

كأن لبّاتها تبددها ... هزلى جراد أجوازه جلف

أما القلائد فأكثر ما تكون من ذهب ، تستقر في أعلى الصدر ، يقول المثقب العبدي واصفاً النساء الظاعنات (١٦) :

أرين محاسنا وكنَنّ أُخرى ... من الأجياد والبَشَرِ المصونِ
ومن ذهب يلوح على تَريبٍ ... كلون العاج ليس بذي غُضُونِ

وتوصف الحلي دائما مشرقة براقة ، وقد يبالغون في رسم الصورة فيجعلون الحلي يستمد لمعانه وإشراقه من ترائب المرأة ، يقول النابغة الذبياني وقد شهد حبيبته وهي على الهودج متأهبة للرحيل (١٧) :

صفحت بنظرة فرأيت منها ... تُحَيتَ الخِدر واضعة القِرامِ
ترائبَ يستضيءُ الحَلْيُ فيها ... كجمرِ النار بُذِّرَ في الظلام
كأن الشَّذْرَ والياقوتَ منها ... على جيداء فاترةِ البُغام

وقد برع الشعراء وأجادوا في وصف قلائد وعقود حبيباتهم ، فالأعشى يصف صدر حبيبته وقد امتلأ باللؤلؤ ، ويستخدم لفظة (يكدس) ليدل على كثرة ما فيه من لؤلؤ (١٨) :

---

(١٤) جمهرة أشعار العرب ص١٩١ ٠
(١٥) ديوانه ص١١٠ ٠
(١٦) المفضليات ص٢٨٩ ٠
(١٧) ديوانه ص١١١ ويروى البيت الثانى : يزرى بالظلام ٠
(١٨) ديوان الأعشى ص٦٢ ٠

أضـاءت أحـورُ العينـين طَفْـلاً   يُـكدَّس في ترائبـه الفريـد

ويصف عمرو بن الاطنابة قيانا عليهن السموط من مرجان مفصل بالدر (١٩) :

إنمـا همهـن أن يتحلـيـ   ـن سـموطا وسُنْبلا فارسـيا
من سـموط المرجـان فُصِّل بالدرِّ   فأحسِـنْ بحَلْيهـن حُلِيَّـا

وهنـاك أنـواع أُخرى من القلائد تتخذها جواري الأعراب من الثمار منها (الحُبْلة) تتخذ من ثمر السَّلَم والسَّيَال والسمر ، وهي هَنَة معقّفـة فيها حب صغار أسود كأنه العدس تسمى الحبلة ، والحبلة أيضاً ضرب من الحلي يصاغ على شكل هذه الثمرة يوضع في القلائد كانت النساء تتخذه في الجاهلية ، قال عبد الله بن سليم الدؤلي (٢٠) :

ولقـد لهوت وكل شيء هـالك   بنَقَـاةِ جَيْبِ الدِّرع غير عَبُوس
ويزِينُهـا في النَّحـر حَلْيٌ واضح   وقـلائد من حُبْلـة وسُلُوس

الأطـواق :

والطـوق حلي يجعل في العنق ، وكل شيء استدار فهو طوق ، والمطوقة الحمامة في عنقها طوق (٢١) . وأكثر ما يكون الطوق من ذهب أو فضة ، وقد تتزين المرأة الجاهلية بأكثر من طوق ، وبذلك وصف الأعشى جيد حبيبته قتيلة وقد زينته الأطواق(٢٢) :

يـوم أبـدت لنا قتيلـة عن جيـ   ـد تزينـه الأطـواق

وقد كانت بعض الأطواق تتخذ من الذهب المزين بالجوهر ، من ذلك أن معاوية بن أبي سفيان كان قد أرسل إلى عائشة أُم المؤمنين طوقاً من ذهب به جوهر قدره مائة ألف دينار (٢٣) . وقد شاع وكثر لبس الأطواق في العصور العباسية مع شيوع وكثرة الغنى والترف .

---

(١٩) الأغانى ١٦٤/٩ والسموط : القلائد ، والسمط : الخيط أو السلك فيه خرز (اللسان : سمط .
(٢٠) اللسان : حبل . والسلس : خيط ينظم فيه الخرز وجمعه سلوس .
(٢١) اللسان والقاموس المحيط : طوق .
(٢٢) ديوانه ص١٢٦ .
(٢٣) المستطرف ٣٥/٢ والتزيق والحلى ص ١٥٨ .

المخـــانق :

والمخنقــة قــلادة تتحلى بها المرأة فيها الدر واللؤلـؤ أو تكون من خرز وغيره ، وتكون ضيقة تلتصق بالرقبة التصاقاً (٢٤) . وذكرت المخنقة في العصر الجاهلي في خبر أبنة قيس بن عاصم المنقري (٢٥) ، وجاءت في رجز هند بنت عتبة مع نساء من قريش في معركة أُحــد (٢٦) :

نحـــن بنـــات طـــارق نمشـــي على النمـــارق
والـــدر في المخــــانق والمســـك في المفـــارق

وفي الأ غــاني أن بثينة صاحبة جميل كانت قد اتخذت مخنقة بلح واسطتها تفاحة (٢٧) . وقد شاع استعمال المخانق والافتنان في صنعها في العصور العباسية .

السِّخاب :

السخاب قلادة تتخذ من قرنفل ، وسُك ، ومحلب ، ليس فيها من اللؤلـؤ والجوهر شيء ، والجمع سُخُب (٢٨) . وقال الجوهري : السخاب كل قلادة كانت ذات جوهر أو لم تكن ، واستشهد بقول الشاعر (٢٩) :

ويـــوم الســـخاب من تعاجيب ربنـا على أنه من بلـدة السوء نجـــــاني

وقد عرف في الجاهلية وصدر الإسلام ، وفي الحديث أن النبي ﷺ حض النساء على الصدقة « فجعلت المرأة تلقى خرصها وتلقى سخابها » يعني القلادة (٣٠) ، وعرّفه ابن الأثير أيضاً فقال : هو خيط ينظم فيه خرز ، تلبسه الصبيان والجواري ، وكانت فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ قد ألبست ابنها الحسين سخابا ، وفي حديث آخر أن قوماً فقدوا سخاب

---

(٢٤) المخصص ٤٤/٤ .
(٢٥) الأغاني ١٤٣/١٢ .
(٢٦) ثمار القلوب ص٢٣٧ .
(٢٧) الأغانى ١٢٦/٦ .
(٢٨) اللسان والقاموس : سخب . السك : ضرب من الطيب . المحلب : من الأفاوية .
(٢٩) اللسان : سخب ، وسيرد البيت بلفظ : الوشاح .
(٣٠) اللســان : سخب والحديث فى صحيح مسلم : صلاة العيدين ، والبخارى : عيدين .

فتاتهم فاتهموا به امرأة (٣١) .

واشتراط بعض المعاجم عدم وجود اللؤلؤ في السخاب لا يصح ، والصحيح ما قال الجوهري : كل قلادة ذات جوهر أو لم تكن . ويعزز هذا القول شعر عمر بن أبي ربيعة الذي ينص على وجود الدر في السخاب يقول (٣٢) :

لقد كان حتفي يوم بانوا بجؤذر عليه سخاب فيه در وعنبر

الوِشَاح :

وتزينت المرأة الجاهلية بالوشاح وهو نسيج عريض من أديم يرصع بالجوهر وتشده المرأة بين عاتقيها ، وتوشحت المرأة إذا لبست الوشاح (٣٣) ، وفي اللسان : الوشاح كرسان من لؤلؤ وجوهر منظومان مخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر تتوشح المرأة به (٣٤) ، وقال ابن سيدة : التوشح أن يتشح بالثوب ثم يخرج طرفه الذي ألقاه على عاتقه الأيسر من تحت يده اليمنى ثم يعقد طرفيهما على صدره (٣٥) . ومنه حديث المرأة السوداء التي تقول :

ويوم الوِشاح من تعاجيب ربنا على أنه من بلدة الكفر نجَّاني

قال ابن الأثير : كان لقوم وشاح ففقدوه فاتهموها به ، وكانت الحدأة أخذته فألقته إليهم (٣٦) . وقيل : لا يكون وشاحاً حتى ينظم بلؤلؤ أو ودع (٣٧) ، وقد شبه امروء القيس الثريا وسط السماء بالوشاح المفصل (٣٨) :

إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل

---

(٣١) اللسان : سخب ، وسيرد الحديث فى شاهد الوشاح ·
(٣٢) ديوانه ص٢٨٦ ط السعادة مصر ·
(٣٣) الصحاح : وشح ·
(٣٤) اللسان والقاموس : وشح · كرسان : أى نظمان ·
(٣٥) اللسان : وشح ، وقيل التوشح بالرداء مثل التأبط والاضطباع ، وهو ان يدخل الثوب من تحت يده اليمنى فيلقيه على منكبه الأيسر كما يفعل المحرم ، وكذلك الرجل يتوشح بحمائل سيفه فتقع الحمائل على عاتقه اليسرى وتكون اليمين مكشوفه ·
(٣٦) اللسان : وشح ، والحديث فى البخارى : صلاة ، مناقب الأنصار ·
(٣٧) المخصص ٩٨/٤ ·
(٣٨) ديوانه ص٣٩ ·

وقال عنترة يصف قوام عبلة (٣٩) :

والشمس بين مضرج ومبلج ... والغصن بين موشح ومقلد

وقال شاعر آخر يصف خصر امرأة (٤٠) :

وتكسو الوشاح الرخو خصرا كأنه ... اهان ذوى عن صفرة فهو أخلق

وقد تلبس المرأة وشاحين في آن واحد ، وكذلك يقول عروة بن حزام (٤١) :

كأن وشاحيها إذا ما ارتدتهما ... وقامت عنانا مهرة سلسان

البَرِيم :

والبريم من الحلي التي تشدها المرأة على وسطها وعضدها ، وقد يكون حبلاً مفتولا فيه لونان (٤٢) ، ووصفته بعض المعاجم بأنه حبل فيه لونان مزين بجوهر تشده المرأة على وسطها وعضدها (٤٣) ، أو خيط فيه ألوان تشده المرأة على حقويها وفيه خرز (٤٤) أنشد الأصمعي للكروس بن حصن (٤٥) :

وقائلة نِعمَ الفتى أنت من فتى ... إذا المرضعُ العرجاء جال بريمُها

وقد يعلق على الصبي تدفع به العين ، وأعجبهم فيه ألوانه الجذابة ، ومنه سمي الجيش بريما لألوان شعار القبائل فيه ، قال العجاج (٤٦) :

أبدى الصباح عن بريم أخصفا

وقد لاحظ علقمة الفحل دموع فتاة تبكي وقد خالط دمعها الأثمد فذكره هذان اللونان الأسود والأبيض بالبريم فقال (٤٧) :

---

(٣٩) ديوان عنترة ص ٦٩ ط شلبى ٠
(٤٠) المخصص ٤/٩٨ ٠
(٤١) النوادر ص ١٦١ وتزيين الاسواق ص٧٨ ٠
(٤٢) الصحاح : برم ٠
(٤٣) اللسان والقاموس : برم ٠
(٤٤) اللسان : برم ٠
(٤٥) الصحاح واللسان : برم ٠
(٤٦) السابق .
(٤٧) ديوان علقمة الفحل ص٤٢ ٠

بعيني مهاة يحدر الدمع منهما ... بريمين شتى من دموع وأثمد

ويشبه سلمة بن الخرشب حزام فرسه إذا جال واضطرب كأنه بريم المرأة (٤٨) :

إذا كان الحزام لقُصْرَيَيْها ... أماماً حيث يُمْتَسك البريمُ

الأقراط والشنوف :

ومن زينة الأُذن في المرأة القرط ، وهو ما يعلق في شحمة الأُذن (٤٩) ، والشَّنْف في أعلى الأُذن ، والجمع شنوف ويكون من الذهب أو الفضة ، وقد تكون درة تعلق في الأُذن فتسمى قرطاً ، وقيل : الشنف والقرط سواء ، وجعل ابن الأعرابي الشنف أعلى الأُذن والرعثة في أسفلها ، وقال الليث : الشنف معلاق في قوف الأُذن (٥٠) وقوف الأُذن أعلاها ، وإذا كانت حبة من فضة سميت (تومة) ، وتسمى المعاليق من الذهب قرطاً أيضاً (٥١) .

وتزين الأُذن بالأقراط والشنوف وبها يبدو جمال الجيد ويتضح طوله ، ولذلك كنوا عن طول الرقبة ببعد مهوى القرط ، يقول عمر بن أبي ربيعة (٥٢) :

وباتت تَمجُّ المِسك في فِيَّ غادة ... بعيدة مهوى القرط صامتة الحِجْلِ

وصور عبيد بن الأبرص هذا المعنى بشكل أدق وأروع (٥٣) :

بان الخليط الأوَلى شاقوك إذ شَحَطوا ... وفي الحُدوجِ مَهاً أعناقُها عِيَطُ

ناطوا الرِّعاثَ لمهوى لو يزِلُّ به ... لا ندقَّ دون تلاقي اللَّبَّةِ القُرُطُ

وقد تناول النابغة المعنى نفسه وبالغ فيه (٥٤) :

إذا ارتعشت خاف الجبان رِعاثَها ... ومن يتعلق حيث عُلِّق يفرقِ

---

(٤٨) المفضليات ص ٤٠ .
(٤٩) الصحاح واللسان : قرط .
(٥٠) اللسان : شنف .
(٥١) اللسان : قرط .
(٥٢) ديوانه ص١٠٦ .
(٥٣) ديوان عبيد بن الأبرص ص٩١ .
(٥٤) ديوانه ص٣٩ .

والخُـرْص (٥٥) : ضرب آخر من الأقراط ، قيل هو الحلقـة من الذهب أو الفضة ، أو هو الذي يتدلى من جزئه السفلي حبة واحدة ، قال الشاعر (٥٦) :

عليهـــن لُعْس من ظبـــاء تَبَـــالةٍ   مذبذبة الخرصان بـــادٍ نحورهـــا

وقد تكون في القـرط ذلاذل وعذبات تهتز عند حـركة العنق ، قال المرقش الأكبر يصف قرط حبيبته الذهبي (٥٧) :

يهدلـــن في الآذان من كل مذهب   له ربـــذ يعيـــا بـــه كل واصف

ويصف سيار الأباني قـرط صاحبته بأنه دقيق الصنع يشبه فقـر الجرادة أو فقر اليعسوب أمير النحل وتشده بأذنها بخيط حتّى لا يسقط (٥٨) :

كأن خـــوْقَ قرطهـــا المعقـــوب   عـــلى دَبَـــاةٍ أو عـــلى يعســـوبِ

ونوع آخر من الأقراط يسمى (الحِبّ) وهو القرط من حبة واحدة ، ويسمى الخُرْص أيضاً ، إلا أن الخرص حلقـة من ذهب أو فضة (٥٩) . وفي الحديث أن النبي ﷺ وعظ النساء وحثهن على الصدقة ، فجعلت المرأة تلقى الخرص والخـاتم (٦٠) ، وفي حديث آخر : « إيما امرأة جعلت في أذنها خرصاً من ذهب جعل في أُذنها مثله خرصاً من النار » (٦١) قيل : كان هذا قبل النسخ لأن الذهب مباح للنساء ، وقيل : هو خاص بمن لم تؤد زكاة حليها (٦٢) .

وقد تتزين المرأة بأكثر من خرص في أذنها ، فقد جاء في الحديث أن صفية بنت حي عندما قدمت لتتزوج النبي ﷺ كان في أُذنيها خرصة من ذهب ، وهبت منها لفاطمة

(٥٥) الخرص : بضم الخاء وكسرها ، حلقة صغيرة من الحلى وهى من حلى الأذن ٠
(٥٦) اللسـان : خرص ٠
(٥٧) المفضليات ص٢٣١ ٠
(٥٨) الأمالى ١/١٨٤ واللسان : عقب ٠ وانظر المرأة فى الشعر الجاهلى ص٣٩٥ ، المعقوب : المشدود بعقب ، وعقب القرط شـده بعقب خشية ان يزيغ ، ويسـمى الخيـط : العقـاب (اللسـان : عقب) ٠
(٥٩) اللسـان : خرص ٠
(٦٠) اللسان : خرص ، وانظر الحديث فى البخارى : عيدين ، زكاة ، ومسلم : عيدين ٠
(٦١) اللسان : خرص ، والنسائى : زينة ٠
(٦٢) اللسان : خرص ٠

ونساء أُخريات معها (٦٣) .

أما (الرَّعْث) والرَّعْثَة ، فما علق بالأُذن من قرط ونحوه ، وقد تكون الرعثة درة تعلق بالقرط ، قال النمر بن تولب (٦٤) :

وكل خليل عليه الرِعاث والحُبُلاتُ كذوب مَلِقْ

وترعثت المرأة بمعنى تقرطت ، وكانت الرعاث توضع في آذان الصبية للتزيين ، وصبي مرعث أي مقرط ، ومنه قول رؤبة : (رَقراقة كالرشأ المرعَّثِ) وقد لقب بشار بن برد بالمرعث لرعاث كانت له في صغره في أُذنه (٦٥) .

وكانت الرعاث من ذهب أو من لؤلؤ ، جاء في الحديث : قالت أم زينب بنت نُبَيْط : كنت أنا وأختاي في حجر رسول الله ﷺ ، فكان يحلينا رعاثا من ذهب ولؤلؤ(٦٦) . وقد توسع الأزهري في معنى الرعاث فجعله : كل معلاق كالقرط ونحوه يعلق من أُذن أو قلادة فهو رعاث (٦٧) .

ومن الأقراط ضرب يسمى (الخِلْدَة) ، والخلدة : جماعة الحلي ، ومنه قوله تعالى : (يطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً) (٦٨) ، قال الزجاجي : محلون ، وقال أبو عبيد : مسورون ، واللفظة يمانية وأنشد :

ومُخَلَّداتٍ باللُّجَيْن كأنما أعجازُهن أقاوِزُ الكثبانِ

وقيل مخلدون : مقرطون بالخلدة ، وخلّد جاريته إذا حلاها بالخلدة وهي القرطة وجمع الخلدة خلد (٦٩) .

وتماثل المسميات في الحلية الواحدة فقد سموا القرط بالخرص وسموه بالحب وليس هناك فروق واضحة إلا أن الحب قرط من حبة واحدة كما سبق ، ومما جاء في الشعر في الحب

---

(٦٣) طبقات ابن سعد ٩١/٨ والتزيق والحلى ص١٣٨ .
(٦٤) اللسان : رعث .
(٦٥) اللسان : رعث ، ولطائف المعارف ص١١١ .
(٦٦) اللسان : رعث .
(٦٧) السابق .
(٦٨) الانسان ١٩ .
(٦٩) اللسان : خلد ، وانظر التلخيص للعسكرى ص٣٥٢ .

أن الأصمعي سأل جندل بن عبيد الراعي عن معنى قول أبيه الراعي :

تَبيتُ الحيَّةُ النَّضْناضُ منه ... مكان الحِبِّ يستمع السِّرَارا

ما الحب ، فقال : القرط ، فقال : خذوا عن الشيخ فإنه عالم(٧٠) .

التُّومَةُ :

أما التومة فتكون كالحب من لؤلؤة واحدة أيضاً ، والتومة : اللؤلؤة ، قال ذو الرمة يصف نباتاً وقع عليه الطل فتعلق في أغصانه كأنه الدر(٧١) :

وَحْفٌ كأن الندى والشمس ماتِعةٌ ... إذا توقَّدَ في أفنائه التُّومُ

والتومة أيضاً : حبة تعمل من الفضة كالدرة ، والتومة : القرط فيه حبة ، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال للنساء : « أتعجز إحداكن أن تتخذ تومتين من فضة ثم تلطخهما بعنبر » (٧٢) .

وسميت الدرة تومة تشبيهاً لها بما يسوى من الفضة كاللؤلؤة المستديرة تجعلها الجارية في أذنيها ، ومن ذلك سميت بيضة النعام تومة تشبيهاً لها بتومة اللؤلؤ ، ومنه قول ذى الرمة (٧٣) :

وحتى أتي يوم يكاد من اللظى ... به التوم في افحوصه يتصيَّحُ

وكان لجرير قصيدتان مدح بهما عبد العزيز بن مروان وهجا الشعراء يسميهما التومتين إحداهما (٧٤) :

ظعن الخَليطُ لغربة وتنائى ... ولقد نسيت برامتينِ عزائى

والثانية التي يقول فيها (٧٥) :

---

(٧٠) اللسان : حبب .
(٧١) اللسان : توم ، وتوقد : بمعنى أنار لطلوع الشمس .
(٧٢) اللسان : توم ، والحديث فى مسند ابن حنبل ٤٥٤/٦ باختلاف فى اللفظ ، وفى النسائى : زينة حديث قريب من معناه .
(٧٣) اللسان : توم ، التوم هنا : البيض ، ويتصيح : لغة فى يتصوح بمعنى يتشقق .
(٧٤) اللسان : توم ، وديوان جرير ص١٥ وفيه : بكر الأمير .
(٧٥) ديوانه ص٢٢٣ ومطلع القصيدة :

صرم الخليط تباينا وبكورا ... وحسبت بينهم عليك يسيرا

يا صاحبيَّ دنـا الرواحُ فسـيرا	لا كالعشيـَّة زائـراً ومـزورا

أما إذا قيل للتومة (توأمية) فهما عندئذ درتان للأُذنين إحداهما توأمة للأُخرى ووصف الأعشى غلاماً في حـانة وبأذنيه تومتان(٧٦) :

وذو تومتـين وقاقُـزّة	يَعُـلُّ ويُسـرع تكرارهـا

ووصفه مرة أُخـرى بأنه (٧٧) :

هَـزِجٌ عليـه التُّومتـانِ	إذا نشـاء عَـدا بهـا

وأشهر ما عرف التاريخ الجاهلي من حلي الأُذن هو قرط مارية بنت ظـالم بن وهب ، وكانت عليه درة تشبه بيض الحمـام لم ير الناس مثله ولم يعرفوا قيمته فـكان مضرب الأمثـال (٧٨) .

السِّـوار والدُمْلُـج :

ومن حلي اليد السوار تتحلى به المرأة في معصمها ، وقد يتحلى به الرجل أيضاً (٧٩) ، والسوار (بكسر السين وضمها) والجمع أسورة وجمع الجمع أساور وقد يجمع على : إسوار وأساورة (٨٠) ، ويقال أن السوار معرب عن الفارسية وأصله (ستوار) واشتقوا من الكلمة : سورت الجارية ، وجارية مسورة (٨١) . وكان بعض اللغويين قد أنكر رأي أبي عمرو بن العـلاء في استعمال الأسوار لغة في السوار ، ولذلك فقد عزز الزبيدي رأي أبي عمرو بأربعة شواهد نفعتنا في معرفة السوار من ذلك قول الأحـوص(٨٢) :

غـادة تغـرث الوِشـاح ولا يغْـ	ـرَثُ منها الخَلْخَـالُ والإسْوارُ

وكذلك قول حميد بن ثور وقد وصف النساء بالامتلاء وأسوارهن أعجم لا ينطق ، وحركته نطقه :

---

(٧٦) ديوان الأعشى ص٩١ ٠
(٧٧) ديوانـه ص١٨ ٠
(٧٨) المستطرف ٢/٣٥ ٠
(٧٩) كان بعض المحاربين يلبسون الأسورة ويتباهون بها فى الحروب ٠ جواد على ٧/٥٦٣ ٠
(٨٠) اللسـان : سـور ٠
(٨١) التاج : سور ، والمفردات ص٢٤٧ وجامع الأصول ٥/٤٠٨ والمعرب ٠
(٨٢) اللسـان : سـور ٠

يطُفْنَ به رأدَ الضحى وينُشْنَهُ   بأيدٍ ترى الإسْوارَ فيهن أعجما

وقال العرندس الكلابي يخاطب عاشقاً يبكي على امرأة مترفة ذات خلخال وإسوار :

بل أيها الراكب المفنى شبيبته   يبكي على ذات خلخال وإسوار

وقد نص المرار الفقعسي على أن إسوار هذه الجارية من ذهب وقد زاد حسنه أن يدها مخضوبة بالحناء وعندها تكون اليد في غاية الحسن :

كما لاح تِبْرٌ في يد لمعت به   كَعَابٌ بدا إسوارُها وخضيبها

وورد ذكر الأساور في القرآن الكريم في قوله تعالى : (يحلون فيها من أساور من ذهب) (٨٣) . وقال تعالى : (فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب) (٨٤) ، وفي الآيتين تخصيص الأساور بالذهب ، وقد انفرد أبو إسحاق الزجاج بقوله : الأساور من فضة ، ولعله أراد بالأساور هنا (القلب) وهو من فضة ويسمى سوارا ، وإذا كان القلب من ذهب فهو سوار أيضاً (٨٥) .

وسورت المرأة ألبستها السوار فتسورت ، وفي الحديث : « أتحبين أن يسورك الله بسوارين من نار » (٨٦) . وكانت المرأة وما زالت تتكلم مستعينة بحليها ، فهي تحرك يدها ذات السوار إذا تكلمت أو أشارت ، تبدي محاسنها ، ولذلك يقول النابغة الذبياني بأن هذه المرأة (أبدت) سوارا (٨٧) :

أبدت سوارا عن وشوم كأنها   بقية ألواح عليهن مذهب

والمرأة التي تتحلى بالأساور تكون مترفة متنعمة من علية الناس ، ولذلك جاء المثل (لو ذات سوار لطمتني) (٨٨) .

والأغلب أن يكون السوار من ذهب كما مر ، إلا أن لبيدا جعل أسورة النساء من

(٨٣) فاطر ٣٣ والحج ٢٣ والكهف ٣١ .
(٨٤) الزمر ٥٣ .
(٨٥) اللسان : سور .
(٨٦) اللسان : سور ، وابو داود والترمذى والنسائى : زكاة .
(٨٧) ديوانه بشرح البطليوسى ص٢٨ .
(٨٨) اللسان : لطم .

جمان ومرجان (٨٩) :

وعــالين مضعوفا وفـَرْدا سُموطـُه   جُمانٌ ومَرْجَانٌ يَشُدُّ المفَاصِلا

هـذا إذا كان المراد بالمفاصل مفصل المعصم ، أما إذا كان المراد بالمفاصل الخرزات التي تفصل بين كل اثنتين في السلك فهو يصف قـلادة .

القَلْـــد والقُلْب :

وإذا كان السوار من فضة فهو القلد ، والمراد به السوار المفتول من فضة (٩٠) ، وفي اللسان : القلـد ، ادارتك قُلْبا على قُلْـب من الحُـلْيّ ، وكذلك لي الحديدة الدقيقة على مثلها ، وقلد القلب على القلب لـواه . والمراد بالقَلْد : السوار المبروم بعضه على بعض وكل جزء منه يسمى قلبا ، وسميت الحية البيضاء قلبا على التشبيه بالقلب من الأسورة (٩١) . وفي الحديث : « أن فاطمة حلّت الحسن والحسين عليهم السلام قلبين من فضة » (٩٢) ، وأن رسول الله ﷺ رأى في يــد عائشة قلبين (٩٣) ، وفي حديث عائشة في قوله تعالى : « ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها » (٩٤) ، قالت : القلب والفتخــة (٩٥) . وقد ورد القلب في الشعر الإسلامي في قول عمر بن أبي ربيعة (٩٦) :

مشـــبع الخلخـــــال والقلبــ   ـــين صـــياد القـــلوب

اليَـــارق :

ومن أصناف الأسورة صنف يسمى اليَارق (٩٧) ، وهو الجِبارة ، والجبائر الأسورة من الذهب والفضة واحدتها جبارة وجبيرة وأنشد للأعشى (٩٨) :

فأرَتْــــكَ كَفــًّا في الخِضــــا   ب ومِعْصَما مِـلْءَ الجِبــارة

(٨٩) ديوان لبيد ص١١٧ .
(٩٠ ، ٩١) اللسان : قلد ، الصحاح : قلد .
(٩٢) اللسان : قلب ، أبو داود : ترجل .
(٩٣) اللسان : قلب .
(٩٤) النـور ٣١ .
(٩٥) اللسان : قلب ، والفتخة : حلقة من فضة لا فص فيها ، فاذا كان فيها فص فهو خاتم .
(٩٦) ديوان عمر بن أبى ربيعة ص٨٩ ط العنانى مصر .
(٩٧) اللفظة فارسية معربة ، المعرب ص٣٥٧ .
(٩٨) اللسان : جبر ، عصم ، وديوان الأعشى ص٧٦ وفيه : وساعدا مثل الجبارة .

ويبدو أن اليارق والجبارة ضربان متميزان من الأسورة ولكن المعاجم لم تفرق بينهما تفريقاً واضحاً ، ففي اللسان : اليارق ، الجبارة ، وهو الدستينج العريض ، معرب ، وقال : اليارق ضرب من الأسورة ، وقيل السوار ، واستشهد بقول شبرمة بن الطفيل (٩٩) :

لعمري لَظَبيٌ عند باب ابن مُحْرِزٍ أغَنُّ عليه اليارقانِ مَشُوفُ
أحبُّ إليكم من بيوت عِمادها سيوفٌ وأرماح لهن حفيفُ

وقيل : إن اليارق سوار عريض مزين بالدر وقد فصلت لآلئه تفصيلاً ، قال الأعشى يصف امرأة مترفة لبست الخز والحرير وتحلت بأصناف الحلي وفي معصمها يارقان مفصلان بالدر (١٠٠) :

ترى الخَزَّ تلبسه ظاهرا وتُبطِنُ من دون ذاك الحريرا
إذا قلّدت معصما يارقَيْـ ـنِ فُصِّلَ بالدُرِّ فَصْلا نضيرا
وجلَّ زبرجدةٌ فوقه وياقوتةٌ خِلتَ شيئاً نَكِيرا

وفي الإسلام كان عمر يتغزل بفتاة في عنقها قلادة من لؤلؤ وفي يدها يارق (١٠١) :

تعلق هذا القلبُ للحب معلقا غزالاً تحلى عقد در ويارِقَا

الوَقْف :

ومن الأسورة ضرب يسمى الوقف ، وهو السوار من الذَّبْلِ والعاج (١٠٢) وقيل : الوقف الخلخال وكل ما كان من شيء من الفضة والذبل وغيرهما ، وأكثر ما يكون من الذبل ، والذبل شيء كالعاج ، وهو ظهر السلحفاة البحرية يتخذ منه السوار ومنه قول جرير (١٠٣) :

ترى العَبَسَ الحولىَّ جَوْنَاً بكُوعها لها مَسَكا من غير عاج ولا ذَبْلِ

(٩٩) اللسان : يرق .
(١٠٠) ديوانه ص ٨٦ .
(١٠١) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص٣٨٢ .
(١٠٢) اللسان : وقف .
(١٠٣) الصحاح : ذبل ، وديوان جرير ص٣٧١ .

وأنشد ابن برى مستشهدا على أن الوقف من عاج بقول ابن مقبل (١٠٤) :

كأنــه وقفُ عــاجٍ بــات مكنــونا

وجــاء الوقف في شعر النابغــة الجعــدي في قوله (١٠٥) :

كوقف العــاج من مســك ذكــي   يجــيء به من اليمـــن التّجّــارُ

المَسَــك :

ويسمى السوار مَسَكا إذا كان من ذبــل ، أو يتخذ من قرون يلبسها الأعراب ، أما إذا كان من عاج فهو وقف (١٠٦) ، ويبدو أن صنع المسك من مادة رخيصة هو الذي جعلهم يفرقون بينه وبين الوقف وإن كانت التسمية تتداخل ، فالمسك : الأسورة والخلاخيل من الذبل والقرون والعاج ، والذبل : القرون أو ظهر السلحفاة البحرية ، فإن كان من عاج ، فهو مسك وعاج ووقف ، وإذا كان من ذبل فهو مسك لا غير (١٠٧) . وقد يكون المسك من العاج والفضة أو من العاج والذهب ، جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ رأى على عائشة رضي الله عنها مسكتين من فضة ، ويروى : مسكتي ذهب (١٠٨) .

وقد يتحلى الرجال بالمسك كما يتحلون بالأقراط والدمالج وخاصة الملوك ، ففي حديث أبي عمرو النخعي : رأيت النعمان بن المنذر وعليه قرطان ودملجان ومسكتان (١٠٩) . ومادام المسك سواراً أو حلقة فقد استعاره أبو وجزة فجعل ما تدخل فيه الآن أرجلها من المــاء مسكا فقال (١١٠) :

حتى سلكن الشــوى منهن في مَسَكٍ   من نسل جوّابــةِ الآفــاق مِهْداجِ

الدُمْلُــج :

الدملج والدملوج : المِعْضَد من الحُلِيّ التي تكون في العضد وإلى ذلك يشير

(١٠٤) اللسان : وقف .
(١٠٥) الجماهــر : البيرونى ص١٣٥ .
(١٠٦) اللسان : وقف ، والتلخيص ـ العسكرى ٣٤٩/١ .
(١٠٧) الصحاح واللسان والتهذيب والقاموس المحيط : مسك .
(١٠٨) اللسان : مسك ، والنسائى : زينة وفيه : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى عليها مسكتى ذهب .
(١٠٩) السـان : مسـك .   (١١٠) اللسبـان ! مسـك .

الشاعر (١) :

والبيضُ في أعضادها الدماليج ومعطياتٌ بُدلُ في تعويج

وقد جاء في شعر طرفة بن العبد (٢) :

كأن البُرَيْن والدَّماليجَ عُلِّقتْ على عُشَرٍ أو خِروَعٍ لم يُخَضَّدِ

وقد تستعمل المرأة دملجين في كل عضد واحد من ذلك ما جاء في شعر عنترة (٣) :

وتحتي منها ساعد فيه دُمْلجٌ مضيء وفوقي آخر فيه دملجُ

ومما يعزز قول عنترة هذا من أن في عضدي صاحبته دملجين ما رواه أبو الفرج من أن سكينة بنت الحسين أهدت إلى ابن سريج دملجاً من ذهب كان في عضدها وزنه أربعون مثقالا فأقسمت على أن يدخله في يده ففعل ذلك ، وخلعت دملجها الآخر فرمته إلى عزة المغنية وقالت : صيري هذا في يدك ففعلت (٤) . وفي الرواية اشارة إلى أن الرجال كانوا يستعملون الدمالج أيضاً . وفي الحديث النبوي ما يعزز هذا الرأي روى أن رسول الله ﷺ قال : « إني رأيت فيما يرى النائم أن في عضدي سوارين من ذهب فكرهتهما فنفختهما فطارا فأولتهما بكذاب اليمامة وكذاب صنعاء (٥) » ، وقد سمى الحديث الدملج سوارا (إن في عضدي سوارين) . ويسمى الدملج معضدا لأنه يجعل زينة في العضد (٦) .

الخَاتِم :

الخاتم (بكسر التاء وفتحها) من حلي اليد يوضع في الأصابع فيكون في اصبع واحدة أو عدة أصابع ، ونعرف من أخبار النساء المسلمات أن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص كانت تتختم في الأصبعين اللذين يليان الخنصر (٧) ، وقد تضعه النساء في أصابع اليدين

---

(١) الصحاح واللسان : دملج ·
(٢) ديوان طرفه ص٣٣ ·
(٣) ديوان عنترة ص٣٥ شلبى بمصر ·
(٤) الأغانى ١٥/١٢٦ ·
(٥) الكامل ـ ابن الأثير ٢/٢١٥ ط بيروت ١٩٦٧ ، والبخارى ومسلم : تعبير الرؤيا ·
(٦) اللسان : عضد ·
(٧) طبقات ابن سعد ٧/٣٤٣ ·

كلتيهما ، ويستعمله الرجال والنساء على السواء ، وقد تضعه النساء في أصابع القدمين أيضاً ، روى أنه كان لأم حبيبة زوج الرسول ﷺ خواتيم من فضة كانت في أصابع رجليها (٨) . ويحلى الخاتم بالحجارة الكريمة مثل الياقوت والماس والشذر ، وقد يكون بدون فص .

وقد يستعمل الخاتم للختم كذلك أي للطبع بدلاً من التوقيع ، وذلك بحفر رمز أو كلمة أو عبارة أو اسم صاحب الخاتم على الخاتم ، ويختم به على الوثيقة أو الشيء المراد ختمه فيقوم إذ ذاك مقام التوقيع ، ويقال لما يوضع على الطينة وما يختم على اللبنة الخاتم كذلك (٩) ، ولذلك عد الخاتم عند الشعوب القديمة رمزاً للتفويض والتصديق والملك ، وختم الملك يدل على إرادة الملك ورضائه وأمره ولذلك قيل : خاتم الملك (١٠) . ويسمى الطين الذي يختم به على الكتاب وغيره الختام ، ومنه قول الأعشى يذكر باطية خمر مختومة (١١) :

وصهباءَ طاف يهوديُّها وأبرزَها وعليها خُتُمْ

وكانت الخواتم تزين بنقوش ، وأحياناً يكتب عليها فتكون ختماً أو توقيعاً ، وكان خاتم رسول الله ﷺ منقوش عليه : (محمد رسول الله) (١٢) .

وورد الخاتم في الشعر بلفظ (الخيتام) في قول الشاعر (١٣) :

يا هندُ ذاتَ الجَوْرَبِ المنشَقِّ أخذتِ خَيْتامي بغير حَقِّ

وقال آخر : (أتوعدنا بخيتام الأمير) ، وكان الرجال كثيراً ما يضعون الخاتم في أصبعهم الخنصر من اليد اليسرى ، ولذلك يقول بعض بني عقيلٍ وقد استعمل لفظ (الخاتام) (١٤) :

لئن كان ما حُدِّثته اليوم صادقاً أصُمْ في نهار القَيْظ للشمس باديا
وأركبْ حماراً بين سَرْجٍ وفروةٍ وأُعْرِ من الخاتام صغرى شِماليا

---

(٨) طبقات ابن سعد ٨/٦٩ .
(٩) اللسان والتاج : ختم ، وانظر جواد علي ٧/٥٦٣ ـ ٥٦٤ .
(١٠) جواد علي ٧/٥٦٤ .
(١١) اللسان : ختم وديوان الأعشى ص١٩٦ .
(١٢) البخاري ومسلم : لباس .
(١٣) اللسان : ختم . (١٤) اللسان : ختم .

الفَتَخَة :

إن الخواتم في أكثرها مزينة بفصوص من اللؤلؤ أو العقيق ، وهناك نوع آخر بسيط من غير فصوص يسمى (الفتخة) ، والفَتَخَة (بالتحريك) : حلقة من فضة لا فص فيها ، فإذا كان فيها فص فهو الخاتم (١٥) ، وتكون الفتخة في اليد وفي الرجل .

وقيل : هي حلقة من فضة توضع في أصابع الرجل ، وذكرت الدهناء بنت مسحل زوج العجاج في شعر لها وعينت موضع الفتخة في أصابع قدميها : (تسقط منه فَتَخِي في كُمِّي) (١٦) . وروى عن عائشة أنها قالت : الفتخ حلق من فضة يكون في أصابع الرجلين وحين سئلت عن قوله تعالى : (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) قالت : القلب والفتخة(١٧)

الخَلْخَال :

والخلخال من الحلي التي تتزين بها النساء في الساق ، ويصاغ من الذهب (١٨) أو الفضة ، وقد ذكر الخلخال امرؤ القيس في قوله (١٩) :

كأني لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

والخلخل لغة في الخلخال أو مقصور منه ، قال الشاعر (٢٠) :

برَّاقة الجيد صموت الخَلْخَلِ

وقد كني عن امتلاء ساقها بصمت الخلخال ، أما الأعشى فقد وصف ساقي حبيبته قتيلة الممتلئتين وفيهما الخلخال ذو الأجراس له صوت ورنين فقال (٢١) :

وساقان مارَ اللحمُ مَوْرا عليهما إلى منتهى خَلْخَالِها المتصَلْصِل

---

(١٥) الصحاح واللسان : فتخ .
(١٦) اللسان : فتخ .
(١٧) سورة النور ٣١ واللسان : فتخ ، قلب .
(١٨) اكثر ما يكون الخلخال من الذهب ، ففى الأغانى ان فاطمة بنت أبان بن الوليد أهدت الى ريا بنت الكميت بن يزيد الشاعر خلخالى ذهب كانا عليها وذلك عندما كانتا تحجان بمكة . (الأغانى ١٥/١٢٤) .
(١٩) ديوان أمرىء القيس ص١٤٣ .
(٢٠) الصحاح واللسان : خلخل .
(٢١) ديوان الأعشى ص١٤٠ .

وكان للجلاجل التي في الخلخال صوت فيه إثارة للرجال وتأثير عليهم وخاصة عندما تسير المرأة المتزينة وتضرب برجلها فيحدث خلخالها صوتاً مغرياً ، ولذلك قيل في تفسير قوله تعالى : (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) (٢٢) يراد به الخلخال وإن إسماع صوته بمنزلة ابدائه (٢٣) .

الخِدَام :

وهناك ضرب من الخلاخيل تعرف بالخدام ، واحدها خَدَمَة ، وأصل الخدمة سير يشد في رسغ البعير تشد إليه سريحة النعل (٢٤) ، وبه سمي الخلخال خدمة لأنه ربما كان من سيور يركب فيه الذهب والفضة (٢٥) ، وموضع الخدمة من الساق هو المخدم ، يقول طفيل الغنوي (٢٦) :

وفي الظاعنين القلبُ قد ذهبت به ... أسيلةُ مجرى الدمع ريّا المخدّمِ

وقد تسمى الساق خدمة حملاً على الخلخال لكونها موضعه قال الشاعر في وصف الغارة (٢٧) :

تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي ... عن خدام العقيلة العذراء

وعند الحرب والهول والفزع تضطرب النساء وتهرب فعبروا عن ذلك بظهور خدامهن كما في البيت السابق وكذلك يقول الشاعر (٢٨) :

كان منا المطاردون على الأُخـ ... ـرى إذا أبدت العذارى الخدامى

---

(٢٢) سورة النور ٣١ .

(٢٣) انظر المرأة فى الشعر الجاهلى ص٣٩٤ .

(٢٤) يقول الأعشى فى وصف نعال الابل المشدودة بسيور فى أرساغها : (ديوانه ص١٨٢ واللسان : خدم) .

ضوامر خوصا قد أضر بها السرى ... وطابقن مشيا فى السريح المخدم

واذا كان فى أرساغ الحيوان بياض أو لون يخالف سائر لونه يسمى محجلا أو مخدما ، قال عبدة بن الطبيب يصف ثورا فى ارساغه سواد : (المفضليات ص١٣٨ وشعر عبدة بن الطبيب ص٦٥) .

مسفع الوجه فى ارساغه خدم ... وفوق ذاك الى الكعبين تحجيل

(٢٥) الصحاح واللسان : خدم ، والمخصص ٤/٢٤٩ .

(٢٦) ديوان طفيل الغنوى ص٣٣ ط كرنكو لندن ١٩٢٧ واللسان : خدم .

(٢٧) اللسان : خدم ... (٢٨) اللسان : خدم .

وقد وردت الخدام في الحديث : « كن يدلجن بالقرب على ظهورهن ويسقين أصحابه بادية خدامهن » (٢٩) . ويسمى الخلخال الحجل أيضاً (٣٠) ، وقد جاء في شعر النابغة الذبياني في وصف ساق المرأة بالامتلاء ، فالحجل صامت قليل النطق (٣١) :

على أن حجليها وإن قلت أوسعا ... صموتان من ملءٌ وقلة منطق

البُرَى :

وضرب آخر من الخلاخيل يعرف بالبرى ، الواحدة بُرَةٌ ، والبُرَة : الخَلْخَال ، والبرة أيضاً : الحلقة في أنف البعير وتكون من صفر أو غيره وتجعل في لحم أنف البعير (٣٢) . وقد يتوسع في معنى البرة فيسمى بها كل حلقة من سوار وقرط وخلخال وما أشبهها ، قال الشاعر (٣٣) :

وقعقعنَ الخلاخِلَ والبُرينا

وتجمع البرة على برى وبرين ، وقد استعمل طرفة بن العبد هذا الجمع الأخير وهو يصف ساقي المرأة وعضديها ويشبهها في اللين والملاسة بشجر العشر والخروع (٣٤) :

كأن البُرِينَ والدماليجَ علِّقَتْ ... على عُشَرٍ أو خِرْوعٍ لم يخضَّدِ

الرَّسْوة :

أما الرسوة فهي سوار من خرز ينظم ويعرف بالفارسية الدستِينَج وجمعه رسوات (٣٥) وتلبس الرسوة في اليد كالسوار وفي الرجل كالخلخال ، ويقول القرطبي إن امرأة كانت قد اتخذت نظماً من الجزع فجعلته في ساقها (٣٦) . ولم أجد في الشعر الجاهلي بعد شاهداً على الرسوة .

---

(٢٩) البخارى ومسلم : باب الجهاد ، واللسان : خدم .
(٣٠) الحجل : بفتح الحاء وكسرها ، الصحاح واللسان : حجل .
(٣١) ديوان النابغة ص١٨٤ ط شكرى فيصل ١٩٦٨ .
(٣٢) يقول ربيعة بن مقروم يذكر البرة فى أنف البعير : (المفضليات ص١٨٨) .
له بـرة اذا مـا لـج عاجـت ... أخادعـه فـلان لهـا النخـاع
(٣٣) اللسان : برى
(٣٤) ديوان طرفة ص٣٢ .
(٣٥) الصحاح واللسان : رسا .
(٣٦) الجامع لأحكام القرآن ٢٣٨/١٢ .

هـــذه اللوحات مصورة عن مطبوعات وزارة الأعلام – المملكة العربية السعودية – الإعــلام الخــــارجي .



(خـــواتم)



(أقـــراط)



(عمـــــلة)



(خـــرز)



(عقـــــد)



(أســـاور)



(مســكة)



(أزرار وحلية شعر)

صـــوت الحـــــلي :

وبعد فإذا كانت المرأة تشعر بزهو وخيلاء وهي تتحلى بصيغتها وتتزين بأصناف من حليها ، فقد كان الرجل يرى في هذه الحلي على جسم المرأة زينة تبعث في نفسه الإعجاب بها والبهجة في النظر إليها ، وكان لوسوسة الحلي أثر بالغ في تحريك مشاعره وإلهاب خياله ، فهذا الصوت الموسيقي المنغم له أثر رائع في نفس الأعشى الذي يقول (٣٧) :

تسمع للحَلْيِ وَسْواساً إذا انصرفتْ ... كما استعان بريحٍ عِشْرِقٍ زَجِـلُ

ويصور حـــاتم الطـــائي بهاء الحلي على جسم حبيبته وكيف يتوقـــد الياقوت والشذر على نحرها ، وإذا تحركت في الفراش فإن الحلي يتكلم ويترنم ترَنماً (٣٨) :

تهـادى عليها حليُهـا ذاتَ بهجة ... وكشحاً كطـيِّ الســابريةِ أهضَما
ونحرا كفى نـورَ الجبـين يزينُـه ... توقُــدُ ياقــوت وشَــذْرٌ منظمـا
كجمر الغضا هبــَّت به بعد هجعة ... من الليل أرواحُ الصَّبَــا فتنســَّما
يُضيءِ لنـا البيت الظليل خصاصة ... إذا هي ليلاً حاولت أن تَبَســَّما
إذا انقلبت فـوق الحشيَّـةِ مــرةً ... ترنــَّمَ وســواسُ الحُــلِيِّ تَرَنـُّما

وكان منظر الحــلي على جسم الحبيبــة فيه بهاء وضياء ساطع وبهجة يصورها النابغة الذبياني في قوله (٣٩) :

صفحت بنظــرة فــرأيت منهــا ... تُحيتَ الخِــدر واضعــة القــرام
ترائبَ يســتضيء الحـلْي فيهـا ... كجمــرِ النــار بُــذِّرَ بالظــلامِ
كأن الشــذرَ والياقــوتَ منهــا ... على جيــداءَ فاتــرةِ البُغَـــامِ

وقد وظف الشعراء الحلي للدلالة على محاسن المرأة والتعبير عن جمال أعضائها فقد

(٣٧) ديوان الأعشى ١٤٤ .
(٣٨) شعراء النصرانية ص١١٨ .
(٣٩) ديوانه ص١١١ .

مصــــادر البحث

الأحجــار الكريمة في الفـن والتاريخ ـ عبد الرحمن زكي ، القاهرة ١٩٦٤ .

الأغــاني ـ أبو الفرج الأصفهاني ، ط الساسي ١٢٢٣ هـ .

الألفــاظ الفارسية ـ المعربة ـ آدي شير الكلداني ، ط بيروت ١٩٠٨ م .

الأمــالى ـ أبو على القــالي ، ط دار الكتب المصرية ١٩٢٦ م .

بلاد العرب ـ الحسن بن عبد الله الأصفهاني ، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي ط دار اليمامة.

التبصر بالتجــارة ـ الجاحــظ ، ط دمشق ١٩٣٢ م .

تجــارب الأُمم ـ أحمد بن محمد مسكويه ، ط مصر ١٣٣٣ هـ .

تزيــين الأســواق ـ داود الأنطاكي ـ ط البهية المصرية .

التزيق والحلي في العصر العباسي ـ زكية عمر العلي ، ط دار الحرية بغــداد ١٩٧٦ م .

تفسير الطبري (جامع البيــان في تفسير القرآن) ـ الطبري ، ط بولاق ١٣٢٣ هـ .

تفسير الجلالين ـ ط المعــارف العلمية مصر ١٣٤٤ هـ .

التلخيص في معرفة الأشياء ـ أبو هلال العسكري ، تحقيق عزة حسن ، ط دمشق ١٩٥٩ م .

تــاج العروس ـ محمد مرتضى الزبيدي ، ط الخيرية مصر ١٣٠٦ هـ .

ثمــار القلوب في المضاف والمنسوب ـ الثعالبي ، ط الاتحــاد مصر .

الجامع لأحــكام القرآن ـ القرطبي ، ط دار الكتب المصرية ١٩٣٤ م .

الجماهر في معرفة الجواهر ـ محمد بن أحمد البيروني ، ط حيدر آباد الهند ١٩٣٦ م .

جمهرة أشعار العرب ـ أبو زيــد القرشي ، ط صادر بيروت .

ديــوان الأعشــى ـ ط صادر بيروت .

ديــوان امرئ القيس ـ ط صادر بيروت ، ط دار المعارف مصر ١٩٥٨ .

ديــوان جميل بثينــة ـ ط صادر بيروت .

ديــوان جــرير ـ ط صادر بيروت .

ديــوان حميد بن ثــور ـ تحقيق عبد العزيز الميمني ، ط دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م .

ديــوان ذي الرمــة ـ تحقيق عبد القدوس أبو صالح ، دمشق ١٩٧٣ م .

ديــوان ابن الرومي ـ تحقيق حسين نصار ، ط دار الكتب المصرية ١٩٧٤ م .

ديــوان طرفة بن العبد ـ ط صادر بيروت ١٩٦١ م .

ديوان طفيل الغنوي – تحقيق كرنكو ، لندن ١٩٢٧ م .
ديوان عبيد بن الأبرص – صادر بيروت ١٩٦٤ م .
ديوان علقمة الفحل – ط مصر ١٩٣٥ م .
ديوان عمر بن أبي ربيعة – ط العناني مصر .
ديوان عنترة بن شداد – ط شلبي مصر ، و ط دمشق ١٩٧٠ م .
ديوان قيس بن الحطيم – تحقيق ناصر الدين الأسد ، ط صادر بيروت ١٩٦٧ م .
ديوان كعب بن زهير – ط دار الكتب المصرية .
ديوان لبيد بن ربيعة – ط صادر بيروت .
ديوان المتنبي – ط صادر بيروت .
ديوان النابغة الذبياني – ط صادر بيروت . ، ط شكري فيصل بيروت ١٩٦٨ م .
ديوان الهذليين – ط دار الكتب المصرية ١٩٤٥ م .
الذخائر والتحف – ابن الزبير ، تحقيق محمد حميد الله ، ط الكويت ١٩٥٩ م .
سنن الترمذي (الجامع الصحيح) – الترمذي ، شرح أحمد شاكر ، ط مصر .
سنن النسائي – النسائي ، ط الحلبي مصر ١٣١٢ هـ .
شعر عبدة بن الطبيب – تحقيق يحيى الجبوري ، ط بيروت ١٩٧١ م .
شعراء النصرانية – جمع لويس شيخو ، ط بيروت ١٩٧١ م .
الصحاح – الجوهري ، (الصحاح في اللغة والعلوم) إعداد وتصنيف نديم وأسامة مرعشلي .
صحيح مسلم (الجامع الصحيح) – مسلم بن الحجاج ، ط بولاق ١٣٢٩ هـ .
صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسمى بتاريخ المستبصر – ابن المجاور .
صفة جزيرة العرب – الهمداني ، ط ليدن ١٨٨٤ م .
طبقات ابن سعد (الطبقات الكبير) – محمد بن سعد ، ط ليدن ١٣٢٢ هـ .
عون المعبود شرح أبي داود – شمس الحق العظيم ابادي ، ط الهند ١٣٢٣ هـ .
الغريب المصنف – أبو عبيد القاسم بن سلام ، مخطوطة المتحف العراقي رقم ١٦٢٨ .
فتح الباري بشرح صحيح البخاري – ابن حجر العسقلاني ، ط بولاق ١٣٠١ هـ .
القاموس المحيط – الفيروز أبادي ، ط الحلبي مصر ١٩٥٣ م .
الكامل في التاريخ – ابن الأثير ، ط دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٧ م .

لسان العرب ــ ابن منظــور ، ط الأمــيرية بولاق ١٣٠٠ هـ .
لطــائف المعــارف ــ الثعالبي ، ط الأبياري والصيرفي ، القاهرة ١٩٦٠ م .
المرأة في الشعر الجــاهلي ــ أحمد الحــوفي ، ط المدني ١٩٦٣ م .
المخصص ــ ابن سيده ، ط العصرية تونس ١٩٥٦ م .
المستطرف من كل فن مستظرف ــ الأبشيهي ، ط القاهرة ١٣٠٠ هـ .
مسند ابن حنبل ــ أحمد بن حنبـل الشيباني ، ط الحلبي مصر ١٣١٣ هـ .
المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ــ جواد على ،ط دار العلم للملايين بيروت٧٦ــ١٩٧٨ .
المفـردات في غريب القرآن ــ الراغب الأصفهاني ، ط الحلبي مصر ١٣٢٤ هـ .
المعــاني الكبير ــ ابن قتيبة ، ط دار المعارف العثمانية الهند ١٩٤٩ م .
معجم البـلدان ــ ياقوت الحمـوي ، ط السعادة مصر ١٩٠٦ م .
المعرب ــ الجواليقي ، تحقيق أحمد شاكر ، ط دار الكتب المصرية ١٩٤٢ م .
المفضليات ــ المفضل الضبي ، تحقيق شاكر وهارون ، ط دار المعارف مصر ١٩٧٦ م .
نخب الذخائر في أحوال الجواهر ــ ابن الأكفاني ، تحقيق انستاس الكرملي،ط مصر ١٩٣٩م .
النــوادر ــ أبو علي القــالي ، دار الكتب المصرية ١٩٢٦ م .

اللؤلؤ القطري

نجلة اسماعيل العزي
متحف قطر الوطني

مقـــــدمة : ـ

اللؤلؤ من الأحجار الكريمة الذي تكرر ذكره في القرآن الكريم كقوله تعـالى : (مرج البحرين يلتقيان ،، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، بينهما برزخ لا يبغيان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان) .
(سورة الرحمن ـ آية ٢٢) .

وكذلك في قوله تعـالى : (جنـات عـدن يدخلونها ، يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ ولباسهم فيها حـرير) . (سورة فاطر ـ آية ٣٣) .

لقد عرف العرب اللؤلؤ في الجاهلية والإسلام كما عرفه القدماء فقد قال عنه أرسطو في كتابه (الأحجار) : « أنه حجر شريف وجوهر ثمـين معدني وحيواني وهو من أجّل الأحجار قيمة وقدراً ونفعاً وحلية تلبس ، وتكوينه مبـاين لسائر ما عداه من الجواهر الشفافة لأنها ترابية وهو حيواني . واللؤلؤ نوعان كبير يسمى الدر وصغير يسمى اللؤلؤ وأجوده في القـديم والحديث هو المدحرج (الكامل الاستدارة) ، الصافي ، الشفاف ، الكبير الحجم ، الرزين النقي . ويتراوح وزنه بين نصف مثقال إلى مثقال ونصف وألوانه هي : النقي البياض ، والرصاصي ، والعاجي ، والأصفر ، والأخضر ، والأزرق وكلها بسبب ملاصقتها لأعضاء حيوان المحار وإذا طال زمانه صار أسود ، واللؤلؤ سريع التغير لأنه حيواني ويثقب بالماس لـكي تؤلف الحـلي » .

يعتبر الخـليج العربي من أهم مصادره حيث ينتج أجود أنواعه ويصاد أيضاً من البحر الأحمر واليابان واستراليا وارخبيل بورنيو وبعض جزر المحيط الهندي وأمريكا

الوسطى والمكسيك والبحر الكاريبي . كما هنالك اللؤلؤ الذي يستخرج من الأنهار العذبة مثل في بعض أنهار بريطانيا وكندا والصين وأوروبا وشمال أمريكا . إلا أن لألئه ليست لها قيمة كبيرة وأجودها هي تلك المستخرجة من البحار التي فيها عيون ماء عذبه .

ظل عماد الحياة الاقتصادية في منطقة الخليج العربي لقرون عديدة وكان إلى عهد قريب أهم حرفة يعتاش عليها أهل المنطقة بالرغم من المخاطر والجهد الذي يلاقيه الغاصة . وقد تنبه اليابانيون إلى ظاهرة تكون اللؤلؤ الطبيعي فعمدوا إلى إنتاج لؤلؤ بطريقة صناعية حيث زرعوا المحار في أحواض كبيرة تبذر داخلها أجسام غريبة وبعد فترة تتكون حولها لؤلؤة ، وكان ذلك في أوائل القرن الحالي ، فغزت الأسواق لسهولة إنتاجها وجمالها وصعوبة التفريق بينها وبين اللآلئ الطبيعية لذلك رخص ثمن اللؤلؤ الطبيعي وقلت عملية استخراجه فكسدت تجارته .

ولكن ظهور البترول قضى على هذه الحرفة حيث انصرف رجال حرفة الغوص عنها إلى العمل في البترول الذي من جرائه عم البلاد رخاء اقتصادي عوضهم عن المشاق التي تحملوها بسبب الغوص عن اللؤلؤ الطبيعي الذي استعاضوا عنه ببديل صناعي سهل مبذول في الأسواق .

ولكن ذلك لا يعني اندثار مغاصات اللؤلؤ فهي مازالت في مواقعها فيها المحار وفي يومنا هذا يعمد بعض الهواة أو محبي هذه الحرفة القديمة إلى استخدام وسائل النقل الحديثة لصيد اللؤلؤ لإشباع رغبة قديمة في النفوس ، فيأخذون مراكب تسير بالموتورات مع غاصة عمانيين مجهزين بأحدث ألبسة وأدوات الغوص مع وسائل للتسلية من راديو وتليفزيون ومواد غذائية تموينية فيجمع بذلك في أيام معدودة أعداداً كبيرة من المحار يستخرج منه لؤلؤ طبيعي .

وبالرغم من الرخاء الاقتصادي الذي عم البلد وبالرغم من انتشار اللؤلؤ الصناعي الجيد الغزير الإنتاج يبقى اللؤلؤ الطبيعي ذا ميزة خاصة ينفرد بها وله مواصفات لا يمكن أن تتكرر في اللؤلؤ الصناعي كلها ، إضافة إلى أن قلة استخراجه أدت إلى أن يكون من الأحجار النادرة الثمينة .

هذا ويفتخر متحف قطر الوطني بعرض مجموعة من اللآلئ القطرية المستخرجة من المغاصات القطرية بإعتبارها نموذجاً لكل اللآلئ الطبيعية المستخرجة من مياه الخليج العربي .

تاريخ الغوص عن اللؤلؤ :

إن تاريخ الغوص عن اللؤلؤ في منطقة الخليج العربي قديم على الرغم أنه يبدو وكأنه حديث عهد ولا يعود إلى أكثر من قرنين من الزمان إلا أن المصادر التاريخية تثبت أن حرفة الغوص حرفة قديمة اشتهرت بها منطقة الخليج العربي وتعود إلى ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد من عهد سرجون الأكدي ، وقد نسجت حوله الأساطير كما عرفه العرب في الجاهلية والإسلام فقد ذكرتها كتب الشعر والأدب والجغرافيا والأحجار من العصرين الجاهلي والأموي مثل المسيب بن علس (خال الأعشى) وميمون بن قيس المتوفي في السنة السابعة للهجرة وكذلك في أشعار الفرزدق (المتوفى ١١٠ هجري) (١).

هـذا وقد كتب الجغرافيون العرب بدقة عن كل ما يتعلق بالغوص عن اللؤلؤ في منطقة الخليج مثل السيرافي (أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري) ، والمسعودي « ت ٣٤٦ هـ » في كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر ، والبكري الأندلسي (ت.٤٦٠هـ.) والشريف الإدريسي (٤٩٣ ـ ٥٦١ هـ .) ، وابن بطوطة وابن جبير في القرن السادس والسابع الهجري وقد نقل إلينا الجغرافيون العرب صورة عن الغوص لا تختلف عن الصورة التي تقوم عليها حرفة الغوص في يومنا هذا تقريباً .

هـذا وقد ذكر الغوص عن اللؤلؤ في كتب الأحجار والجواهر وكان الكندي (٢) أول من كتب عن اللؤلؤ وذكر أصنافه وأثمانه في كتابه المعروف بـ « الجماهر » ، والدينورى الذي عاش في أواخر القرن الثالث الهجري ، والبيروني الذي عاش في القرنين الرابع والخامس الهجريين وهو أهم من كتب عن اللؤلؤ في كتابه الجماهر في معرفة الجواهر (٣) والتيفاشي « ٥٨٠ ـ ٦٥١ هـ . » وابن الاكفاني (ت . ٧٤٩ هـ) .

لقد ذكر هؤلاء المؤلفون والكتاب والشعراء العرب بدقة حرفة الغوص ومواسمها وأنظمتها ومشاقها كما كتبوا بدقة عن اللؤلؤ ومادته وأصنافه وأشكاله وألوانه . . الخ . وتحدثوا بالتفصيل عن كل ما يخص اللؤلؤ واستخراجه كما ذكروا مغاصات اللؤلؤ وأشهرها

(١) المبرد الكامل ـ الشعر والشعرا ص٤٢٠ ٠
(٢) الفهرست لابن النديم ص٢٦١ ٠
(٣) البيرونى واعماله العلمية ـ تعريب محمد عامر الانصارى ٠ مجلة ثقافة الهند ـ ص٥٩ ط ٠ بمباى ٠ سبتمبر ١٩٥٣م ٠

وأحسنها وأوفرها إنتاجاً ، مما يدل دلالة واضحة على قدم هذه الحرفة وشهرتها في منطقة الخليج العربي أنها كانت من الموارد الهامة لخراج الدولة في عصر هارون الرشيد وكان لها مواسم كمواسم الغلال وقواعد وأنظمة يلتزم بها ، وقد صارت تحت سلطة الولاة منذ خلافة هارون الرشيد (١) .

هذا وقد ذكر البيروني(٢) أن مغاصات الخليج العربي هي أنفس المغاصات وأشرفها وبخاصة مغاصات البحرين وأن سواحله كلها مغاصات متصلة من حدود مكران إلى البحرين وسمي لؤلؤ هذا البحر قطرياً ليس نسبة إلى قطر المطر ولا تشبيها بقطر الماء وإنما نسبة إلى ناحية في البحرين تسمى قطر (٣) .

---

(١) تاريخ بغداد لابن طيفور ـ ج١ ـ ص٩٦ ـ ط٠ القاهرة ١٤٣٩هـ ٠

(٢) البيرونى ـ الجماهر فى معرفة الجواهر (المصدر السابق ص٩) ٠
ـ الاعلاق النفسية ـ ص٨٧ ٠

(٣) يقصد بالبحرين الساحل العربى من الخليج العربى ٠ أما جزيرة البحرين فقد كانت تسمى أوال ٠ انظر حمد الجاسر :
« الشريف الأدريسى ـ صفة بلاد العرب » ـ مؤلفات علماء الأندلس والمغرب ٠ مجلة العرب السنة الخامسة ص٥١٩ ٠

أسباب انتشار حــرفة الغــوص في منطقة الخــليج :

كان الغوص على اللؤلؤ في منطقة الخليج العربي من مصادر الرزق الرئيسية بهذه المنطقة وللساحل العربي الغلبة في إنتاج اللؤلؤ بالنسبة إلى الساحل الفارسي منه ، ففي سنة ١٩٠٧ م كان عدد العاملين في هذه الحرفة حوالي ٦٥ ألف شخص أي بمعدل ٨٨ ٪ من مجموع الغاصة في الخليج (١) ، وتعــود وفرة الإنتاج في الساحل العربي إلى أن حوض الخليج العربي يتدرج في الانخفاض نحو الشرق مما يجعله ضحلاً صالحاً لصيد اللؤلؤ ، وكذلك وفرة الأيدي العاملة والمواد الغذائية اللازمة لتموين رحلات الغوص وذلك بسبب كثرة مراكز العمران والنشاط التجاري على الساحل العربي من الخليج العربي هذا وتذكر المصادر العربية أن جهاز البحرين (٢) يسمى كله « القطري » (٣) وهو من كاظمة إلى بحر فارس أربع مواضع مثلى وقد يقع فيه الأصداف الكبار أحياناً إما في الصيف فيغاص به غوصاً ضعيفاً ولؤلؤه عامته فيه صفرة وكل ما نقي منه حسن وموضع قطر كله غوص وتبلغ الحبة مثقالين مما تخرج من ذلك المغاص وأكثر .

هذا وقد أسهبت المراجع العربية بوصف اللآلئ العربية المستخرجة من مياه الخليج ، وصنفتها ولها أسماء حسب حجمها ولونها وجودتها . . الخ مما لا يتسع المجال لذكرها هنا .

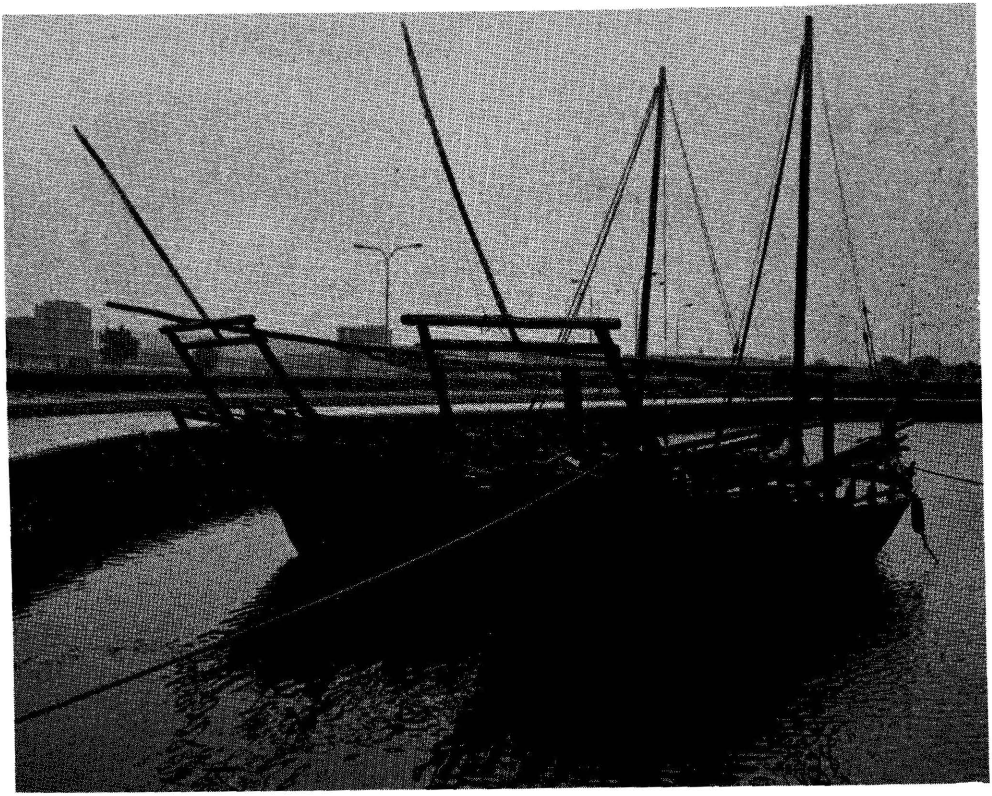
ويسمى اللؤلؤ عند العرب بالجوهر ومن أسمائه الجمان والشذر والدر والحب والخرائد والتومة واللؤلؤ هو صغار الحب .

---

(١) لوريمر ـ دليل الخليج ـ القسم التاريخى ـ احصائيات الغوص · ج٦ · ص٣١٩٠ ·

(٢) الجهاز هو الموضع المعروف بوجود اللالىء ومنه يتجهز الغاصة لاستجلابه ويطلق عليه غاصة الخليج العربى حاليا اسم (الهير) ·

(٣) يحيى بن ماسوية : الجواهر وصفاتها · ت ٢٤٣هـ/٨٥٧م ·
تحقيق الدكتور عماد عبد السلام رؤوف ·



نمـــاذج من سفن الغوص معروضة في متحف قطر الوطني

اللؤلـؤ القطري : ـ

كان البحث عن اللؤلؤ عمـــاد الحياة الاقتصادية في قطر منذ الأزمان القديمة وقد فصلنا ذلك في ما سبق ، ولا تقتصر مغاصات اللؤلـؤ على مياه شبه جزيرة قطر وإنما تمتد من دبي في ساحل عمان إلى رأس المستعاب جنوب الكويت(١) . وتسمى مغاصات اللؤلؤ بالعامية بـ « الهـيرات » أو « الهيارات » ومفردها « هير » . قيل انها محرفة من الهجرة لأنهم إذا قطعوا حاصل الأرض هجروها إلى غيرها أو هاجروا منها إلى سواها . وقيل انها محرفة عن الفارسية « الهار » وهو محل اللؤلؤ والأحجار الكريمة ومنجم الذهب (٢) . وكانت المنطقة مفتوحة للجميع حيث كان الكويتي يغوص في هيرات البحرين ولكن في الغالب

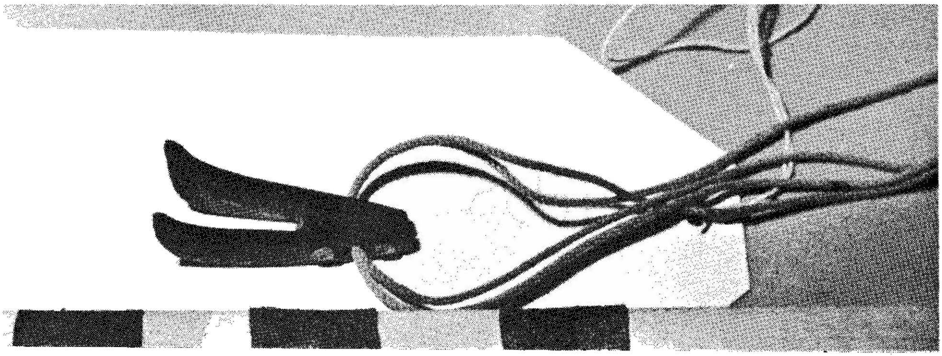
(١) ـ عبد العزيز رشيد ـ تاريخ الكويت ص ٦٨ ٠
(٢) ـ عبد الوهاب القطامى ـ الصيد والتنقل والتجارة فى البحار ص٢٠٨ ٠

كان القطريون يقتصرون على هياراتهم ويذهبون أحياناً إلى هيارات البحرين وساحل عمان . وأشهر هيارات قطر هي : حالول والرقة وأبو الصلابيخ وأبو الصروف والجرولة والعد الشرقي ، وهي تزيد عن الثمانين موقعاً ، وللغوص مواسم يسمى ابتداءها (بالركبة) وانتهاءها (بالقفال) وتنحصر في خمسة أشهر من نيسان (أبريل) إلى أيلول (سبتمبر) ، وللغوص نظام يعتمد على طبيعة الجو وقابلية الغواص وتمويل سفينة الغوص مادياً ، وللغوص سفن خاصة تسمى (الخشب) هي : السنبوق — جالبوت — بغلة — بيتل — بوم بقارة . تتم بواسطة الشراء أو بالصناعة ويسمى صانعها (القلاف) . وتقوم عملية الغوص على جهد جماعي مشترك حيث تتكون كل سفينة من سفن الغوص من الأشخاص التالية أسماؤهم بالعامية : —

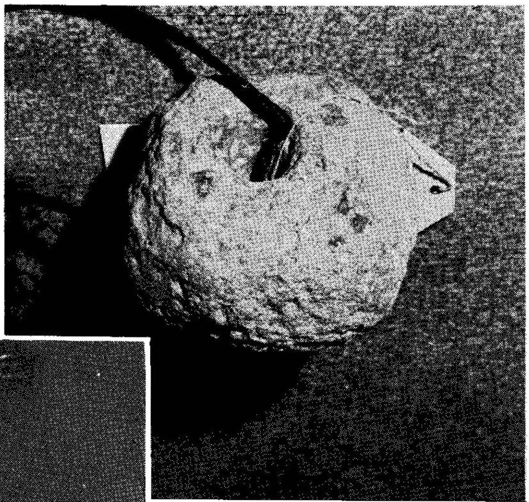
(النوخذة) : وهو أمير المركب أي رب السفينة ، القبطان ، « والمقدام — المجدام » وهو نائب النوخذة و « البندار» وهو المحاسب ، و « السكوني » أي سائقها ، و « الغواص » ويسمى « الغيص » الذي يقوم بعملية الغوص ، و « السيب » وهو الشخص الذي يشرف على الغائص ويساعده من على ظهر السفينة ، و « الرضيف » مساعد للسيب ، و « التباب » وهو صبي يتولي الخدمات الخفيفة ، و « الوانس » وهو مغني السفينة ومطربها ، ويتراوح عدد الأشخاص في السفينة الواحدة من عشرة إلى ستين شخصاً حسب حجم السفينة يتعاونون جميعاً على إنجاز رحلة الغوص . وما له علاقة برحلة الغوص هناك (الطواشّي) (١) أي تاجر اللؤلؤ الذي يشتري من البحارة ويبيعه بالأسواق خاصة الهند . وهناك (العزال) الذي يشترك في رحلة الغوص على حسابه الخاص بعد دفع أجر معين للنوخذه . وقبل بدء الرحلة تجهز السفينة ورجالها مادياً وتموينياً حيث تسلم سلفة نقدية لعمال الغوص لكي تعطي لأهلهم ليعتاشوا عليها خلال مدة الرحلة والباقي يدفع بعد العودة ، كما يشتري بها الغواص أدوات وملابس لازمة له وهي « الدراعة » ، و « السروال » لكي تحميه من حيوانات البحر الشرسة ، وأدوات الغوص هي : —

---

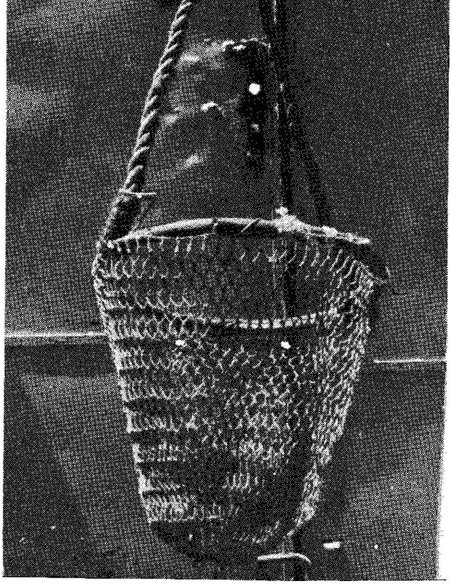
(١) — الطواش : يذكر الأستاذ سيف مرزوق الشملان بانه لم يجد فى كتب اللغة العربية ذكر للفظة طواشة بمعنى تجارة اللؤلؤ · ولكن هناك لفظة شائعة فى البصرة (طواويش) وهم الرجال الذين يجمعون التمر المتساقط على الأرض بفعل الرياح والذى يسمى (الطوش) حيث يجمعونه لحسابهم ولهم رجالهم وأعمالهم واسواقهم لبيعه · انظر تاريخ الغوص عن اللؤلؤ فى الكويت · ج١ · ص٢٨٠ ·



فطـــام



حـــجر الغـــوص : ثقـــل من الحـجر يساعد الغواص على الغوص .



الـــديين : ســـله من الشبك يعلقـها ، الغواص في رقبته لجمع المحـــار .

١ – الفطـــام : وهو مشبك يصنع من قرون الماعز أو جلد السلحفاة يمسك الأنف عند الغـــوص .

٢ – الخبـط : وهو لبـــاس بمثابة القفاز بشكل كيس من جلد لحمـــاية يد الغواص من ضربات الحيوانات البحرية أو من التجريح .

٣ – الحجـارة : وهي قطعة من الرصاص (ثقل) تدفعه للهبوط بسرعة إلى الأعمـــاق .

٤ – الأيـــدة : حبل يمسكه الغواص وينزل به ويظل ثابتاً بيـد السيب على ظهر السفينة ليسحبه عند عودته بسرعة .

٥ – الديــين : وعـــاء يشبه الشبكة لجمع المحـــار من قـــاع البحر .

وتجهز السفينة بالمـــواد الغذائية اللازمة للرحلة أهمها : المـــاء والتمر والرز والخبز الجـــاف والشاي والقهـــوة . . الخ بكميات تكفي للرحـــلة .

ويتم الغوص بعد الوصول إلى محل الصيد . ولا تزيد أعماق الهيارات عن الخمسة عشر باعاً أي ما يعادل خمسة وعشرين متراً وطريقة الغوص تبدأ منذ الصباح الباكر بعد صلاة الفجـر لا يتناول الغواص أي شيء ، وتكون مدة الغوص لا تزيد عن ثلاث دقائق يعود الغواص بسرعة ليرتاح ويعاود الغوص وعند الغروب يتوقف الغوص . وتسمى المرة الواحدة من الغوص (تبة) ويستطيع الغواص أن يقـــوم بنحو ٩٠ تبة في اليوم الواحد . وبعد تناول العشاء الذي يكون عادة من الرز والسمك ينام الغاصة على المحار المتكوم على ظهر السفينة تمهيداً للعودة للعمل في اليوم التالي وهـكذا . ثم تبدأ عملية فتح المحار واستخراج اللؤلـؤ وتصنيفه والعـودة (القفال) إلى مدنهم . وتعود السفن كلها إلى السواحل وينتهي موسم الغوص وتبدأ تجارة اللؤلـؤ حيث يستلم الطواويش اللؤلـؤ من أصحاب السفن وتدفع بقية الأتعاب والمكافآت إلى الغواصين العاثرين على الحبات الجيدة ثم ينقل إلى المـدن لوزنه وإعداده للبيع وبعد وزنه وتصنيفه ينقل إلى الهنـد حيث يوجد اختصاصيين لثقبه أو لعمل الحـــلي منه .

جـــدول : ـ

عـــدد السفن والرجـــال العاملين في مغاصات اللؤلـؤ في قطـر سنة ١٩٠٧ (١) .

يبـــلغ عـدد السفن في قطـــر ٨١٧ سفينة ، وعـدد الرجال ١٢٨٩٠ ، أي بمعدل متوسط لـكل ســفينة ١٦ رجـــلاً موزعـــة كما يلي : ـ

المينــــــاء	عـــدد السفن	عـــدد الرجال
الوكـــــرة	١٥٠	٢٥٥٠
الدوحــــــة	٣٥٠	٦٣٠٠
الوســـيل	٩	٩٠
الظعــــــاين	٧٠	٨٤٠
خـــور شقيق	٨٠	١٢٠٠
الذخـــــيرة	١٥	١٨٠
الفــــويرط	٣٥	٤٢٠
الـــرويس	١٨	٢٧٠
أبو ظـــــلوف	٢٠	٢٠٠
خـــور حســـن	٢٠	٢٤٠
سميسمـــــة	٥٠	٦٠٠

مغاصات اللؤلـؤ في ميــــاه شبه جـــزيرة قطـــر :

وهي مقسمة إلى قســـمين : ـ

(أ) الســـاحل الشمالي الشرقي بين جــزيرة رأس راكان ورأس المطبخ كما يلي :

١ ـ حـــرف القريمـــــة .
٢ ـ سواجب القريمـــــة .
٣ ـ سواحب أم الحســـا .
٤ ـ سواحب مهمليـــة .
٥ ـ حـــرف أم الحســـا .
٦ ـ بومـــــلة .
٧ ـ حـــرف المهمليـــــة .
٨ ـ بوكلب .

(١) ـ هذه الاحصائية مأخوذة من كتاب لوريمر : دليل الخليج ٠ القسم التاريخي ٠ (٦) ٠ ص٣٢٥٢ ٠

٩ – ولدى الدواسر .
١٠ – الحفرة .
١١ – أبو القاميم .
١٢ – حواد بن رمل .
١٣ – القليل .
١٤ – حرف مسحة .
١٥ – حواد حبيلات .
١٦ – أم القرم .
١٧ – أم الشيف لفان .
١٨ – ضايع .
١٩ – بقشة .
٢٠ – المتبارجة .
٢١ – أم الزيفة .
٢٢ – الجرادل .
٢٣ – أم القشس .
٢٤ – صوفان .
٢٥ – ريعة أم القشس .
٢٦ – ريعة بن حسان .

(ب) مغاصات اللؤلؤ في الشاطئ الشرقي من قطر بين رأس المطبخ وخور العبيد وهي كما يلي:

١ – سطوح الوكرة .
٢ – حواد أم العوارض .
٣ – أم العوارض .
٤ – القراديد .
٥ – أزياج النوف .
٦ – مرخان .
٧ – أم الخيفان – أزياج الحالة .
٨ – أم الخيفان – طباب الحالة .
٩ – أبو الصلابيخ .
١٠ – الرقة .
١١ – أبو الهمبار .
١٢ – الجرولة .
١٣ – أبو العروق .
١٤ – نجوة لحدان .
١٥ – أم العظام .
١٦ – العد القبلي .
١٧ – الحريس .
١٨ – حربات العد .
١٩ – هير الفاعة .
٢٠ – أبو الجلوف .

هذا وقد كانت السلطات المحلية إلى مطلع القرن الحالي تفرض ضرائب (١) على حرفة الغوص ومصائد اللؤلؤ في مينائي الدوحة والوكرة بما يعادل أربعة دولارات عن كل نوخذة (كابتن السفينة) أو غواص أو سيب سنوياً ، ودولارين عن كل رديف . كانت هذه العائدات تنفقها السلطات على وسائل الدفاع في الموانئ والمدن . كما كان يعطى منها لبعض السفن وبعض الأفراد القبليين . أما بقية الموانئ فقد كانت سفن الصيد تعمد عند عودتها من موسم صيد اللؤلؤ إلى إعطاء منح إلى البدو العاملين معهم .

(١) لوريمر . دليل الخليج . ق تاريخ . ج٦ . ص٣٢٦٣ .

مخـاطر الغـــوص :

يتعرض الغـاصة إلى متاعب جمة ومخاطر كثيرة من أمراض تصيبهم إلى حيوانات بحـرية شرسة قد تودي بحياتهم أحياناً . وأهون هذه المخاطر هي متاعب الطعام الذي لا يكفي ورداءة ماء الشرب وسوء المعيشة على ظهر سفينة الغوص لمدة خمسة شهور ، إضافة إلى أخطار الحوادث التي تنتج من جـراء عملية الغوص وطبيعة المهنة التي يزاولونها .

ولـكن أهم هذه الأخطار هي الحيوانات البحرية الشرسة التي يحسب لهـا الغائص ألف حساب عند نزوله البحر وهذه الحيوانات التي سندرجها آنفاً يمكن رؤيتها حيث أنها معروضة في متحف قطر الوطني القسم البحري منه مع حيوانات البحر الأُخرى في خزانات خاصة بها وهي :

أولاً : حيـوانات البحـر :

١ ـ الجرجور (القرقور) :

وانثاه تسمى (الذيبة) باللهجـة العامية . وهو سمك القـرش (Shark) وهو أشد الحيوانات البحـرية خطـراً على الغواصين حيث أنه يلحق بالغواصين ويطبق فـكية ولا يفتحها إلا ويكون قد قطع جـزءاً منه وأحياناً يقطع الغواص إلى نصفين فيقتلـه .

وأسماك القـرش هـذه من الأسماك البدائيـة من فصيلة الأسماك الغضروفية القديمة (Elasmobranchs) والتي تتمـيز بهيكلها الغضروفي وبالجـلد الذي تغطيه صفائح عظمية وتضم أسماك القرش أشكالاً مختلفة تتراوح بين عائلة القروش الأليفة وهي كلاب البحـر والقروش الكسولة ، إلى القروش الشرسة وهي القروش السريعة العنيفـة المفترسة وتسمى (Charcharinidae) وهي خطرة ولها فـم مزودبصفوف متتالية من الأسنان المشرشرة الحـادة المنشارية .

٢ ـ اللخمة : (Sting-Ray)

وهي سمكة معروفة في الخـليج العربي كبيرة الحجم مستديرة الشكل لها ذيل طويل كالسوط به شوكة سامة . تنزل إلى أعماق البحر وتجثم أحياناً على ظهر الغواص

فيختنق تحت المـــاء أو تقتله بأن تضربه بشوكتها السامة ، وتسمى علمياً بـ (القوابع) وهي من فصيلة الأسماك الشديدة التفلطح تلتحم فيها الزعانف الصدرية مع الجسم وذيلها يأخذ شكل الحبل الطويل المزود بشوكة أو اثنتين من الأشواك الخطرة التي تغطي قاعدتها مـــادة مخاطية سامة .

الدجـــاجة :

وتسمى الديك أيضاً . وهي سمكة سامة لهـــا أشواك تضرب بها تشبه ريش الدجاج ولونها بني به أسود وأحمر وعليه نقط تشبه الريش داخل المـــاء فقط . أما خارجه فشكلها يشبه السمكة العادية وهي نوعان ديك ودجاجة (ذكر وأُنثى) وتطلق أشواكاً سامة . وتسمى علمياً سمك الديك أو التنـــين (Dragonfish) وتحفر مساكنها في قـــاع البحر وتختبيء فيها وتهجم فجأة عند شعورها بالخطر فتطلق أشواكها السامة .

الـــدول :

وهو (Octopus) حيوان من نوع الأخطبوط هلامي كروي الشكل ولونه أحمر وله زعـــانف طويلة ملتفة حول نفسها بشكل كروي يضرب بها وضربته شديدة مؤذية وينتشر في جميع البحار ويأتي في مواسم معينة حيث تحمله التيارات المـــائية الجـــارية في أعمـــاق البحر .

القـروص :

وهي لفظة عامية مشتقة من الفعل ـ قرص ـ حيث أن هذا الحيوان هلامي كروي الشكل يبلغ حجمه بقدر حبة الحمص ولكنه يضرب ويلسع بقرص الجسم ويكثر في الميـــاه الراكدة ويشبه الحشرات والهوام في الجو . وتسمى علمياً بزاقات البحر (الزقيات) ـ (Sea-Squirts) .

بوزيزى : (حصان البحـر) ("Sea-Horse") .

سـمي كذلك بالعامية لأنه يصدر صوتاً كالأزير من فمـه المزماري الشكل عندما

يشتبك في معركة مع الغواص فيزعجه ويربكه مما يؤدي إلى تضييع فرصة الصيد حيث يعمد الغواص للخروج بسرعة من المــاء .

٧ ـ أبو لجني :

وهو ثعبــان البحر ("Hydrophids") ويوجد منه في ميـاه الخـليج خمسة أنواع أكثرها شيوعاً نوعان : وهو الذي ذو لون أصفر يميل إلى الإخضرار أو رمادي مخطط وينمو حتى يبلغ طوله ١٥٠ سم ويشبه الثعبان العادي وهو غير سام ، ولـكن هنـاك نوع سام قوي يؤدي إلى شل الفريسة وسمه خطر على الإنسان وهو لا يهاجم الغواص ولكنه يجب الحــذر منه لخطورة سمه .

٨ ـ الرماى :

وهو قنفذ البحر ("Sea Urchins") من عائلة الحيوانات البحرية ذات الجلد الشوكي والرمادي يسمى ("Diadenea") من النوع الذي يختبىء بين الشعاب المرجانية ويحفر له فوهات عميقة بين الصخور ولونه أسود ويطلق أشواكاً إبرية إذا ما شعر باقــتراب الخطـــر .

ثانياً : الأمراض :

هنــالك العديد من الأمراض التي تصيب الغاصة بسبب طول مدة عملهم في البحر حيث تصل إلى خمسة شهور مرة واحدة إضافة إلى طبيعة عملهم الملتصقة بالمــاء مما تؤدي إلى الإصابة بأمراض معينة أهمها : ـ

١ ـ انفجار طبلة الأُذن وذلك بسبب ضغط المــاء القوي من الأعماق فيخرج منها الدم غزيراً خاصة بالنسبة للمبتدئين مما يضطر الغواص إلى الراحة فترة إلى أن يبرأ ولـكنه يصاب بالصمم ومرض (الطنان) حيث يفاجئهم النزيف تحت الماء فيحدث طنينا هائلاً بالأُذن يمنعهم من العمل .

٢ – الجروح والصدمات ويصاب الغاصة بالكدمات والجروح بسبب الحوادث التي يتعرضون لهـا أثناء القفز في الغوص اما بسبب اصطدامهم بالحجارة أو بالحبال وحتى ببعضهم بالبعض الآخر .

٣ – الأمراض الجلدية ومنها مرض يعرف بالعامية بالسمط وهو طفح جلدي يتطور إلى قروح لطول مكوثهم بالمـاء ، ومنهم من قد تصل إلى عينيه فتصيبه بعاهة فقدان البصر . وهناك مرض جلدي آخر يسمى بالعامية (أم زليقة) يصيب المناطق الحساسة من جسم الغواص بسبب الرطوبة وملوحة الماء ويداوي بالاغتسال ليلياً بالمـاء العذب والتعرض إلى الهـواء .

٤ – أمراض سوء التغـذية : وتسمى بالعامية « أبو قشاش » وهو مرض الاسقربوط الذي يصاب به البحارة وينتج من نقصان شديد بفيتامين سى فتتساقط الأسنان وتلتهب اللثة ولا عـلاج له إلا الحوامض .

٥ – آلام الرأس : ومنها الصداع الدائم بجانب واحد من الرأس ويسمى الشقيقة (المجرين).

٦ – الصرع : ويصاب بعض الغاصة أحياناً بمرض الصرع إذا ما صادفوا أهوالاً ومخاطر تحت المـاء وهو داء شديد الخطـورة .

٧ – الأمراض الصدرية : وتنتج لكثرة الرطوبة ومنها الكحة والسعال والحشرجة التي تسبب لهم أحياناً أزمة تمنعهم من الغوص .

٨ – تهري اللحم : من شدة العمل وملوحة مـاء البحر ورطوبته ويسمى بالعامية (خياسة) حيث يهترئ جلد اليدين من مسك الحبال بقوة أو من شدة التجديف أو لطول مدة العمل بفتح المحـار .

أصناف اللؤلؤ

تكوين اللؤلؤ العلمي :

يتكون اللؤلؤ من أصل عضوي يفرزه حيوان الأويستر (Oyster) (محار) وهو حيوان صدفي ذو مصراعين يفتحها ويغلقها بقوة عضلات إرادية . وتتكون صدفة هذا الحيوان من أربعة طبقات منفصلة هي من الخارج إلى الداخل : الأولى مادة قرنية هي الكونكولين (Concyline) والثانية كربونات الكالسيوم وهي الكالسيت والأرجونيت بهيئة منشورات عمودية على السطح الداخلي للصدفة . والثالثة تسمى أُم اللؤلؤ (Mother of Pearl) تتكون من حبيبات غاية في الدقة من كربونات الكالسيوم لها البريق اللؤلؤي الذي يميز السطح الداخلي للصدفة والطبقة الرابعة هي طبقة الهيبوستراكوم بين عضلات الحيوان والصدفة .

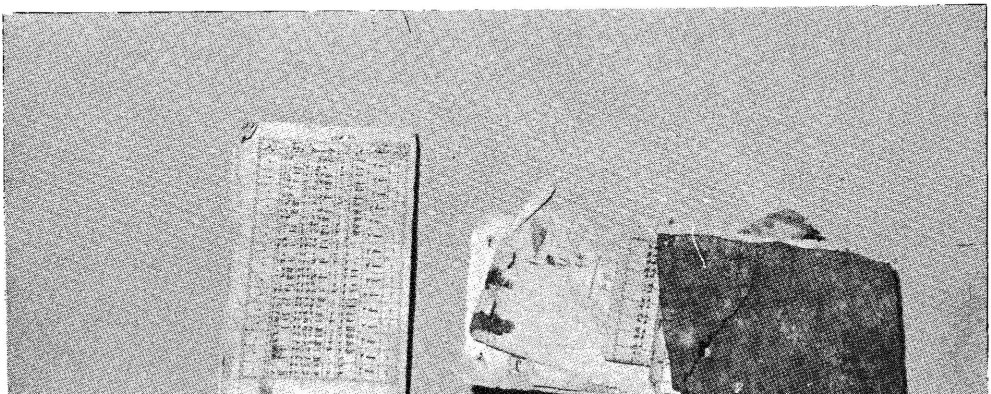
أما كيف يتكون اللؤلؤ فهو أن يدخل جسم غريب دقيق بين مصراعي الصدفة ويلهب الجزء الرخو من جسم الحيوان فيغطيه الحيوان تدريجياً بطبقات ناعمة متحدة المركز من نفس مادة الصدفة وتنمو تدريجياً فتكون اللؤلؤ الذي يتكون من مادتي الكونكيولين ويسمى بالعامية (الخرط) وكربونات الكالسيوم .

صفاته : —

تتراوح صلادة اللؤلؤ بين ٥ر٣ — ٤ أما وزنه النوعي فيتراوح بين ٦ر٢ — ٨٦ر٢ . وتزداد قيمة اللؤلؤ بارتفاع هذه النسبة . أما بريقه فيختلف باختلاف طبيعة الطبقات المكونة له . أما ألوانه فتختلف باختلاف المياه التي يعيش فيها الحيوان وكذلك البيئة المحيطة به في نفس المياه ويمكن لخبير اللآلئ أن يحدد المنطقة التي أنتجت اللؤلؤ معتمداً على لونها فحسب . أما صفات الجودة فهي : النقاوة — الشفافية — كبر الحجم — الدحرجة « التكور » ضيق الثقب ، وأحياناً يجد الغواص لؤلؤة غير كاملة حيث تكون يابسة من الخارج ورخوة من الداخل يسمونها (مجهولة) يعمد الخبراء إلى استخراجها فتكون إما فريدة نادرة أو لا شيء كاسدة



صندوق البشتخة ــ المقاسات : ٢١ × ١١ أنج ٨٠ أنج العمق



كتاب بيـــان حســاب اللؤلؤ

وزنـــــه :

قبل أن يصنف اللؤلـؤ إلى أنواع يوزن ويقسم حسب حجمه ، ويوجد لدى الطواشي موازين خاصة لـوزن اللؤلـؤ ومكاييل ومعايير هي : (الحبة ــ والمثقال ــ والجو) وقبل وزنه يفرش الطواشي (الدستة) ويفتح صندوق (البشتختة) الخاص بحفـظ اللؤلـؤ وأدواته وهي طاسات مصافي (غرابيل) متعـددة الأحجام ومكاييل ومكبرات لفحصه . فيفرش قطعة قماش أحمر مربعة الشكل طول ضلعها متر أو متر ونصف تسمى (الحرجة) أي (الحرقة) ويبدأ بغربلة اللؤلـؤ ، فيضع كمية منه في الطاسة الأولى ذات الفتحات الـكبيرة ويغربلها واللؤلـؤ الذي يبقى في الطاسة الأولى يسمى « رأس » أي أنه أكبر المجموعة حجماً ، ثم يغربل الباقي والذي يبقى في الطاسة الثانية يسمى « بطن » ، وهـكذا إلى آخر المجموعة حسب حجمها وتسمى (يـكة » . ثم يوزنها بمعايير خاصة ، حيث يزن الكبير منها « بالجو » والتي يبلغ سعرها أحياناً ألف روبية والتي يتجاوز وزنها أكثر من جو ونصف تكون حصباة فريدة أو « الدانة الغلطانة » وهي في الكتب العربية (اللؤلـؤة الفريدة) أو (الجوهرة) أو (الدرة اليتيمة) . وهذه الأوزان بالألفاظ العامية ويقابلها بالمقاييس العالمية المثقال ، فيعتبر المثقال هو الوحدة الأساسية لوزن اللؤلـؤ والأحجار الـكريمة والذهب . والمثقال يساوي ٤٩ر٤ غــرام ، وهناك القيراط ويساوي ٢٢٣ر٠ غرام ، وكذلك الحبة وتساوي ٤٤٦ر٠ غرام (١) .

ويعمد الطواشي بعد الغربلة والوزن إلى تسمية المجموعات حسب حجمها ، ويسمي المجموعة الـكبيرة منها (المحمل) وجمعها (المحملات) ، وتليها بالحجم مجموعة (اتبابه) وجمعها (تبايب) وهـكذا . ثم يحفظها في أدراج حسب أنواعها وحجمها . ولا يصوغ الطواشي اللؤلـؤ أو يرصع به وإنما يتاجر به فقـط ، فعند الطلب يفتح الأدراج ويختار المشتري مجموعة ينظم بها عقوداً أو عقدا عند المختصين من الصاغة . كما هنالك طريقة أخرى لحفظه ألا وهي ثقبه ونظمه في خيوط تشد مع بعضها بشكل مجموعات ، وهذه الطريقة هي التي يتبعها الصاغة لحفـظ اللآلئ عندهم لاستعمالها عند الحــاجة .

(١) هنتس فالتر : المكاييل والأوزان الاسلامية وما يعادلها فى النظام المترى · ص١١ ترجمة عن الألمانية د· كامل العسلي ــ عمان ــ ١٩٧٠م ·



عـــده قيــــاس ووزن اللؤلؤ ، وتتــكون من :

- مصـــافي (غرابيل) . العـدد سبعة .
- مجمـــوعة أوزان من العقيق أو الرخـــام أو النحـــاس .
- ميزان صغير (موضوع داخـــل كيس) .
- مـــكبرة .
- مــــلاقط و كماشات .
- قطعـة قمـاش أحمـر (خرجه) .

أنـــواعه : ـ

يسمى اللؤلـؤ الطبيعي في الخليـج العربي (إقْماش) (١) بكسر الهمـزة وإسكان القاف ، واللؤلـؤة الواحـــدة تسمى (إقْماشة) ويقسم بصورة عامة إلى الأنواع التالية (٢) حسب تسميتها بالعامية وهي واحدة في الخليج العربي ويوصف بما يـــلي :

١ ـ جيـوين : « بكسر الجيم » جمعه جيونات وهي لفظة هندوآرية تعني الجميل (جوانا) وهي كاملة الاستـدارة .

٢ ـ شرين : جمعه شرينات . لفظـة فارسية تعني الحلو الحسن . وهناك « ينم شيرين » .

٣ ـ قولوة : « قولواة » جمعه قولوات أي كولوات وهي حسنة غير مستديرة . نصف بيضاوية مسطحة الظهر .

٤ ـ بـــدلة : جمعها بدلات ـ صافية اللون لكنها مختلفة الأشكال .

٥ ـ يكـــة : جمعها يـكات لفظة فارسية تعني الواحـــد .

٦ ـ كنبياتي : بكسر الـكاف جمعها كنبيات .

٧ ـ فَـص : بفتح الفـاء وجمعها فصوص . وهي اللـؤلـؤة الجيـدة ملتصقة بالمحـارة يزيلها الأخصائيون بمهـــارة .

٨ ـ مجهـــولة : جمعها مجاهيل وهي لـؤلـؤة كبيرة داخل غشاء يعمل الأخصائيون على إزالته فإما أن تكون فريدة أو لا شيء كاسدة .

٩ ـ رأس : وجمعها روُوس وهي أكبر اللآلىء حجماً .

١٠ ـ بطـن : جمعها ابطـون ـ وتلي الرأس حجماً ومن أنواعها نوع يسمى بطـن الهند .

١١ ـ خشن : لـؤلـؤ درجة ثانية بعد الجيون وهو جيد كامل الاستدارة لـكنه صغير .

١٢ ـ تنبـول : وجمعها تنابيل وهو بيضاوي الشـكل يشبه الدمعة أو كمثرى يسمى تنبولي .

١٣ ـ خشرة : جمعها مخاشر وهي مجموعة لآلىء ملتصقة بالمحارة من الداخل .

---

(١) هذه التسمية ماخوذة من بياض القماش المصنوع مـن القطـن الأبيض الخالص وتسـمى بالايرانية (ماروارايد) وبالانكليزية (Pearl) وبالعربية الفصحى اللؤلؤ وجمعه لآلىء .
(٢) حسب العلامات المميزة الطبيعية وهى اللون والشكل والثقل .

١٤ ـ السحتيت : وجمعها سحاتيت وهو صغار اللؤلؤ الذي يتبقى في قعر المصفاة وحجمه مثل حبة السمسم وغير جيد .

١٥ ـ الجالس : وتكون له قاعدة يجلس عليها .

١٦ ـ البيضي : الذي يشبه في شكله البيضة .

١٧ ـ النخجي : الذي يشبه في شكله وحجمه حبة النخي أي الحمص .

١٨ ـ المـوري : بضم الميم ويشبه مورة الصبار (تمر الهند) .

١٩ ـ الطبلي : وهو اسطواني الشكل يشبه الطبل .

٢٠ ـ ربياني : ويشبه في شكله الربيان المقشر . غير منتظم الشكل .

٢١ ـ العدسي : وهو نوع من اللؤلؤ مسطح يشبه حبة العدس وبحجمها .

٢٢ ـ الذيل : وهو جيد صغير الحجم الثالث بعد الرأس والبطن .

٢٣ ـ الناعم : وهو مجموعة لآلئ ناعمة جيدة الشكل واللون واللمعان ولكن لصغر حجمها توزن جملة .

٢٤ ـ السندالي : جيدة ولكن فيها ترصيع .

٢٥ ـ السجني : كبيرة وجيدة وبها رصعة وتبدو أحياناً كأنها لؤلؤتان ملتصقتان .

٢٦ ـ الفولواة : الفولا لفظة تطلق على اللؤلؤة الكاملة الاستدارة صغيرة أم كبيرة .

٢٧ ـ المشير : وهي اللؤلؤة الكاملة الاستدارة ، ملساء ، براقة ، بها حمرة وردية وهي أحسن اللآلئ وأندرها .

٢٨ ـ الزجاجي : وهي الأبيض الناصع وتبدو كأنها شفافة بها بريق أبيض صافي .

٢٩ ـ رابعة : وهي بعد الذيل في الحجم .

٣٠ ـ أم عوينة : « اسماني » غير لامع يميل للزرقة .

٣١ ـ كلكي : مستطيلة مشوّهة .

٣٢ ـ خاكه : ترابّ اللؤلؤ . يسحق ويستعمل دواء .

٣٣ ـ قامشاهي : « ينم شيرين » ليست تامة الاستدارة . أبيض غير منتظم .

ملاحظة : يعتقد الغاصة ان اجود انواع اللالىء هي ما تنتجه منطقة الخليج ويقدرون جودة اللالىء بعدد طبقاتها ويسمونها (ثوب) فمثلا لآلى كرانيش من طبقة واحدة ولالىء سيلان من ثلاث طبقات ولالىء البحر الاحمر ومسقط من خمس طبقات ٠ اما لالىء الخليج فمكونة من سبع طبقات للأنواع الممتازة ٠ ومن الممكن تحسين نوع اللؤلؤ بازالة طبقة او طبقتين من سطحها الخارجى فتصبح لامعة ٠

الحجـــم :

تنقى اللآلئ الكبيرة وتعزل جانباً ولا تغربل وتسمى «حصابي» ، ثم يقسم اللؤلؤ من حيث الحجم إلى ما يلي وذلك بعد أن يغربل بالمصافي (الطاسات) :

١ ــ الرأس : وهي الحصابي وأكبر اللآلئ حجماً وتبقى في المصفى الأول وهي (الدانــة) إذا كانت كبيرة وجيدة وثقيلة كاملة الاستدارة . ويساوي قطر الخرم (١٨ر٠ أنج) .

٢ ــ البطــن : وتــأتي بالدرجة الثانية في الحجم حيث تبقى في المصفى الثاني وتكون مستديرة من جهة ومسطحة من جهة واحدة . قطر الخرم (١٥ر٠ أنج) .

٣ ــ الذيــل : وحجمها يلي البطن . قطر الخرم (١٣ر٠ أنج) .

٤ ــ الرابعــة : وتلي الذيل حجماً . «حدريه» . قطر خرم الطاسة (١١ر٠ أنج) .

٥ ــ اليكـــة : وتبقى في قعر المصفى بعد الغربلة .

٦ ــ النــاعم والسحتيت : وهو نــاعم جداً مثل حب السمسم .

الجـــودة :

ويقسم اللؤلؤ من حيث الجــودة إلى ما يــلي :

١ ــ الجيوين : جيوانا وهي أجمل اللآلئ وأثمنها وتكون صفاتها كبيرة كاملة الاستدارة براقــة شديدة اللمعــان ، لهــا ضل وردي خفيف .

٢ ــ الخشن : وهو اللؤلؤ الحسن ويأتي بالدرجة الثانية بعد الجيد (الجيون) حيث له نفس مواصفاته لكنه أصغر حجماً .

٣ ــ الدرج : نوع ممتاز من اللؤلؤ مستدير له مواصفات الخشن لكنه أصغر حجماً منه .

٤ ــ قولواة : جيدة لامعة صافية لكنها غير مستديرة وهي إما بشكل كمثري يشبه الدمعة أو بيضي .

٥ ــ البــدلة : وتلي القولواة بجودتها ولونها لكنها مختلفة الأشكال وبها رصعة أحياناً وهي إما نصف كروية أو بيضية أو مائلة لكنها صافية .

٦ ـ النــاعم : مجموعة لآلئ ناعمة لكنها جيدة كاملة الاستدارة لامعة يباع بالجملة لصغر حجمــه .

٧ ـ البــوكة : غير كاملة الاستدارة مختلفة الأشكال والحجوم والألوان . صغيرة جداً.

٨ ـ الفصــوص : وهي لآلئ ملتصقة بالمحــارة .

اللـــــون : (١)

أمـــا ألـــوان اللـــؤلـــؤ فهي : ـ

١ ـ المشير : الأبيض المشرب بحمــرة وردية وهي أحسنها وأندرها إذا جاءت بهذا اللون وكانت كاملة التكوين ملساء براقة فهي أجودها قاطبة .

٢ ـ النبــاتي : وهو الأبيض المشرب بحمرة أقل غير ناصع البياض به صفرة مثل لون (السكر النبات) .

٣ ـ الزجــاجي : وهو الأبيض الناصع البياض زجــاجي براق لامع كأنه شــفاف .

٤ ـ السماوي : ما كان لونه به زرقة خفيفة بلون زرقة السماء الصافية . (أسماني) .

٥ ـ السنقباسي : وهو اللون الذي يشتد فيه الأزرق أكثر من السماوي ويميل إلى الرمادي أكثر ، وهي « لفظة هندية » .

٦ ـ القلابيا : « القلابي » وهي اللؤلؤة ذات اللون الأبيض الممترج بألوان الطيف الشمسي حيث يتقلب لونها حسب الضوء .

٧ ـ الخضرا : وهي التي يميل لونها إلى الإخضرار وهو أردأ أنواع اللؤلؤ وأقلها قيمة .

٨ ـ الشــقرا : ويــكون لونها أصفر باهت (أشــقر) .

ملاحظـــــة :

هنـــالك ألـــوان نادرة منها السوداء والرمادي الغامق فإذا جاءت كبيرة بيضاوية أو كروية بهذا اللـون تكون جوهرة ثمينة من هذا النـوع .

---

(١) ينسب خبرا اللؤلؤ فى الخليج الى ان التغيير فى اللون هو من اثر ضوء الشمس فيقولون اللآلىء التى تنمو بين الجزر واليابسة هى التى تكون عرضة الى ان تشوبها ظلال ·

الشـــكل :

ويقسم اللـؤلـؤ من حيث الشكل إلى ما يـــلي :

١ – الفولواة : وهي لفظـة دخيلة تعني الكاملة الاستدارة .

٢ – البطـن : وتشبه بالبطن وتنسب إلى الهند وهي نصف كروية لهـا ظهر مسطح .
مأخوذة من الكلمة الإنكليزية (Button) وتعني « الزرار » .

٣ – البيضي : ذات الشكل البيضاوي يشبه البيضة .

٤ – التنبوولي : « التنبولي » وهي بيضاوية أو كمثرية تشبه الدمعة .

٥ – القولواة : « الكولواة » نصف بيضاوية مسطحة الظهر .

٦ – السندالي : مرصعة مختلفة الأشكال كروية أو بيضوية .

٧ – العدسي : وهي مسطحة وتشبه حبة العدس في شكلها .

٨ – السجني : بها ترصيع واحد كبيرة دائرية تشبه حبتين من اللؤلؤ ملتصقتين .

وفي الختام نود الإشارة إلى أنه توجد أكبر لؤلؤة في العالم في مجموعة هوب (Hope Collection) بانجلترا حيث يبلغ قطرها بوصتان ووزنها ٤٥٤ قيراط (أي ما يعادل مائة غرام تقريباً) ولكن ثمنها لا يتجاوز العشرين ألف جنيه استرليني فقط وذلك لأن لونها غير متجانس كما توجد في متحف موسكو لؤلؤة البليجرينا (Peligrina) وهي لؤلؤة كاملة الاستدارة تزن ٢٨ قيراطاً فقط (ما يعادل ٧ جرام فقط) لكنها أغلى بكثير من اللؤلؤة السابقة لاحتوائها على كافة مواصفات اللؤلؤة النـادرة .

ويعرض متحف قطر الوطني مجموعة من اللآلئ الطبيعية المستخرجة من المغاصات القطرية في القسم البحري من المتحف كلها ما عدا بعض المحارات التي بها لآلئ ملتصقة فإنها معروضة مع الذهبيات والأحجار الكريمـة .

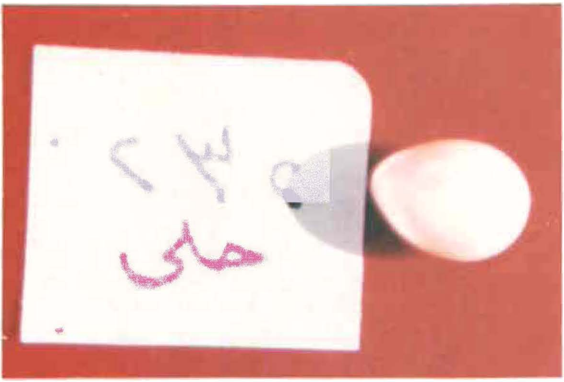
هــذا وقد عرضت هذه اللآلئ في الطابق الأرضي من القسم البحري من المتحف في خزانات أُفقيــة زجاجية يمكن مشاهدتها ومتابعتها بسهولة .

هــذا ويمتــاز اللؤلؤ القطــري بكبر حجمه . ومعظم الأنواع المعروضة هي من :
الجيــوين – والسجني – والبــكه – والبطــن – والنــاعم .
أي أنها تحتوي على معظم أنــواع اللــؤلــؤ انتشاراً .

* * *



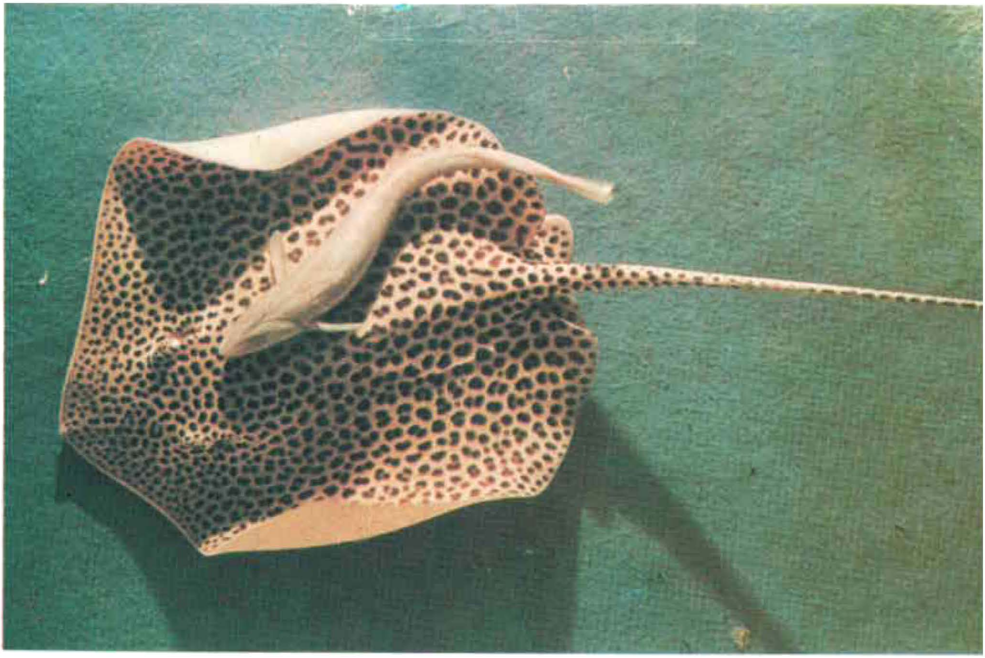
لؤلؤة (سجيني)



لؤلؤة (يكة)



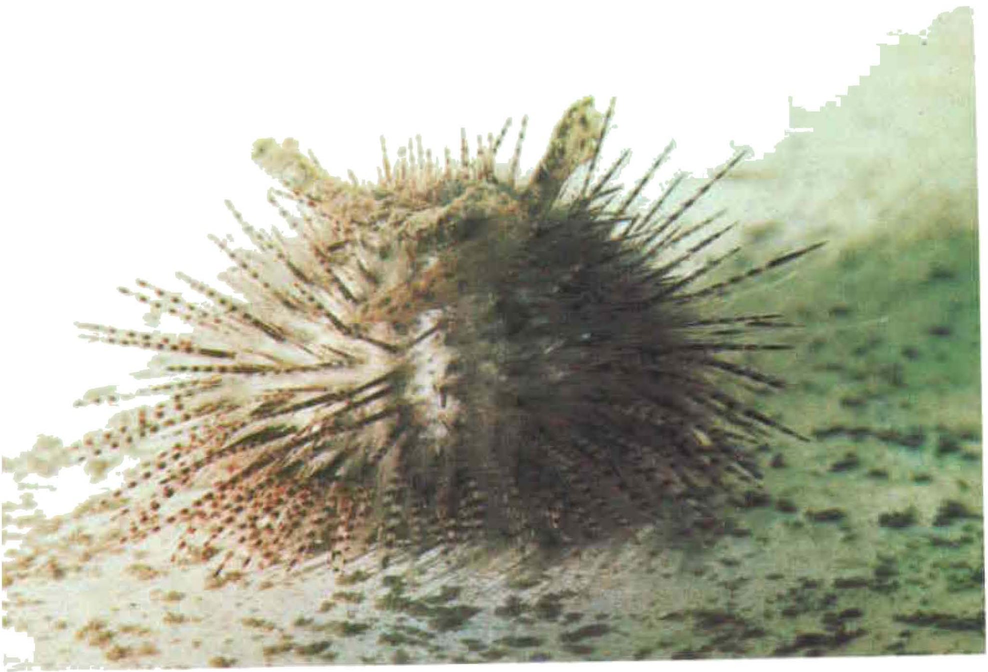
مجموعة لآلئ



٢ ـ نخمه ولزاق



٣ ـ الدجــاجة



الرماي - قنفذ البحــر



محارة بعد فتحها بالمغلقة بحثاً عن اللؤ لـؤ بداخلها